المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

ديڤيد دامروش

كتابٌ بَيْنَ الرُّكام

ملحمة جِلجامش العظيمة، كيف ضاعت وكيف اكْتُشِفتْ

ترجمة: موسى أحمد الحالول

2027



يتقصى هذا الكتاب سيرة اكتشاف ملحمة جلجامش فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى، وفك رموز الكتابة المسمارية التى كتبت بها الملحمة، كما يسلط الضوء على الدور المحورى الذى لعبه المستكشف العراقى هرمزد رسام فى اكتشاف مكتبة آشور بانيبال، التى وجدت فيها ألواح الملحمة الاثنا عشر، وقام بترجمتها عالم الآثار البريطانى جورج سميث، وهو الدور الذى دأب بعض البريطانيين على طمسه ونسبته لأنفسهم.

وكذلك يتتبع المؤلف سيرة الملحمة إلى بدايات التاريخ المدون؛ حيث نشأت من سلسلة الأناشيد السومرية، التى قيلت فى تمجيد جلجامش ملك أوروك وبانى سورها العظيم.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

كتابٌ بَيْنَ الرُّكام

ملحمة جلجامش العظيمة، كيف ضاعت وكيف اكْتُشِفَت

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2027
- كتاب بين الركام: ملحمة جلجامش العظيمة- كيف ضاعت وكيف اكتُشفت
- ديڤيد دامروش
- موسى الحالول
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

THE BURIED BOOK:
The Loss and Rediscovery of the Great Epic of Gilgamesh
By: David Damrosch

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

كتابٌ بَيْنَ الرُّكام

ملحمة جلجامش العظيمة، كيف ضاعت وكيف اكْتُشِفَت

تأليف : ديڤيد دامروش

ترجمة : موسى أحمد الحالول



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دامروش ، ديفيد
كتاب بين الركام: ملحمة جلجامش العظيمة ، كيف ضاعت
وكيف اكتشفت/ تأليف: ديفيد دامروش، ترجمة: موسى أحمد الحالول
ط١ ، القاهرة — المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٢
٣٣٢ ص ، ٢٤سم
١ ـ الملاحم
(أ) الحالول، موسى أحمد (مترجم)
(ب) العنوان ٨٠٨,٨١

رقم الإيداع ١٧١٥١ / ٢٠١١
الترقيم الدولى : 9-786-704-977-978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة: صِدامُ التواريخ



التلة الكبرى في قيونجيك، مقابل الموصل

في أوائل نيسان/ أبريل من عام ١٨٤٠، حطَّ رحالةٌ بريطاني الرِّحالَ في أتْرِبةِ الموصل، عاصمة شمال العراق الإقليمية، كان أوسْتِن هنري لايَرْد شابًّا لا يَقَرُّ له قرار وطموحًا لا يعرف تمامًا ماذا يريد أن يفعل في حياته، وقد وصل لتوه من رحلة دامت عدة أشهر تجول فيها في اليونان وتركيا

وشرق المتوسط، وهو يتأمل بإعجاب تلك الأوابد التي خلّفها اليونانيون والرومان في البلاد الواقعة شرق المتوسط، أما الآن فقد قادته مغامراته إلى أراضٍ غير مأهولة نادرًا ما يزورها الرحّالة الأوربيون، وكان يُشاعُ أن الموصل محاطة بمواقع تضم آثارًا مهيبة لمدينة نينوى وغيرها من المدن الآشورية القديمة، ولكنها غير مُدرجة على خرائط المنقبين، لكن ما سمعه لايَرْد كان صحيحًا وزائفًا في آنٍ معًا، فالمواقع موجودة، لكنه عندما خرج إلى هذه المواقع ذُهل لمرآها كأنها صَفْصَفٌ خاوية؛ إذ لم يبق من حضارات الرافدين العظيمة إلا تلالٌ ترابية بارتفاع أربعين أو خمسين قدمًا وبعرض يناهز الميل، ولا يُرى فيها ولو معبدٌ واحد أو عمودٌ واحد أو منحوتةٌ واحدة.

ولكن إقفار الأماكن الآشورية لم يفلح إلا في إلهاب خياله بدلاً من أن يخيب أمله، فكما كتب لاحقًا، كان الرحالة الذي يعبر الفرات يبحث عبثًا عن "عمودٍ رشيق ينتصب فوق أجمة آسٍ كثيفة" أو عن أقواسٍ أنيقة لمدرَّجٍ يطل على خليجٍ يتلألأ، "فيحتار فيما يستخلص من هذه الرِّجام التي تلوح بلا شكل أمام ناظريه،" ثم يتابع لايَرْد، "فكلما تكهن في أمر هذه الأكوام البائسة، بدت له النتائج مُلتبسة، فالمشهد من حوله يتناسب مع الخراب الذي يتأمله، والدمار يتلوه دمار، والحيرة تعقبها رهبة؛ إذ ليس هناك ما يُطيِّب الخاطر، أو يُفضي إلى الأمل، أو يروي خبر ما سلف[1]"، وفي تلك النقطة من الزمان والمكان، يقرر أنه هو ولا أحد سواه سينبش التاريخ المطمور في التلال المقفرة التي أمامه.

وسرعان ما شرع لايَرْد وثلةٌ من منقبي الآثار الآخرين في واحدة من أكثر المغامرات الفكرية إثارةً في العصور الحديثة، ألا وهي نبش ثلاثة آلاف سنة من التاريخ في مهد الحضارة. مهَّد لايَرْد الطريق باكتشافاتٍ مذهلة في

(1) Austen Henry Layard, *Nineveh and Its Remains* (John Murray, 1849), 1: 6-7.

موقعين مختلفين، ففي موقع إلى الجنوب من الموصل اكتشف نقوشًا جميلةً ومجموعةً رائعةً من ثيران مُجنّحة برؤوس بشرية احتلت فيما بعد مكان الصدارة في المتحف البريطاني، وعلى الضفة الأخرى لدجلة المقابلة للموصل وجد خرائب نينوى التي دُفنت منذ أمد بعيد، وهناك اكتشف القصر الهائل الذي بناه الملك الآشوري سِنحاريب، بممراته التي لا تنتهي وغرفه السبعين التي يتراصف فيها من النقوش المنحوتة ما يبلغ طوله ميلين كاملين، ولا عجب إذن أن سَمَّاه سنحاريب "القصر الذي لا مثيل له".

ورغم ما في هذه المنحوتات من روعة، فإن أهم اكتشافات لايَرْد كان اكتشافًا أدبيًّا، فقد اكتشف هو وصديقه ومساعده العراقي هُرْمُزْد رَسّام المكتبة الكبرى التي جمعها آشوربانيبال، حفيد سنحاريب، وقد أرسل لايَرْد ورَسّام مئة ألف لوح طيني وكسرة، أثبتت لاحقًا أنها مفاتيح لاكتشاف تاريخ المنطقة العريق وأدبها الغني، والأهم من بين آلاف النصوص التي رأت النور بفضل لايَرْد ورَسّام هو «ملحمة جلجامش»، وهي أول تحفةٍ في الأدب العالمي وأعظمها.

وهذا الكتاب يروي قصة هذه الملحمة التي طال دفنها تحت التراب، كما يروي تاريخ الصراع الإمبريالي والتعاون الثقافي بين الأمم، لقد تجاوزت الملحمة في أثناء حياتها المتنوعة كثيرًا من الحواجز التي نشأت عبر التاريخ الطويل للحضارات المتشابكة التي ازدهرت في بلاد الرافدين وشرق المتوسط، إن ملحمة جلجامش تربط الشرق بالغرب، كما تربط سالف الدهور بحديثها، والشعرَ بالتاريخ، كما يتردد صداها في الكتاب المقدس وهوميروس و«ألف ليلة وليلة»، وفي الوقت ذاته تسلط الملحمة الضوء على الصراعات العميقة التي تنشأ في كل ثقافة، بل في القلب البشري ذاته، فالإلهة

ننسون، أم جلجامش، تسأل إله الشمس: "لماذا ابتليتَ ابني بمثل هذه الروح القلقة؟[١]".

مع توالي الأحداث، يتبين لنا أن «ملحمة جلجامش» تأملٌ دقيقٌ لطبيعة الثقافة، يجتاح جلجامش يأسٌ وخوفٌ عميقٌ من الموتِ بعد أن تؤدي مغامراته الطائشة إلى موت خليله إنكيدو فجأةً، فيهجر مدينته ويرتحل بحثًا عن الخلود الذي يعتقد أنه يستطيع أن يتعلم سرَّه من جدِّه الأكبر أُتنابشتيم الذي نجا بأعجوبة من الطوفان الذي اجتاح الأرض قبل عدة قرون، وبعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر، يلتقي جلجامش بجده أُتنابشتيم ليكتشف أنه لا يستطيع أن يتجاوز شرطه الإنساني، ربما يكون جلجامش قد فشل في مسعاه، لكنه تعلم في رحلته تلك دروسًا عن الحُكم العادل والظالم، وعن ألاعيب السياسة وغِوايات الجنس، وعن العلاقات المضطربة بين عالَم البشرية والأرباب وعالَم الطبيعة.

ورغم أن هذه القصيدة الآسرة هي واحدةٌ من أبكرِ الاستقصاءات الأدبية لهذه الموضوعات الأزلية فإنها ليست عملاً كلاسيكيًا خالدًا بالمعنى الذي استخدمه بِنْ جونسون في حديثه عن أعمال شكسبير بوصفها، "لكل الأزمنة لا لزمنٍ واحدٍ بعينه[٢]"، بل لقد عاشت ملحمة جلجامش في عصرين مختلفين جدًّا، العصرين القديم والحديث، وفي هذين فقط، ومن المفارقة أن هذه الملحمة، التي تروي قصة انتصار الثقافة الهزيل في مواجهة الموت، جاءت مسيرتها التاريخية المضطربة التي مرت بها لتسلط الضوء على

(1) *The Epic of Gilgamesh: A New Translation*, ed. and trans. Andrew George (New York: Penguin, 1999), 24.
(2) Ben Johnson, "To the Memory of My Beloved, the Author Mr William Shakespeare: And What He Left Us, " in *The Complete Poems*, ed. George Parfitt (Penguin, 1975), 264.

موضوعها، لقد ظلت الملحمة تُقرأ في الشرق الأدنى لمدة ألف عام قبل أن تتلاشى مع زوال الثقافات القديمة للمنطقة التي دُفنت تحت الموجات الإمبراطورية المتتالية من الفُرس والرومان ومَن تلاهُم، لقد دُفنت الملحمة في تلالٍ من الخرائب مع جميع النتاج المكتوب لبلاد الرافدين في الوقت الذي توقف فيه الناس عن الحديث بلغات المنطقة القديمة وفقدوا قدرتهم على قراءة الخط المسماري الذي كُتبت فيه تلك الأعمال، ثم عاودت الملحمة الظهور على نحوٍ غيرِ متوقّع في القرن التاسع عشر وسط مشهدٍ من الصراع الإمبريالي المتجدد يشمل العرب والأتراك والفُرس والأكراد والشيشان واليهود والإنجليز والروس وغيرهم حين بدأت الإمبراطورية العثمانية تلفظ أنفاسها، ولقد جاءت الخياراتُ التي اختارها هؤلاء المتنافسون في القرن التاسع عشر لتمهدِ الطريق للصراعات الدائرة في العراق في يومنا هذا.

اكتشف لايَرْد ورَسّام مكتبة آشوربانيبال العظيمة، لكن لم يكن بوسعِ أيٍّ منهما أن يعرف محتوياتها، ولم يكن في العالم كله من يستطيع أن يقرأ الأشكال المسمارية المعقدة المنقوشة على الألواح الطينية، لقد عملت مجموعةٌ من اللغويين الموهوبين طيلةَ العقدين التاليين لفكّ أسرار الكتابة المسمارية واللغة الأكّادية القديمة التي كانت معظم الألواح مكتوبة بها، وأخيرًا، في ١٨٧٢، عثر شابٌّ يُدعى جورج سمث يعمل مساعدَ قَيِّمٍ في المتحف البريطاني على ملحمة جلجامش بين آلافٍ من الألواح والكِسَر في المتحف، وقد أثارت الملحمة اهتمامًا وسجالاً شديدين منذ أن بدأ سمث بترجمتها؛ حيث أدرك قُرّاؤه أن هذا النص الموغل في القِدَم يمكنه أن يحدثهم عن نصٍّ يحتل مكان الصدارة في الثقافة الغربية: الكتاب المقدس، لقد اكتشف سمث أن أُتنابشتيم ما هو إلا نسخة مبكرة من نوح، وأن حكايته عن الطوفان تتفق في

خطوطها العريضة مع الوصف التوراتي لكنها تختلف عنه في بعض التفصيلات المهمة.

وخلال أيامٍ من هذا الاكتشاف، انخرط الوعّاظ وكُتّاب الصُّحُف في سجالٍ حاد: ما الذي تثبته النسخة البابلية: صِدْقَ التاريخ التوراتي أم زيفه؟ فكما تقول جريدة النيويورك تايمز في مقالةٍ في صفحتها الأولى، "يبتهج السلفيّون هذه الأيام أيّما ابتهاج؛ إذ يستهويهم أن هذا [الاكتشاف] يعزز التاريخ التوراتي، ولكن من الممكن كما قد أُشير من قبل أن يُعَدَّ النقش الكلداني إن كان صحيحًا تصديقًا للرأي القائل: إن هناك عدةَ روايات عن الطوفان غير الرواية التوراتية التي قد تكون أسطورة مثل غيرها[1]"، لقد ألقت تحريات سمث البحثية هذه الملحمة القديمة في وسط السجال الفكتوري الحامي الوطيس حول الخلق والتطور، وحول الدين والعلم، وهو السجال الذي يستمر إلى يومنا هذا.

ونحتاج اليوم إلى المزيد من عمل التحريات لكي نستفيد من تاريخ الملحمة الغني استفادة كاملة، لقد كتب كلٌّ من لايَرْد ورَسّام وسمث كتبًا كثيرة عن مغامراتهم، لكنهم لم يرووا القصة كاملة كتابةً، لقد كانوا أبناء عصرهم الفكتوري، مما جعلهم يتكتّمون، وبطريقة مزعجة، على الصراعات التي كانوا أطرافًا فيها، وككل كتاب المذكّرات فقد صاغوا حكايتهم وفقًا لأهواء الجمهور، ولكي نحصل على صورةٍ ثلاثية الأبعاد، لا بد من إضافة مصادر أخرى إلى كتبهم، ولحسن الحظ، لقد احتفظ كلٌّ من المتحف البريطاني والمكتبة البريطانية بكثير من رسائلهم الخاصة ويومياتهم، وهذه الرسائل واليوميات تمتاز بالجِدَّة والحيوية، وغالبًا ما تكون صريحةً إلى درجةٍ تثير

(1) "Noah's Log," *New York Times*, 22 December 1872, 1.

الدهشة، ومعظم هذه الأوراق ظلت مدفونة طيلةَ قرنٍ بين رفوف المحفوظات من دون أن تُنشر أو حتى تُناقش، وهذه المواد تعطي صورة حيَّة لما كان يدور وراء الكواليس، بل في نقاطٍ مهمة تصحح الأفكار السائدة الخاطئة خطأً بيِّنًا.

¤ ¤ ¤

يكاد البحث في المحفوظات أحيانًا أن يصبح نوعًا خاصًا من علم الآثار الحضري، ففي حين جرى تصنيف مقتنيات المكتبة البريطانية تصنيفًا شاملاً وتحت أكثر من عنوان، تحتوي أقسام المتحف البريطاني على الكثير من المحفوظات غير الرسمية التي تتألف من الملفات المصفرَّة وأكوامٍ من المراسلات التي تعود إلى مئتي عام، وأكداسٍ من دفاتر الحسابات القديمة، ويتمتع القائمون على المتحف بمعرفة دقيقة جدًّا بكل تحفة فنية في عُهدتهم، إلا أن محفوظات الأقسام يمكن أن تكون مخزنة بطرق عشوائية. ففي قسم صغير كالآشوريات، يعرف كل واحدٍ تاريخ حقله بشكل عام، إلا أن هذا التاريخ من النادر أن يُدرَس بعمق، فالوثائق المتعلقة ببدايات التنقيبات الأثرية مبعثرة؛ مما يجعل العثور على المصادر الأساسية مسألةً متروكةً للصدفة المحضة لتتبع خيطٍ غير مؤكد من دليلٍ إلى آخر.

ولقد مررتُ بهذه التجربة في حديثي مع اثنين من القائمين على قسم آثار الشرقِ الأدنى في المتحف البريطاني، سوزَن كولِنــزْ وإرفنغ فنْكِل، وقد كان كلٌ منهما في غاية الكرم في أكثر من مناسبة، فكانا يستقطعان من وقت عملهما ليزوداني بألواح مسمارية ورسائل قديمة وقصاصات من الصحف الفكتورية، غير أني عُدت خالي الوِفاض حين طلبتُ مراجع عن قضيةٍ مهمة

تتعلق بهُرْمُزْد رَسَّام، وكان رَسَّام قد ارتقى الدرجات العلا بعد أن اكتشف قصر آشوربانيبال، إلا أنه في أواخر حياته تورط في خصومات مع عالم المصريات والِس بَدج، الشاب الصاعدِ نجمُه في المتحف، وكان الصراع قد بلغ ذروته في قضية كارثية رفعها رَسَّام ضد بَدج سنة ١٨٩٣، وكنت على ثقة أنني سأجد وثائق عن هذه القضية، استطاعت الدكتورة كولنـــز أن تجد بعض التقارير الصحفية وبضع رسائل من بَدج لا علاقة لها بالقضية، ولا شيء سوى ذلك، وكان الدكتور فِنْكِل حائرًا كذلك، وعندما أوشكت على المغادرة، جعلته ملاحظة عابرة يتوقف متفكرًا وهو يمسك لحيته الكثة البيضاء، فاقترح عليَّ أن أتحدث مع مُؤَرشِف آخر يعمل في قسم المحفوظات المركزي الذي قلّما يزوره أحد، فَلَعَلّي أجد عنده ضالّتي.

وهكذا شققت طريقي إلى قسم المحفوظات المركزي، ومن الغريب أن الوصول إليه يكون عبر بابٍ غيرِ موسومٍ في نهاية حانوت الهدايا في المتحف البريطاني، وما إن تجاوزت الباب حتى رحت أسير عبر سلسلة من الغرف المظلمة التي يتردد فيها الصدى والمليئة برفوفٍ خالية من الكتب التي جرى نقلها مؤخرًا إلى المكتبة البريطانية الحديثة الإنشاء، وظللت أسير إلى أن وصلتُ إلى منطقة مكتظة بالمكاتب الصغيرة ومن بينها قسم المحفوظات المركزي، وهذا القسم لا يُفتح للزوار إلا لمدة خمسِ ساعاتٍ أيام الثلاثاء فقط، وفي هذا القسم وجدتُ كنـــزًا من المعلومات: ملفًا كاملاً بعنوان "رَسَّام ضد بَدج، ١٨٩٣"، ويحتوي هذا الملف على أوراقٍ كثيرة من أوراق القضية المحورية، بما في ذلك المرافعات، ونسخة طبق الأصل عن ملخص القاضي المفصل لهيئة المحلفين، وبينما كنت أقلب الصفحات المتعفنة لهذا الملف، انتابني إحساس الاكتشاف الذي ينتاب عالم الآثار بينما كانت تتكشف أمامي الأحداث اليومية لدراما طواها الزمن ذات صيف من عام ١٨٩٣.

يشق الآثاريون طريقهم عبر الزمن انطلاقًا من اللحظة الراهنة إلى الماضي الغابر البعيد، وهذا الكتاب يسير على ذات المنوال، إلى "لُجَّة الزمن السحيق المظلمة" كما يقول بروسبرو(١)، والفصول التالية ستنطلق مما هو معلومٌ إلى ما هو مجهول، ومما هو قريبٌ في الزمان والمكان إلى ما هو بعيد، وستبدأ قصتنا بحياة ذَيْنِك الشخصين اللذين لعبا دورًا حاسمًا في اكتشاف الملحمة في العصر الحديث، وهما جورج سمث الذي عثر على الملحمة في المتحف البريطاني ثم خسر حياته في سوريا بعد بضع سنين من اكتشافه، وهُرْمُزْد رَسّام الذي اكتشف قصر آشوربانيبال وحاول منافسوه البريطانيون ردحًا من الزمن أن يطمسوا إسهاماته الكبرى في علم الآثار، وسنبتدئ من العصر الفكتوري، عائدين إلى الوراء لكي نستكشف تلك الحقبة القديمة التي دُفنت فيها الألواح في خرائب قصر آشوربانيبال الملتهبة في نينوى، ولكي نستكشف الملحمة في طور نُضجها وكذلك بواكير الأناشيد التي نشأت منها، ثم نتوقف أخيرًا عند جلجامش نفسه، مهندس استقلال أُوروك [الورقاء] وباني سورها المهيب، وهو على أعتاب التاريخ قبل حوالي خمسة آلاف عام.

ولهذه الرحلة عبر الأزمنة السحيقة ما يوازيها في النص القديم ذاته حينما يغادر جلجامش مدينته بحثًا عن سر الخلود في رحلة محفوفة بالمخاطر ليجد جدَّه "أُتنابشتيم ذا النوَّى"، عادةً ما تنتهي الأسفار المثالية بالإياب، في هذه الحال إلى الحاضر، وخاتمة هذا الكتاب تنظر في تجدد حياة ملحمة

(1) William Shakespeare, *The Tempest* 1.2.50, ed. Northrop Frye (Penguin, 1970), 34.

جلجامش في وقتنا الحاضر؛ إذ مثّلت حضورًا هائلاً في كتابات الأدباء وتأملات الساسة من أمثال فِلِپ روث وصدّام حسين، بل كانت مرجعيةً في حربي الخليج الأولى والثانية[١]، وهكذا تشابكت أقدم تحفة أدبية في الأدب العالمي مع آخر أحداث عالمنا اليوم.

---

(١) يجب التنويه هنا إلى أن هناك خلافًا بين الغرب والعرب حول تسميات حروب الخليج، فمسمّى "حرب الخليج الأولى" يشير عند العرب إلى الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، بينما يشير عند الغربيين إلى "حرب تحرير الكويت" (١٩٩١)؛ وما يسميه الغربيون "حرب الخليج الثانية" (أي الغزو الأنجلو-أمريكي للعراق عام ٢٠٠٣) يسميه العرب "حرب الخليج الثالثة." [حاشية المترجم].

الألواحُ المُحطّمة



عربٌ ونَساطرة ينقلون لوحًا في قيونجيك

لقد ظلت ملحمة جلجامش منسيةً لأكثر من ألفي عام، فعادت ودخلت التاريخ مرة أخرى ذات صباحٍ منعش من شهر تشرين الثاني/ نوڤمبر عام ١٨٧٢، لقد اختلطت ألواحُها الاثنا عشر المحطمة مع المئة ألف كِسرة التي كان هنري لايَرْد وهُرْمُزْد رَسّام قد شحناها من نينوى إلى لندن قبل ربع

قرن، لقد ظلت الملحمة قابعة في صناديق المتحف البريطاني وأدراجِه ضمن مقتنياته الهائلة، بينما كان العلماء يفكّون بالتدريج طلاسم الخط المسماري الذي كُتبت به الألواح ويبدؤون بقراءتها، وشيئًا فشيئًا راح يبرز للعيان عالمٌ هائل، بينما كان الباحثون يشقون طريقهم عبر الركام الهائل من المواد التي بين أيديهم: وثائق تسلم ثيران أو عبيد أو براميل نبيذ، كتب التماس للملوك الآشوريين، عقود، معاهدات، أدعية، وتقارير عن نُذُرٍ زرعها الأرباب في أكباد النعاج، ولكن جلَّ هذه المادة لم يكن يستهوي إلا عددًا محدودًا من المختصين إلى أن عثر جورج سمث، وهو مساعدٌ قيِّم في المتحف، على نصٍّ مثيرٍ للاهتمام.

كان سمث يعمل على منضدة طويلة عليها أكوامٌ من الألواح في غرفة في الطابق الثاني تطل على الأغصان الجرداء لأشجار الدُّلب في ساحة رَسِل، ولم يكن بإمكانه قراءة العلامات المسمارية الصغيرة إلا حين يتسلل ضوءٌ كافٍ من خلال النوافذ الطويلة، كان أُمَناء المتحف يخشون الحرائق؛ لذلك لم يسمحوا بمصابيحِ الغاز في المتحف، وفي عام ١٨٧٢ لم يكن مصباح إديسون إلا ومضةً في عين مُبتكِره، وكان المتحف يزود نخبةً من كبار موظفيه بمصابيح مغطاة، إلا أن مرتبة سمث الدنيا لم تكن تؤهله لهذه الحُظْوة، وفي أيام لندن الكثيفة الضباب، التي تكثر في فصلَي الخريف والشتاء، كان المتحف يغلق أبوابه ويُصرَف الموظفون إلى منازلهم، فلا بُدَّ إذن أن اليوم كان صحوًا حين عثر جورج سمث على كِسرة لوح تشير أسطُرُها إلى طوفانٍ عاصف وسفينةٍ عالقة على قمة جبل وطائرٍ يُرسل بحثًا عن يابسة.

وككثير من معاصريه كان جورج سمث مهووسًا بالتاريخ التوراتي، فكم من الكتاب المقدس صحيحًا؟ فقد كان نقاد النصوص قد بدؤوا بتشريح

طبقات الكتابة للكتاب المقدس، وألقوا ظلال الشك على صحة القصص التوراتي، بل ذهب الرواد من العلماء الألمان إلى حد الزعم أن كبرى الشخصيات مثل إبراهيم وموسى لم يوجدوا قط، وإذا كان انفلاق البحر الأحمر مجرد أسطورة، فماذا عن قيامة المسيح؟ في هذه الأثناء كانت الاكتشافات الجيولوجية تنسف القصص التأسيسية عن الخلق وجنة عدن والطوفان من أساسها، فهل حدث أي من هذه؟ وهل الحياة الأرضية هي حقًا خلق الله المقدس أم أنه نتاج صدفة عمياء كما تلمح نظريات داروِن الجديدة الراديكالية؟ حين كان الشاعر البارز تنيسن يتأمل جرفًا مرصعًا بمستحاثات لمخلوقات منقرضة، تجلت له الطبيعة برؤية سوداوية، "حمراء الناب والمخلب، " ثم يعلن، "لقد ولّى ألفُ نوعٍ، ولستُ أُبالي، فكلٌّ إلى ذهاب[١]".

وبينما كان جورج سمث منهمكًا في عمله على الألواح، كان يتحرى عن نصوص قد تؤكد ما ورد في الكتاب المقدس، فمن خلال مصادره الآشورية كان سمث قد تمكن من تحديد تاريخين لحادثين ثانويين في تاريخ بني إسرائيل تحديدًا دقيقًا، أما الآن فهو بصدد اكتشاف على درجة عالية من الإثارة، ألا وهو أول إثبات مستقل لحدوث طوفان هائل في بلاد الرافدين القديمة، بما في ذلك شخصية تشبه نوحًا وسفينته، بيد أنه لم يكن باستطاعته أن يقرأ سوى بضعة أسطر من اللوح الذي تكسوه طبقة ثخينة من الرواسب المتكلسة، وكان في أمسّ الحاجة لمعرفة ما هو مكتوب تحت هذه الطبقة.

لقد كان المتحف البريطاني متعاقدًا مع خبير ترميم يُدعى روبَرت ردي، وقد كان بائع سجائر في يوم من الأيام، كان ردي يُستأجَر بالساعة في

---

(1) Alfred, Lord Tennyson, "In Memoriam A. H. H." (1850), verse 56, stanzas 1 and 4, in *The Longman Anthology of British Literature*, ed. David Damrosch et al. (Pearson Longman, 3rd ed., 2006), 2: 1275.

الأيام التي يُفتَح فيها المتحف للجمهور، ولذلك كان مضطرًا للعمل الإضافي لزيادة دخله، لقد طور ردي طرائق عديدة مُبتَكرة في الترميم، لكنه عدَّها من أسرار المهنة، ولهذا لم يَبُح بها إلا لأولاده الأربعة، لم يكن بمقدور أحدٍ تنظيفُ اللوح سوى ردي، ولكنه كان في رحلة عمل خاصة عندما عثر سمث على اللوح الحاسم، وعن هذا يقول إي آي والِس بَدج، زميل سمث: "كان سمث في تكوينه رجلاً حسّاسًا، وشديد التوتر، فكان انزعاجه من غياب ردي بلا حدود." وأخيرًا عاد ردي بعد عدة أيام مُمِضَّة وأعمَل سحره، وهنا "أخذ سمث اللوح وراح يقرأ السطور التي أبرزها ردي للعيان، ولمّا رأى أنها تحتوي على ذلك الجزء من الأسطورة الذي كان يأمل في العثور عليه، قال: 'أنا أول رجل يقرأ هذا بعد أكثر من ألفي عامٍ من النسيان.' وبعد أن وضع اللوح على المنضدة راح يقفز في الهواء ويندفع هنا وهناك في الغرفة في حالة هياج شديد، ثم راح يتعرى أمام جمعٍ من الحاضرين المندهشين(١)".

لا يمكن معرفة إلى أي حد مضت عملية التعري هذه، فسمث لا يأتي على ذكرها في كتبه؛ حيث لا يتحدث إلا عن البحث المنهجي وحل الرموز بشكل دقيق، لعله شعر بالحرج من البوح بكامل إثارته أو لعل حكاية بَدج لحقها شيء من التزيُّد عبر السنين قبل أن يدونها، وما أدراك، لعل حالة "التعري" المفاجئة تلك لم تكن أكثر من إرخاءِ قَبّة قميص.

(1) E. A. Wallis Budge, *The Rise and Progress of Assyriology* (Martin Hopkinson, 1925), 152-53.

لا شك أن جورج سمث كان عنده من أسباب النجاح ما يوجب الفرح؛ إذ شكل هذا الاكتشاف نقطة انعطاف في حياته، وكان يعي ذلك، فقد اكتشف لتوّه أكثر الاكتشافات إثارة في تاريخ علم الآثار، فطبقت شهرته الآفاق بين ليلة وضحاها، ومع ذلك، لم يكن هذا الاكتشاف إلا واحدًا من جملة إنجازات في مسيرته المذهلة، فقد كان جورج سمث عبقريًا، ثم صار أبرز خبراء العالم باللغة الأكادية القديمة ورموز كتابتها البالغة التعقيد، وكتب أول تاريخ حقيقي للإمبراطورية الآشورية المندثرة منذ أزمنة سحيقة، ونشر ترجمات رائدة لأبرز النصوص الأدبية البابلية، كل ذلك بين رحلاته إلى العراق بحثًا عن مزيد من الألواح، ورغم أن مثل هذه الإنجازات جديرة بأن تستغرق حياة كاملةً من باحث بارز في أكسفورد أو السوربون، فإن مسيرة سمث الحافلة بالنشاط لم تدم إلا عشر سنين تقريبًا، من أواسط العشرينيات إلى أواسط الثلاثينيات من عمره، وهيهات للرجل أن يحوز منصب الأستاذية المتميزة؛ إذ لم يدخل المدرسة الثانوية، ناهيك بالجامعة، فقد انتهت دراسته الرسمية وهو في الرابعة عشرة من عمره.

فلو كنت عبقريًا في العصر الفكتوري وشاءت الأقدار أن تولَد في أسرة من الطبقة العاملة، فإن حظوظك لإحراز مثل هذا التميز العلمي تكاد تكون شبه معدومة، فأجرُ خادمة نبيهة تغسل الأطباق وأجرُ عامل مناجم كان زهيدًا مثل أجر أي كادحٍ كفوء، وحظوظهما في الترقي بائسة مثل حظ هذا الكادح، أما المحركات الكبرى للترقي الاجتماعي في القرن العشرين، كالتعليم العالي والالتحاق بسلك الضباط في القوات المسلحة، فقد كانت عمليًا مسدودة أمام أبناء الطبقات العاملة، وإن كنت عبقريًا في مجال الفن أو الفكر، فإن أقصى ما يمكنك إنجازه في الغالب هو أن تحقق سمعة محلية في العزف على الكمنجة أو العمل ساقيًا في خمّارة البلدة.

ولكن العبقري بطبيعة الحال لا يحتاج حقيقةً إلى الكثير من التعليم الرسمي، فهو يستطيع أن يجد طريقه إلى الكتب والمعاجم وكتب النحو، كما يمكنه أن يتعلم لغاتٍ قديمة وحديثة، ويلجَ عالم الفكر بمفرده، بل يمكن أن يكون هذا في صالحه؛ حيث ينجو من قيود الروتين المتبع في التعليم اليومي، لكن ثم ماذا؟ في عام ١٨٩٥ صوَّر الروائي تومَس هاردي بسخرية لاذعة كيف استُقبل بطل روايته الحجّار في رواية «جود المغمور» الذي استطاع أن يعلم نفسه اللغة الإغريقية، ويتجرأ للتقدم بطلبٍ للقبول في كلية بِبْليول في كرايستمنستر (التي يوحى اسمها بكلية باليول في جامعة أُكسفورد)، فيرد عميد الكلية برسالة حسنة المقاصد لكنها بمنتهى القسوة:

سيدي، لقد قرأت رسالتك ببالغ الاهتمام، وانطلاقًا من وصفك لنفسك كأحد أبناء الطبقة العاملة، فإني أُخوّل لنفسي حق الاعتقاد أن فرص نجاحك إذا بقيت في مجال عملك وواظبت على مهنتك الحالية أكبر بكثير مما لو رُمْتَ غيرها؛ لذلك، فهذا ما أنصحك به.

المخلص لكم،

ت. تِتوفني

إلى السيد ج. فولي، الحجّار(١)

(1) Thomas Hardy, *Jude the Obscure* (New American Library, 1980), 119-20.

ويدس هاردي سخريته في صياغته لاسم الأستاذ بطريقة مضحكة، فاسمُ **Tetupheny** يلمح إلى فعل **tetúphómai** بالإغريقية الذي يعني، "يَغْتَرُّ، يَتحامق، يَتَغابى، يَتصابى"، ولكن الدنيا كانت إلى جانب تِتوفني، أما جود فهو المحكوم عليه بأن يبقى مغمورًا.

أما والدا جورج سمث فلم تكن تراودهما مثل هذه الأوهام بشأن مستقبل ابنهما المولود سنة ١٨٤٠ في حي تِشلسي اللندني، الذي كان حينها حيًّا بائسًا ذا مساكنَ قذرة وبطالةٍ مرتفعة، كانا ينتميان إلى تلك الشريحة العريضة المجهولة من عمال لندنَ غير المَهَرَة، فحتى بعد أن أصبح جورج مشهورًا لم يكترث أحدٌ لتدوين مهنة والديه أو حتى اسميهما، لمّا أتمَّ جورج الرابعة عشرة من عمره، ارتأى والده أن يعلم ابنه مهنة مَهارية، ويبدو أن اهتمامات جورج الأدبية والفنية قد بدأت تتضح، فلم يدخر والده جهدًا لإلحاق ابنه بمطبعة السيدين برادبري وإيفْنز؛ حيث تعلم نقش الأوراق النقدية، كانت هذه الدرجة، رغم تواضعها، أعلى من درجة أبيه، وفيها من الدخل ما يكفيه، حسب أفضل التوقعات، للزواج وتكوين أسرة بشكل مريح إلى حدٍّ ما، ومن حيث المبدأ تمكِّن الجيل التالي من التقدم خطوة أخرى نحو المدرسة الثانوية ومنها، ربما، إلى ازدهار أكبر.

انهمك سمث في عمله بكل جوارحه، رغم ضجيج المطابع ورائحة الحبر الرطب على أكداس الورق، لقد نمت لديه مهارات مثل الصبر، وحدَّة البصر، وخفة اليد، وهي مهارات سيحتاج إليها لاحقًا في عمله مع الألواح المسمارية، كما عرَّضه عمله للاحتكاك ببيئة أدبية أوسع؛ حيث توسع برادبري وإيفْنز في عملها من الطباعة إلى النشر أيضًا، وكانا يملكان مجلة **Punch** الساخرة، كما كان ينشران أعمال دِكنز وثاكِري الروائية في طبعات مزينة بالرسوم على نحوٍ مُسرف، كان سمث موظفًا في قسم الأوراق النقدية

الذي افتتحه هنري برادبري، وهو ابن أقدم مساهم في الشركة، كان هنري برادبري شديد الاهتمام بقضية إنتاج أوراق نقدية يصعب تزويرها، فكتب عدة دراسات عن الموضوع، توِّجت سنة ١٨٦٠ بمجلد موسوعي بعنوان «عيِّنات من نقوش الأوراق النقدية»، وأغلب الظن أن سمث قد أسهم في هذا.

كان يمكن للشاب المبتكِر برادبري أن يكون بطبيعة الحال الناصح المخلص لمساعده الموهوب، ويرى والس بدج أن أصحاب الشركة عدّوا سمث نجمًا صاعدًا مقدَّرًا له أن يصبح أبرز نقّاشي النقود في بريطانيا، كما "عدّوا تضحية سمث بعمله المربح ووظيفته الثابتة من أجل ميوله الأدبية فعلَ حماقةٍ صِرْف(١)"، غير أن صدمة المأساة التي حدثت داخل الشركة قد تكون وراء انحراف سمث عن مسيرته المتوقعة، فبعد أن نشر رائعته عن الأوراق النقدية، أقدم هنري برادبري على الانتحار في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٨٦٠، وكان حينها في التاسعة والعشرين، وفي ذلك الخريف راح سمث البالغ من العمر عشرين عامًا يتردد على مُقتنيات الشرق الأدنى في المتحف البريطاني.

كانت الدراسات التوراتية هي التي قادت جورج سمث إلى المتحف، وهكذا تحولت الهواية القديمة إلى شغف، ومثل جود المغمور، بطل هاردي، كان لدى سمث شغف مبكر بالكتاب المقدس (وهو من بين بضعة كتب، إن لم يكن الوحيد، المتوفر لدى أسرته وهو في طور النمو)، لكنه وعلى خلاف جود الذي لم ينفعه تعلمه اللغة الإغريقية التي كان كثيرٌ من خريجي الثانوية يعرفونها خيرًا منه، وجد سمث طريقه إلى حقل جديد هو الدراسات الآشورية؛ أي دراسة بلاد الرافدين، وقد عُرِفت بهذا الاسم؛ لأن أولى التنقيبات الأثرية في العراق ركزت على خرائب نينوى وبقية المدن الآشورية

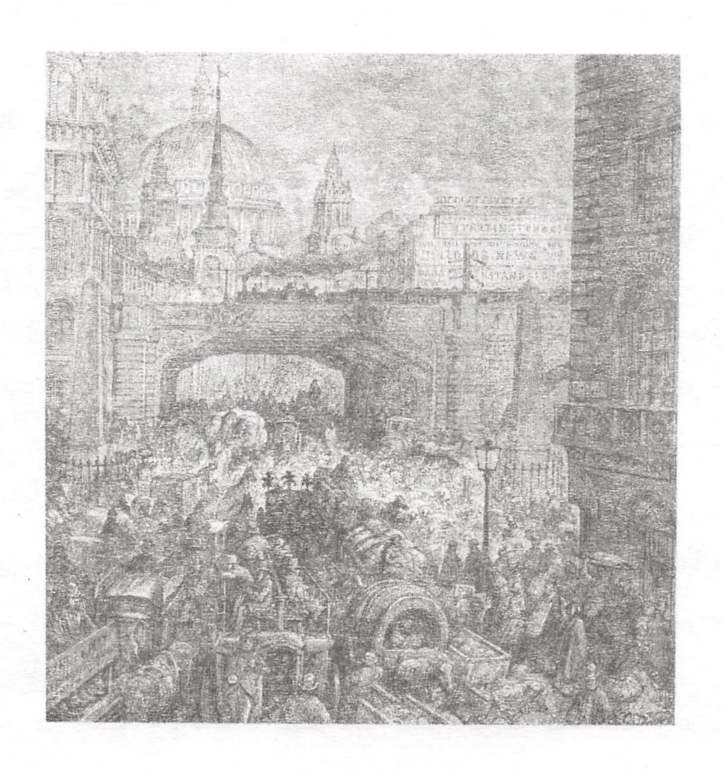
(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 106.

الأخرى الواقعة شمال بغداد، لم تكن الدراسات الآشورية مجالاً عريقًا؛ إذ لم يتجاوز عدد العاملين فيه بضعة باحثين مبعثرين هنا وهناك في الجامعات والمتاحف البريطانية والأوربية، وقد تمكن هؤلاء منذ فترة قريبة فقط من فكِّ شفرة تاريخ المنطقة؛ أي فك رموز الكتابة المسمارية المعقدة التي دُوِّنت فيها معظم نصوص بلاد ما بين النهرين القديمة، وكان جُلُّ العمل المتواصل بخصوص فك النقوش المسمارية يقوم به هُواة: إما ضباطُ جيشٍ مفروزون إلى بلاد فارس أو العراق واستهوتهم آثار تلك البلاد القديمة أو قساوسة أبرشيات في الأرياف ولديهم الكثير من أوقات الفراغ، ومن أوائل هؤلاء الرواد كان إدوَرْد هِنكس الذي ظل طيلة خمسة وخمسين عامًا رئيسًا لأبرشية بلدة كِليلي الإيرلندية.

باختصار كانت الدراسات الآشورية بحاجة إلى عاملين لا يكترثون كثيرًا للبروتوكولات المعمول بها أو للمصالح الخاصة، وهؤلاء كانوا صنفًا نادرًا في النسيج الاجتماعي البريطاني المحافظ، والمجال مفتوحٌ لكل ذي عقل متفتح أو رؤية جديدة، وهو لا يحتاج إلى أي مؤهل علمي، أو رسالة توصية، أو وساطة عائلية، كانت الموارد لا تزال فقيرة إلى درجة يُرثى لها، والتفرغ الوظيفي في هذا المجال يكاد يكون بعيد المنال؛ لذلك فإن الحديث عن نافذةٍ للانطلاق في هذا المجال هو من قبيل المبالغة، إنها في أحسن الأحوال جُحر فأر، ولكن هذا هو الطريق الذي سلكه جورج سمث ليتسلل إلى المتحف البريطاني.

بل الأكثر دقة هو أنه راح يقضي جُلَّ ساعات غدائه ماشيًا من شارع فليت إلى المتحف البريطاني الكائن في شارع رسل الأكبر، وهي مسافة تبلغ حوالي ميل من مقر عمله، كان يشق طريقه عبر زحام المركبات، والعربات التي تجرها الخيول والمشاة المتفرجين على نوافذ المحلات وعربات يدوية

محملة بالكرنب والبطاطا، كان من الطبيعي أن يجعل برادبري وإيڤَنْز مقر مطبعتهما في أحد الشوارع المتفرعة عن شارع فليت، فهو شارع الصحافة في لندن، وهذا الموضع كان له بالغ الأثر في حياة سمث، فلو ابتعد برادبري وإيڤَنْز مسافة ميل آخر عن المتحف، لَما تمكن سمث من بلوغه خلال ساعات الدوام، ولما اكتشف الاكتشافات التي قادته إلى مسيرته المهنية الجديدة، بينما يستطيع شاب مستعجل (كما كان سمث بلا شك) أن يسير من مقر المطبعة في ١١ شارع بوڤَري إلى المتحف خلال عشرين دقيقة، ولعله كان يأكل في أثناء سيره، ويوفر نصف فترة غدائه ومدتها تسعون دقيقة؛ لكي يتأمل تلك الألواح الملغزة في مقتنيات المتحف.



لوحة "تلُّ لَدغيت" للفنان غوستاف دوريه مأخوذة من كتاب «رحلة حج إلى لندن» (١٨٧٢). في هذا المشهد يظهر شارع فليت القريب من شارع بوفري؛ حيث كان سمث يعمل، نابضا بالحياة، وتعكس كلٌ من المَسلّتين على جانبي الشارع الافتتان بآثار الشرق الأدنى المكتشفة، وتعلن اللافتات عن صحف شارع فليت، بما في ذلك لويدز نيوز "التي تبيع أكثر من نصف مليون، بِنس واحد."

وربما ذهب سمث إلى عمله باكرًا؛ لكي يطيل فترة غدائه، ففي رسالة إلى مخطوبته ماري كلفِتن، التي كانت تقضي عطلةً على شاطئ البحر، يحذرها بكل محبة قائلاً: "ما لم تتغير الأمور قد يتوجب عليك في كثير من الأحيان أن تتناولي طعام الإفطار لوحدك بعد زواجنا، ولست أتأسف على هذا كثيرًا، ليس لأني لا أستمتع برفقتك بل لأن كسبي مزيدًا من المال فيه خيرٌ لكلينا، فاليوم إذا عملتُ كما أتوقع فسأجني ١١ شِلنًا[١]"، إن ما توحي به هذه الرسالة هو أن سمث كان مدمن عمل منذ بداية شبابه، ومما ساعد هذه الصفة على النمو هو أن دخله يزداد طردًا مع عدد النقوش التي ينجزها.

¤ ¤ ¤

ظل سمث لعدد من السنين يقرأ كل ما يستطيع أن يجده عن بلاد الرافدين، لكنه الآن عزم على الانخراط فعليًا في دراسة المصادر الأساسية بنفسه، وما صادفه حين شق طريقه عبر مقتنيات المتحف من الألواح

---

(١) يحتفظ قسم آثار الشرق الأدنى في المتحف البريطاني بنسخ مصورة من رسائل جورج سمث إلى ماري سمث في ملف بعنوان Smith Personalia (سمث: متعلقات شخصية)، وستجري الإشارة إلى هذه الرسائل بحسب تاريخها، وهذه الرسالة تحمل تاريخ ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر، دون ذكر للسنة. [حاشية المؤلف]

المسمارية كان عبارة عن فوضى تكاد تنفلت من عقالها، وبفضل جهود لايَرْد ورَسّام ضم المتحف أضخم مجموعة من الألواح والنقوش المسمارية في العالم؛ إذ يزيد عددها على أكثر من مئة ألف لوح وكسرة، بالإضافة إلى العديد من الطبعات الورقية المأخوذة من النقوش التي لا يمكن نقلها، وذلك عن طريق ضغط ورق مسترطب على واجهة هذه النقوش.

كانت هذه المقتنيات تشكل كنزًا غير عادي لو أمكن قراءتُها، لكن المشكلات لم تكن مشكلات لغوية بحتة، فقد أصاب العطبُ الطبعات الورقية لكثرة تداولها بالأيدي، كما أن الفئران تسللت عبر غارٍ يؤدي إلى منطقة الخزن، فراحت تقضم هذه الأوراقِ لكي تؤثث جحورها، كما أن ألواح الطين غير المشوي كانت تتفتت، لقد شُوي كثيرٌ من الألواح؛ مما أكسبها حجم وقساوة الطين المشوي المستخدم في تبليط الأسطح، إلا أن معظم هذه الألواح تحطمت بين خرائب نينوى، مما جعل مقتنيات المتحف تتألف من آلاف الكِسر، فحتى الألواح السليمة نسبيًّا كانت تكسوها غالبًا طبقة من الوسخ ورواسب كلسية، وكانت بحاجة إلى تنظيف بعناية شديدة قبل أن تُمكن قراءتها، ترقد هذه الألواح اليوم في غرفة واسعة الأرجاء، جيدة الإنارة، ولها سقف مقوَّس مزخرف، وتتراصف على جدرانها خزاناتٌ من خشب السنديان بارتفاع خمسة عشر قدمًا ذاتُ أدراجٍ مبطنة بالصوف لحفظ الألواح، أما في أيام سمث فكانت الأمور تتسم بالعشوائية؛ حيث كانت الألواح تُخزَّن بشكل منفلت في صناديق؛ مما يجعلها عرضة للتكسر أحيانًا، والألواح التي تجري دراستها بشكل حثيث كانت توضع على ألواح خشبية على مناصب في غرفة خافتة الإضاءة.

وفي أي وقت من الأوقات يمكن أن يوجد اثنان أو ثلاثة باحثين قادمين من المقاطعات البريطانية أو من أوربا إما لمساعدة الموظفَيْن المحترفَيْن في

قسم الآثار الشرقية أو لمنافستهما، والكل كان يشعر بأن هناك ما ينتظرهم من اكتشافات مثيرة بين فوضى الألواح المكدسة، وكانت الصحف مثل «أخبار لندن المصورة» تنشر تقارير مثيرة عن كل إثبات جديد لاسم توراتي أو تحديد موعد حدث في تاريخ بني إسرائيل، إلا أن العاملين في المتحف لم يكونوا مؤهلين لاكتشاف هذه الأشياء بأنفسهم؛ إذ كان القيِّم على القسم عالم مصريات يدعى الدكتور صموئيل بيرتش **Samuel Birch**، وهو دكتور في القانون والقانون المقارن، لم يكن لدى بيرتش أي خبرة وثيقة بالدراسات الرافدية؛ لذلك فقد ترك أمر الإشراف على المقتنيات المسمارية لمساعده الوحيد، وكان هذا الشاب، ويدعى وليم هنري كوكس، باحثًا في الكلاسيكيات، ونظرًا لتفوقه الدراسي في جامعة أُكسفورد وهو طالب في المرحلة الجامعية الأولى، فقد اكتسب لقبه الخالد "كوكس أُف باليول"، وهي النقيض الحقيقي للكلية التي رفضت جود في رواية هاردي.

لم تقتصر دراسة كوكس في الجامعة على الإغريقية واللاتينية، بل تعداهما إلى السانسكريتية، لغة الهند الكلاسيكية، فوظفه بيرتش ظنًا منه أن معرفته هذه قد تنفعه في فك رموز الألواح المسمارية، كان كوكس قد بدأ يتعلم اللغة الأكادية بعد التحاقه بالمتحف، إلا أنه ظل عمليًّا هو وبيرتش يخضعان للسير هنري كرزْوِك رولِنسون، صاحب الشخصية الرهيبة المهيمنة في الدراسات المسمارية في بريطانيا، ومع أن رولنسون لم يكن موظفًا في المتحف فإنه كان دائم الحضور إلى حجرة العمل التابعة للقسم، كان رولنسون، الذي أصبح لوردًا بعد مسيرة عسكرية متميزة في الهند وبلاد فارس والعراق - متغطرسًا، طموحًا، متعودًا على إصدار الأوامر، صار عضوًا في البرلمان وسفيرًا ومديرًا لشركة الهند الشرقية، ثم عُيِّن عضوًا في المجلس البريطاني للشؤون الهندية ذي الصلاحيات الواسعة، وكلما سنحت له

فرصة فراغ من واجباته الرسمية، كان يتردد على المتحف لإعداد سلسلة من المنشورات الرائدة عن النقوش المسمارية، قد تكون هذه هواية غريبة بالنسبة إلى سياسي ورجل عسكري، إلا أن رولنسون كان لديه ولعٌ حقيقي باللغات القديمة، كما رأى أن بإمكانه أن يصنع لنفسه شهرة من خلال الريادة في هذا الحقل الجديد من الدراسات، وهو حقل لا يمكن لأحدٍ أن ينافسه فيه.

كان رولنسون يجمع بين فضيلتي التبصر والإقدام، فحقق بهما الاختراق الحاسم في فك رموز الكتابة المسمارية، فقد اشتهر وهو ملازم شاب في الهند وبلاد فارس بأعمال خارقة تدل على القوة والتحمُّل، كقيامه برحلات عظيمة على ظهر حصانه في زمن قياسي؛ حيث قطع مسافة ٧٥٠ ميلاً خلال ١٥٠ ساعة متواصلة، وقد ورث ابناه عنه هذه البراعة، وانضم كلاهما إلى الجيش كذلك، وقد ترقى ابنه الأكبر إلى رتبة جنرال، وأحرز نصرًا عظيمًا في الحرب العالمية الثانية؛ حيث اخترق خط هِندنبيرغ على الجبهة الغربية. أما الابن الأصغر، وإن لم يبلغ مجد أخيه الأكبر، فقد اشتهر في الأوساط الرياضية بأنه "أفضل لاعب بولو في الهند(١)"، أما والدهما فكان تميزه بشغفه الفكري يوازي ميله للرياضة، وكان يتعلم اللغات الشرقية بسرعة خلال رحلات عمله، فاكتسب حظوة في البلاط الفارسي بفضل قدرته على قراءة مقاطع طويلة من الشعر الفارسي من ذاكرته.

وأثناء إقامته في بلاد فارس، حيث ساعد على إعادة تنظيم جيش الشاه، كان رولنسون يزور الخرائب القديمة في بِهستون في جبال إيران الغربية، موهبة هذا الضابط الشاب اللغوية جعلته يقف مسحورًا أمام ألغاز الكتابة المسمارية التي استعارها الفُرس الأوائل من بلاد الرافدين المجاورة، بدت

(1) Lesley Adkins, *Empires of the Plain: Henry Rawlinson and the Lost Languages of Babylon* (HarperCollins, 2003), 355.

العلامات المعقدة الشبيهة بالمسمار (أو الإسفين) غير قابلة للقراءة تمامًا، كان مدرسٌ ألماني يُدعى غروتفنْد ويعمل في مدرسة ثانوية في بلدة غوتنغن الجامعية الهادئة قد قدم بعض القراءات غير الحاسمة سنة ١٨٠٢، إلا أن أفكاره لم تحظَ برواج واسع، أما في بريطانيا فكانت مجهولة، أما رولنسون فقد علم بوجود نقش ثلاثي اللغة على نُصُب للملك الفارسي داريوس الأكبر، وكان الفرنسي جان فرانسوا شامپليون قد تمكن قبل عقدٍ من الزمن من فك رموز حجر رشيد **Rosetta** المصري، وهو أيضًا نص ثلاثي اللغة؛ حيث كان مكتوبًا بالإغريقية وبصيغتين من الهيروغليفية المصرية، قام شامپليون أولاً بتحديد الأسماء في كلتا اللغتين، فتمكن بعد ذلك من إعادة تركيب الأصوات لكثير من الرموز الهيروغليفية، كان شامپليون يستطيع قراءة الإغريقية، فانطلق منها لإعادة صياغة النص المصري وقواعده النحوية، فنشر ترجمته سنة ١٨٢٤، فلاقت تهليلاً عظيمًا.

أدرك رولنسون أن عملاً مماثلاً يمكن أن يُجرى على نقش داريوس، لكن لا بد من نسخه بدايةً لدراسته بعناية، لكن كانت هناك صعوبة أخرى؛ إذ كان النقش بعيد المنال على جرف يرتفع مسافة ثلاثمئة قدم عن سرير الوادي، كان الموقع يصور نقوشًا تذكارية لداريوس وهو يتلقى الجزْية من الملوك التابعة، غير أن النقوش المرافقة لذلك كانت موجهة للأرباب لا للبشر الفانين، ولم يكن بالإمكان قراءتها من الأرض وهي على هذا الارتفاع، كما لم يكن بالإمكان الوصول إلى هذه النقوش إلا عن طريق التسلق المضني على وجه صخري شاهق عبر ممر ضيق متفتت.

بيد أن رولنسون لم تكن تردعه هذه المعوقات، فتسلق مع بضعة أصدقاء لا يقلون عنه جرأة ونسخ ما استطاع نسخه، وفي رحلاتهم اللاحقة أخذوا معهم سُلّمًا، فتمكن رولنسون من الوصول إلى المزيد من النقوش،

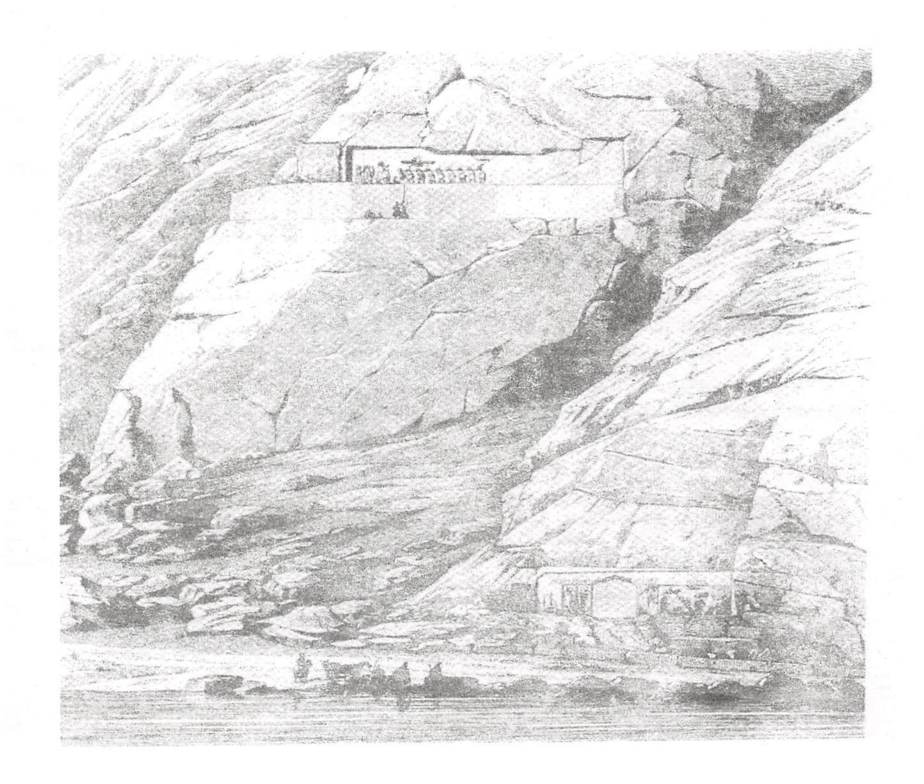
وبعد عدة سنوات وصف منهجه بذلك الأسلوب المتواضع الذي يفضله المستكشفون في العصر الفكتوري حين يصفون مغامرات تقشعر لها الأبدان، فكتب قائلاً:

> لم تقلل السلالم من حجم المخاطرة الهائلة؛ إذ كان الممر ضيقًا جدًّا يتراوح عرضه ما بين ١٨ بوصة وقدمين على أبعد تقدير... ولم يكن بالإمكان نسخ النقوش العليا إلا بالوقوف على أعلى درجة في السلّم، ولم يكن هناك من مُثَبِّت للجسد على الصخرة سوى الذراع اليسرى، بينما اليد اليسرى ممسكة بدفتر الملاحظات واليمنى بقلم الرصاص، وقد استطعت في هذه الوضعية أن أنسخ كل النقوش العُلوية، وقد ساعدني الانهماك في هذه المهمة على تناسي أي إحساس بالخطر(1).

غير أن مخاطر جديدة برزت على طول الممر إلى الأمام؛ حيث انقطع الطريق، وقد حاول رولنسون أن يجسر هذه الهوة وذلك بمد السلم فوقها، بيد أن طرف الهوة من الجهة البعيدة كان منحنيًا، ولم يكن للسلم أن يُمْسك إلا من طرف واحد، بينما راح طرفه الآخر يتدلى، عندئذ راح رولنسون يتقدم ببطء، وهو يمسك بالطرف الآمن للسلم ويضع قدميه على الطرف السفلي بين درجات السلم، إلا أنه تبين له أن درجات السلم لم تكن مثبتة بشكل جيد، وعندما بلغ رولنسون منتصف الطريق:

(1) Quoted in Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 34.

أدى الضغط الرأسي إلى خروج عوارض السلم من مغارِزها، فانفصل الطرف السفلي الحر من السلم وراح يتهاوى إلى القاع، تمسكت بالطرف العلوي الذي ظل ثابتًا في مكانه، وبمساعدة الأصدقاء الذين كانوا يراقبون محنتي بوجل تمكنت من العودة بسلام فوق الهوة الفارسية، ولم أحاول العبور ثانية إلا بعد أن صنعت جسرًا ثابتًا نسبيًّا[١].



(1) Ibid., 35.

نُصب داريوس الأكبر في بِهستون. اثنان من رجال القبائل يقبعان على النتوء الجبلي حيث كان رولنسون يعمل معلقًا بين السماء والأرض.

ولكن تقدم رولنسون الداهية أعاقه نتوء صخري يتدلى أمام ناظريه، فلجأ إلى حيلة إمبريالية كلاسيكية، ألا وهي تكليف واحد من السكان المحليين بالمهمة، لن يخاطر أحد من أبناء القبائل بحياته في سبيل البحث العلمي، ولكنْ "غلامًا كرديًا متهورًا قادمًا من مسافة بعيدة تطوع بأن يحاول، وقد وعدته بجائزة هائلة إن نجح[1]"، (أما ثمن الفشل فيما يبدو فلم تَجْرِ مناقشته). حشر الغلام نفسه داخل صدعٍ موازٍ للنتوء المتدلي، ثم راح يتقدم ببطء "وهو يتشبث بأصابع قدميه ويديه بالنتوءات الطفيفة البارزة على الوجه الصخري المنحدر، وقد نجح في هذا قاطعًا مسافة تزيد على عشرين قدمًا فوق صخرة عمودية تكاد تكون ملساء، لقد فعل هذا بصورة تبدو للمُشاهد كالمعجزة"، وحين وصل الصبي إلى الموقع، أخذ طبعة ورقية للنص المطلوب.

وشيئًا فشيئًا بدأ رولنسون يستجلي معنى النقوش خلال السنوات العديدة التالية، رغم أنه اضطر للتوقف عن العمل ليخدم في الحروب الأفغانية بين عامي ١٨٣٨-١٨٤٢، ولدى تعيينه مقيمًا بريطانيًا في بغداد، تابع بحوثه في الوقت الذي استطاع أن يقتطعه من واجباته الدبلوماسية التي تميزت بحفلات عشاء بالغة الإتقان والتعقيد؛ حيث كان من بين مرؤوسيه مختصون في تخمير القهوة والعناية بالنراجيل، وشيئًا فشيئًا راحت مجموعة صغيرة من الباحثين الأوربيين تبني على عمله، وفي أوائل الستينيات من القرن التاسع عشر تمكنوا من فك ألغاز أقدم كتابة في العالم، وأحرزوا إلمامًا باللغة الأكادية، وهي اللغة التي شاع استخدامها في الألواح المسمارية.

(1) Ibid., 36.

كانت مهمتهم أصعب بكثير من التحدي الهائل الذي واجهه شامپليون، فالسمة التصويرية للهيروغليفية المصرية تعني على الأقل أن بعض العلامات تبين معناها بوضوح، بينما الرموز المسمارية كانت شديدة التجريد، وحتى إذا كانت الرموز تمثل شيئًا محسوسًا في يوم من الأيام، فإن الإشارة المرئية لفها الغموض بمرور الزمن، فالرأس يمكن تمثيله بإسفينين قائمين كانا يمثلان رقبةً في يوم من الأيام، يعلوهما عنقود من الأسافين التي توحي من بعيد بشكل عَينٍ وأنفٍ ولُمَّةِ شَعر، وعلامة مثلثية الشكل ربما كانت تشير أصلاً إلى سلة أو مِهبَل، وحتى حين يُمكن تخمين الأصل المرئي للعلامة، فإن هذه المعلومة لا تنفع إلا نادرًا؛ لأن العلامات كانت تُستخدم عادةً لقيمتها الصوتية لا التصويرية.

من جهة أخرى، بينما كان أحد نقوش حجر رشيد المتوازية مكتوبًا بالإغريقية القديمة، وهي لغة كان باستطاعة شامپليون أن يقرأها بسهولة، كانت جميع نقوش بِهستون مكتوبة بالخط المسماري، هنا وجد رولنسون نفسه في مواجهةِ نخبةٍ من الألغاز، لكن لحسن الحظ، كان أحد النقوش مكتوبًا بخط مبسط كان يُستعمَل في الفارسية القديمة ويتألف من ستة وثلاثين حرفًا، وكان رولنسون يعرف اثنتين من اللغات الفارسية القديمة، وقد قاده دهاؤه للحدس بأن النقوش التذكارية تصور الملك الفارسي المهيمن القديم داريوس الأكبر مع طابورٍ من الملوك الأسرى أو التابِعة، وباتباع منهج التجربة والخطأ راح يستنبط القيم الصوتية لكثير من الأسماء على النصب التذكاري وما رافقها من المسكوكات اللفظية مثل "ملك الملوك".

ولحسن الحظ، كانت القيم الصوتية للأحرف الستة والثلاثين المستخدمة في الفارسية القديمة تصلح أيضًا للنص الأكادي، رغم أنها تضم مئاتٍ من الأحرف المختلفة ومن ثم شكلت تحديًا أكثر صعوبة، وبعد خمسة عشر عامًا

من العمل الدؤوب صار بإمكان رولنسون أن يعلن عام ١٨٥٠ أنه فك رموز معظم النقوش، ومما ساعده كثيرًا في هذا هو أن الأكادية قريبة الصلة بالعبرية والعربية، فعلى سبيل المثال: كلمة "كَلْب" بالعربية هي "كِلِب" بالعبرية، وبالأكادية "كَلبُم".

هذه التشابهات وفرت مدخلاً مهمًا إلى اللغة، إلا أن مهمة حل الرموز عرقلها النظام المسماري الأكادي المعقد، وبما أن النظام الأكادي لا يحتوي إلا على ستمئة حرف مختلف، وهذا أقل بكثير من أن تمثل كل علامة شيئًا منفصلاً، فقد أدرك رولنسون شيئًا فشيئًا أن هذا النظام لا بد أنه يمثل أصواتًا، وبما أن ستمئة حرف كانت أكثر بكثير مما تحتاجه أية أبجدية، فقد استنتج رولنسون أن هذه الأحرف لا بد أنها تمثل مقاطع صوتية.

وهي بالفعل كذلك في غالب الأحيان، رغم أن حرفًا ما قد يُستعمل أيضًا للإشارة إلى كلمة بأكملها، فرمز النجمة هذا ، ويُلفظ "آن" – قد يشير إلى آنو، إله السماء، أو قد يشير إلى المقطع الأول من الضمير "آنوتيم" (هذه: اسم إشارة للجمع القريب) من بين كلمات عديدة أخرى، وككثير من الكتاب القدامى لم يُراعِ كُتّاب بلاد الرافدين تركَ فراغ بين الكلمات؛ مما جعل من الصعب معرفة أين تبدأ الكلمة وأين تنتهي؟ بالإضافة إلى ذلك، يمكن استعمال الرمز الواحد لأكثر من صوت، تمامًا مثل الحرف c في الإنجليزية الذي يشير إلى صوتين هما s (سين) أو k (كاف)، من جهة أخرى، يمكن لصوت واحد أن تمثله عدة أحرف، تمامًا كما يمثل الحرفان الإنجليزيان k و q، وأحيانًا c، صوتًا واحدًا، غير أن الأكادية تطورت بكثير من التعقيدات التي لا توجد في الأبجديات البسيطة، وأخيرًا: غالبًا ما كانت العلامات الفردية يتغير شكلها من منطقة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر خلال الثلاثة الآلاف السنة التي تشكل عمر الكتابة المسمارية، كانت إحدى العلامات – على سبيل التمثيل

النموذجي – تُكتَب أصلاً هكذا في بابل وتلفظ في غالب الأحيان "تِي" أو "نِي" (بالياء المُمالة)، لكنها يمكن أن تُكتب أيضًا على شكل مثلث مفتوح على هذا النحو أو أو بكل بساطة على هذا النحو؛ أما في آشور فكانت تُكتب على هذا النحو حيث الإسفين العُلوي يتوضَّع أفقيًا بدلاً من أن يكون مائلاً نحو الأسفل، وأيًا كان شكلها، فإن العلامة يمكنها أن تُمثِّل عددًا من الأصوات غير "نِي" أو "تِي" (بالياء المُمالة)، بل أيضًا "إي" أو "إيِل" أو "تشو".

أمضى رولنسون عددًا من السنين وهو يُعِدُّ قوائم وجداول بالعلامات كي يبحث عن أنماطٍ قد توحي بعناصر نحوية كالضمائر ونهايات الأفعال، وبما أن الآشوريين كانت لهم تعاملات واسعة مع أقوام فلسطين، فقد ضمت النقوش الملكية الكثير من الأسماء المعروفة من الكتاب المقدس، ولم يكن من الصعب استخلاص صورتها باللغة الأكادية، واظب رولنسون وزملاؤه على بحثهم المُضني لبناء معارفهم باستعمال حروفٍ معروفة في اسمٍ ما لكي يُخمنوا حروفًا غير معروفة في اسم آخر يتقاطَع في جزءٍ منه مع الأول، ويمكن رؤية نموذج من هذه المتوالية في المنتخَبات التالية من جدول مأخوذ من كتاب أوستن هنري لايَرْد «اكتشافات في خرائب نينوى وبابل»، يضع فيه سلسلة من الأسماء العبرية مع تمثيلاتها بالخط المسماري:

الاسم	صورته بالخط المسماري	بالعبرية
Jehu..	[illegible]	יֵהוּא
Judæa	[illegible]	יְהוּדָה
Dagon	[illegible]	דָּגוֹן

فمتى توصل الباحث إلى فك رموز الاسم الأول (Jehu "يِهو" بالعبرية، و"إي–يو" بالأكادية)، صار بإمكانه أن يخمّن الأحرف غير المعروفة في الاسم التالي "إي–يو– د– اء" لكي يتوصل إلى "إيوداء" أو يهودا، وحين تمكن الباحث اللغوي من تحديد الحرف "دا"، فقد قطع نصف الطريق إلى معرفة اسم الإله داغون، ولا بد أن رولنسون قام بالآلاف من محاولات التجربة والخطأ لكي يتوصل إلى يقين معقول على الأقل بالنسبة إلى الأحرف الأكثر شيوعًا.

وأحد مصادر التعقيد الرئيسة في عملية فك الرموز هو كون الخط المسماري نشأ أصلاً في جنوبي بلاد الرافدين على يد السومريين الذي لا تمت لغتهم بأية صلة لأية لغة معروفة، ثم تبنى هذا الخط الناطقون بالأكادية التي أصبحت أكثر اللغات شيوعًا في كتابة جُلّ تاريخ بلاد الرافدين، ومع ذلك استمر الكُتّاب الأكّاديون في تعلم السومرية بعد أن أتقنوا الخط المسماري، وقد كانوا غالبًا ما يستعيرون كلماتٍ من السومرية في كتاباتهم الأكادية، إن الأمر يشبه حيرتنا أمام كلمة pain عندما تصادفنا في نص إنجليزي، فهل تعني "ألَم" (بالإنجليزية) أم "خبز" (بالفرنسية).

بالمقابل قد يكون لعلامة ما ذات المعنى بالأكادية والسومرية، ولكنْ لها لفظان مختلفان تمامًا، فرمز النجمة، إذا أُريد به معنى "السماء" فيُلْفَظ "آن" بالسومرية، ولكنه بالأكادية "شَمو"، والأسماء بالذات قد تكون خادعة؛ إذ إن الأسماء الآشورية غالبًا ما كانت تحتوي على عناصر سومرية بالإضافة إلى الرموز الأكادية، وهذا ما جعل جورج سمث – على سبيل المثال – يخطئ في قراءة اسم جلجامش فظن أنه "إزْدُوبار"، لم يدرك سمث أن ما بدا له كأنهما حرفان أكّاديان "إز" و "دو" لم يكونا في الواقع سوى علامتين سومريتين تُلفظان "جِشْ–جا" أو "جِلْ–جا" [تلفظ الجيم هنا كالجيم القاهرية]، كما أخطأ

أيضًا في قراءة المقطع الأخير، الذي كان أكاديًا كما افترض سمث، لكنه يُمكن أن يُلفظ إما "بار" أو "مِشْ"، وهكذا أصبح "جِل-جا-مِش" يُلفظ "إزدوبار" من بين عدة صيغ لفظية خرج بها علماء الآشوريات في تلك الأيام، أما لفظ "جلجامش" فلم يرسخ إلا بعد خمسة وعشرين عامًا على يدي صديق سمث وخليفته ثيوفيلوس ج. بِنتشس، في مقالة ذات عنوان يفوح منه عبق الانتصار، "فَلْيَخْرُج جِشْتوبار"(١)!

كان رولنسون قد بدأ بدراسة نقوش بِهِستون سنة ١٨٣٥، وفي أواخر الخمسينيات من القرن التاسع عشر كان قد اشتهر بأنه كبير خبراء الخط المسماري في العالم، ومع ذلك فقد كان يدرك أن هناك الكثير مما يجهله، لقد احتفظ رولنسون بتدويناته لفترة طويلة، وكان غالبًا ما يستعير من منافسيه كالقس الأيرلندي إدْوَرد هِنكس من دون أن يقر بدَيْن لأحد، لكنه قرر أخيرًا أن الوقت قد حان لنشر سلسلة من المجلدات الهائلة الحجم يضع فيها نصوصًا واضحةً ودقيقةً بين يدي غيره من الباحثين، ظل انشغال رولنسون بهذا الهوى سجالاً لعدد من السنين إلى أن نشر المجلد الخامس والأخير سنة ١٨٨٤، أما في سنة ١٨٦٠ حين كان عمره خمسين سنة فقد نشر المجلد الأول من كتابه «النقوش المسمارية لغربي آسيا» حين بدأ جورج سمث يتردد على المتحف.

¤ ¤ ¤

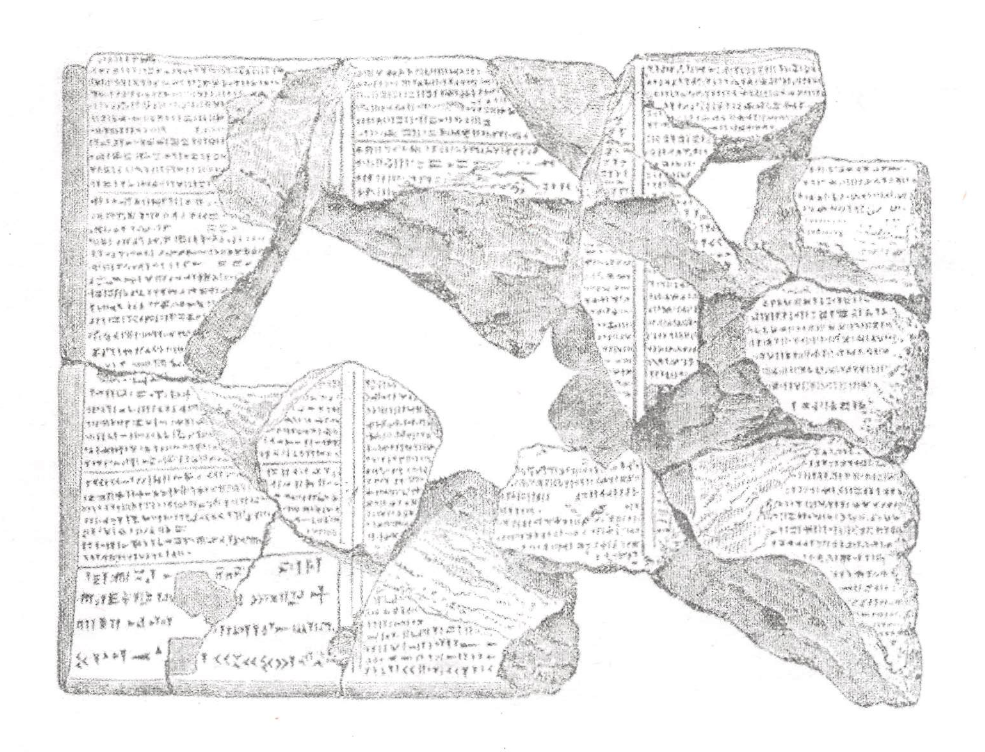
في البداية، لم يُعِر الدكتور بيرتش ولا كوكس أُقْ باليول اهتمامًا كبيرًا لهذا الشاب الهادئ الذي واظب على المجيء لفحص الألواح، كان المتحف

(1) *Babylonian and Oriental Record* 4 (1888-90), 264.

البريطاني يُفتح للجمهور ثلاثة أيام في الأسبوع فقط، وكان الأمناء يسمحون بهذا القَدْر على مضض، بزعم أن حشود العمال الجَهَلة يمكن أن تُخرِّب الأعمال الفنية التي يجب أن تُحفَظ لكي تُدرَس من قبل دارسي الفنون ولكي يتذوقها أصحاب الذوق الرفيع (الذين يمكن أن يُسمح لهم بالدخول في بقية الأيام وفقًا لمواعيد خاصة)، أما الدخيل الذي ليس له أية صفة أكاديمية، فيمكن أن يُغضَّ الطرف عنه في أحسن الأحوال العادية، ولكن سرعان ما اتضح لبيرتش وكوكس أن جورج سمث يستطيع أن يقرأ الألواح خيرًا منهما، فلفت بيرتش عناية رولنسون إليه.

ومما نال إعجاب رولنسون الشديد حين تعرف على سمث أكثر فأكثر هو قدرته على تجميع كِسَر الألواح، وهذه مهمة تحتاج إلى ذاكرة بصرية فائقة وبراعةٍ يدوية في "تلحيم" الألواح المتشظية، فربما كان لوحٌ معين قد تشظّى إلى عشر قطع أو أكثر تتناثر هنا وهناك بين المئة ألف قطعة من مقتنيات المتحف، أقنع رولنسون إدارة المتحف لتوظيف سمث للعمل على فرز الألواح وتجميعها، وهذه وظيفة فيها من العمل اليدوي أكثر مما فيها من البحث العلمي، وفي الحقيقة كان راتبه راتبَ عاملٍ شبْه ماهر، وكما بيَّن بَدج، "عَمِل سمث لسنين براتب أقل من راتب مُعلِّم نجارة أو حجارة في تلك الأيام(١)"، فمن الناحية المالية البحتة، فإن النصيحة التي أعطاها البروفسور تتوفني للسيد "ج. فولي الحجّار" نصيحة معقولة.

(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, p. 129.



نقش جورج سمث لجزء من لوح قصة الطوفان، من كتابه «رواية التكوين الكلدانية» (١٨٧٥)

استغل سمث موقعه الجديد خير استغلال لزيادة معرفته باللغة وخطها حتى صار بإمكانه في منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر أن يقوم باكتشافات حقيقية بين الألواح؛ إذ استطاع أن يتعرف على أسماء ملوك بني إسرائيل المذكورة في النقوش الآشورية، فأضفى تفاصيل إضافية ودقة للتسلسل الزمني لتاريخ بني إسرائيل، وفي سنة ١٨٦٦ نشر أولى مقالاته، فنال ترقية مهمة حين أقنع رولنسون أمناء المتحف لتوظيف سمث بصفة مساعدٍ له في مجلده التالي «النقوش المسمارية»، وكما استذكر سمث لاحقًا

بكثير من الفخر، "وهكذا في بداية ١٨٦٧ دخلتُ الحياة الرسمية، وواصلت دراستي المنتظمة للنصوص المسمارية(١)".

ظل سمث دائمَ التبجيل لرولنسون حتى عندما بدأ يتفوق عليه، وخير مثال على هذا التبجيل هو اللغة التي كتب بها الإهداء في كتابه «سِفْر التكوين الكلَداني»:

أهدي هذا العمل

إلى

السير هنري كرزوِك رولنسون

قائد فرقة الفرسان وأستاذ القانون المقارَن، إلخ، إلخ، إلخ

مُعلِّمي وسَلَفي فيما أختطه حاليًا لنفسي من بحوث

واعترافا مني بأفضاله الجمّة

حين يقول سمث عن رولنسن بأنه سلفه، فهو يضع تأثير أستاذه في الماضي ويوجه عنايتنا لما يختطه حاليًّا لنفسه من بحوث، في هذه الأثناء كان سمث قد جعل نجم أستاذه يأفل في نظر العامّة، وذلك بفضل اكتشافه الصاعق "لقصة الطوفان الكلدانية" (أي «ملحمة جلجامش»).

كان هذا الاكتشاف هو ما يحتاجه بالضبط ليحقق طموح حياته، فقد ظل لسنين يعرض على المتحف أن يذهب إلى العراق للتنقيب، إلا أن المتحف لم تكن لديه نية لإرساله؛ إذ كان جُل اهتمام الأُمناء ينصبُّ على الثقافة والفن الأوربي والكلاسيكي، بل كانوا على قناعة أن لديهم ما يكفي من

(1) George Smith, *Assyrian Discoveries: An Account of Explorations and Discoveries on the Site of Nineveh, During 1873 and 1874* (New York: Scribner, Armstrong, 1875), 11.

التحف "البدائية" الآشورية والبابلية، (وقد علّق قيّم المنحوتات حين شحن أوستن هنري لايَرْد أولى لُقاه إلى المتحف: "هذا فنٌّ رديء جدًّا")[1]، كان سمث شديد التلهف ليصبح عالم آثار يُعتَدّ به، فكتب إلى لايَرْد: "إن لم يكن باستطاعتي توفير المال بأية طريقة أخرى، فإني على استعداد للقيام بأي وظيفة مؤقتة أجدها هناك (شريطة أن يوافق المتحف) لعلّي أتمكن بأية وسيلة من إعادة فتح موقع تنقيباتك")[2]، إلا أن المتحف كان يريده للبقاء فيه والعمل في أروقته، ولم يكن لدى سمث من وسيلة يؤمّن فيها "وظيفة مؤقتة" في منطقة نائية من الإمبراطورية العثمانية أو حتى أُجرة الطريق إلى هناك، ولا سيما أنه الآن صار يعول زوجةً وعائلة متنامية على راتب زهيد، ولما أحس بالإحباط كتب إلى لايَرْد في شباط/ فبراير ١٨٧٢: "إن الحكومة في الوقت الحالي ليس لديها أدنى استعداد للمساعدة لدفع الأمور قُدُمًا، بل إني أعتقد أنها لن تعطي فلسًا واحدًا ما لم يُكْتَشف شيء[3]".

وهكذا راح سمث يقوم بمسحٍ منتظم لمقتنيات المتحف بحثًا عن نصوص تاريخية وأسطورية لعلها تضيف شيئًا مثيرًا للدراسات التوراتية، وقد جاء عثوره على قصة الطوفان في تشرين الثاني/ نوفمبر من تلك السنة بعد تسعة أشهر متواصلة من البحث عن شيء يمكن أن يثير اهتمام العامة لتسويغ بعثة إلى الشرق، ومن بين مئة ألف كسرة عثر سمث أخيرًا على جواز السفر إلى أرض أحلامه.

¤ ¤ ¤

---

(1) Parliamentary Papers 1852-53, 31:9050f; quoted in Frederick Nathaniel Bohrer, *A New Antiquity: The English Reception of Assyria* (UMI, 1998), 259.
(2) Smith to Layard, 5 January 1872, British Library Add. Mss. (hereafter BL) 39,000, folio 123.
(3) Smith to Layard, 11 February 1872, BL 39,000, f. 196.

انتشر خبر اللُّقْيَة سريعًا، وكان رئيس الوزراء وليم غلادستون حاضرًا حين قدَّم سمث ترجمة ضمن محاضرة ألقاها في جمعية الآثار التوراتية في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧٢، وقد أشار عالم الآثار أندرو جورج بشيءٍ من الاستغراب، "لا بد أن هذه كانت المرة الأولى التي يحضر فيها رئيس وزراء بريطاني وهو في منصبه محاضرة عن الأدب البابلي(١)"، وخلال النقاش الذي تلا محاضرة سمث، نهض غلادستون وأبدى عددًا من الملاحظات، كما نقلت صحيفة التايمز اللندنية في اليوم التالي، فبدأ بالإشادة بالمُكتشَفات الجديدة في بلاد الرافدين، لا بسبب صلتها بالكتاب المقدس، بل لأنها تضفي على كثيرٍ من التراث الإغريقي القديم متانةً كانت مفتقَدة"؛ مما أعطى قراءة هوميروس فهمًا جديدًا، ثم راح يشيد بهوميروس إشادةً كادت تنسيه المناسبة تمامًا، فوصفه: "إنه صديقِ شبابي وصديق كُهولتي وصديق شيخوختي، وآمل ألا يفارقني ما دام النَّفَسُ لم يفارق جسدي(٢)"، وبحسب صحيفة التايمز، صفق علماء الآثار المجتمعون بحرارة لهذه الكلمات المثيرة.

وقد أثبت غلادستون لاحقًا أنه صادق فيما يقول؛ حيث راح بعد تقاعده من رئاسة الوزراء يكتب الكتب عن هوميروس ومقالات تشكيكية عن قضايا دينية، الأمر الذي جعل لويس كارول يعيد ترتيب أحرُف اسمه William Ewart Gladstone؛ ليشكل منها هذا السؤال المستتكر Wilt tear down all images? (أتريد أن تنسف جميع الصور؟)، ومن الطريف أن لويس كارول وهو شمّاس أنجليكاني ورِع وعالم رياضيات وكاتب، قصَّ أول تقرير تنشره التايمز عن اكتشاف سمث ولصقه في دفتر قُصاصات، وذلك بعد أشهر من

(1) Andrew George, *The Epic of Gilgamesh: A New Translation* (Penguin, 1999), xxiii.
(2) *Times* (London), 4 December 1872, 7.

نشره لكتابه «من خلال المرآة»، كانت صور الكتاب المقدس تتكسر بطرقٍ غير متوقعة في الألواح المترجمة حديثًا.

لقد استُقبل مديح غلادستون لهوميروس بالتصفيق من قبل علماء الآثار الحاضرين، غير أنه خيب أملهم في أن تموّل حكومته بعثة جديدة للبحث عن المزيد من الآثار، وقد حرص سمث على إبراز أهمية هذه البعثة، مشيرًا بشكل خاص إلى أن اللوح الذي يحكي قصة الطوفان لا يزال ناقصًا، بيد أن غلادستون رفض أن يبتلع الطعم، وبدلاً من ذلك، صرح بفظاظة: "إن من مفاخر هذه البلاد وسماتها المميزة هو أن كثيرًا جدًا من الأمور تُنجزها جهود الأفراد، بينما في البلدان الأخرى لا يمكن إنجازها إلا من خلال ما كان السير روبرت بيل يسميه التقدم لصندوق المال القومي من أجل المنفعة السوقية[1]"، لكن التايمز لا تسجل تصفيقًا من قبل علماء الآثار ردًا على تفضيل غلادستون للمشاريع الفردية هذا.

وبعد أن وأَدَ غلادستون الدعوة للدعم الحكومي بكل مكْرٍ، أُلقي عبء التحدي على عاتق مؤسسةٍ لا تجد غضاضةً في الإعلان عن سوقيتها، لقد قدَّم إدْوِن آرنولد، محرر جريدة شعبية لندنية هي الديلي تلغراف – مبلغ ألف جنيه لتمويل بعثة سمث الذي تمكن في الشهر التالي من الرحيل أخيرًا، وكانت لفتَةً جميلة من آرنولد أن يضع المبلغ بالجنيه بدلاً من مكافئه العملي، الباوند الإسترليني، كان الجنيه عملة ذهبية تساوي واحدًا وعشرين شلنًا؛ (أي يزيد على الباوند بشلن واحد)، لكن هذه العملة لم تعُد تُسَكّ منذ ستين عامًا، غير أن التعبير ظل دارجًا لتثمين النفائس وحوائج الرفاهية، والكتب في غالب الأحيان، وهكذا جاءت الألف الجنيه التي قدمها آرنولد لا لتوحي فقط بقيمة الألواح الثقافية بل بالتكلفة المباشرة لاستعادتها.

(1) Ibid..

وبما أن بادرة آرنولد المثيرة استلهمت المصالح الإمپريالية بقدر ما استلهمت الاهتمامات الأثرية، فما أشبه اليوم بالبارحة؛ حيث استمد الجنيه اسمه من المستعمرة البريطانية غينيا؛ حيث سُكَّ لأول مرة فيها، فمنذ بداية القرن، ارتبطت التنقيبات الأثرية ارتباطًا وثيقًا برومانسية الفتوحات والاستكشافات الإمپريالية، بل بألاعيبهما كذلك، وقد كان للفرنسيين قصب السبق في هذا المجال حين غزا ناپليون مصر سنة ١٧٩٨، وأخذ معه لجنة تضم ١٦٧ باحثًا وعالمًا ليُجْروا مسحًا شاملاً للبلاد وآثارها، وقد تم نبش حجر رشيد، الذي كان بمثابة المفتاح الذي به فُكَّت رموز الهيروغليفية، خلال مغامرة ناپليون المصرية هذه التي دامت ثلاث سنوات، ثم أُخرجَ بعد ذلك من البلاد بفضل تحالف البريطانيين مع العثمانيين، فصار من مفاخر البريطانيين الثقافية أن حجر رشيد ذاته يقبع الآن في المتحف البريطاني.

ومع أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت مناطق الشرق الأوسط الواقعة تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية الآفلة محطَّ تنافس شديد بين القوى الأوربية الكبرى التي سعت كل منها لكسب كل امتياز ممكن على منافسيها بقصد كسب النفوذ والتحكُّم في المنطقة، ولم تكن حرب القِرَم إلا أكثر هذه الصراعات العلنية دمويةً، وبما أن المغامرات العسكرية فشلت في حسم الصراع في غالب الأحيان، راح المتنافسون الإمپرياليون يبحثون عن امتيازات لهم في المشاريع الثقافية التي كانت جزءًا من مشروع التحضير الأكبر الذي كان يهدف إلى جلب الأسواق الحرة والدين المسيحي إلى بلدان الشرق الأوسط "المتخلفة"، فصار التنقيبُ عن الآثار والحفاظُ عليها مجال تنافس دائم، وذلك ليزعم الأوربيون أنهم أولى بالعناية بتراث المنطقة من أبناء المنطقة أنفسهم، وكما يقول أحد المؤرخين: كان اللاعبون في "لعبة

الشرق الأوسط العظمى... يشنون حربًا تقليدية ويرتكبون وقاحات دبلوماسية شائنة ليس فقط على الأراضي العثمانية، بل على ملكية الماضي ذاته[١]".

كان للهيبة المتأتية من الهيمنة الثقافية نتائج سياسية مهمة، وهذه النقطة أشار إليها رولنسون في خطاب ألقاه في البرلمان سنة ١٨٦٧: "إني أنظر إلى 'الهيبة' تمامًا كما أنظر إلى التسليف في أمور المال، إنها قوة تمكننا من تحقيق نتائج عظيمة جدًّا بوسائل صغيرة جدًّا في متناولنا، قد لا يكون للهيبة أهمية كبرى في أوربا، ولكننا يا سيدي لن تقوم لنا قائمة في الشرق من دونها[٢]"، وكانت التقارير عن اللقى الأثرية في الشرق الأوسط دائمًا تركز على تعجب الأهالي من قدرة الأوربيين على اكتشاف نفائسَ مطمورة تحت أقدامهم منذ أزمنة سحيقة، وحتى وهي تعزز المصالح الغربية في الخارج، كان للبعثات الأثرية قيمة في الداخل، فالبحث عن الآثار القديمة شكل مادة هائلة للتقارير الصحفية وأدب الرحلات؛ مما أعطى القارئ الأوربي تلك الإثارة الضافية وهو يقرأ عن الإقدام والسيادة الإمبرياليين (كتسلق رولنسون لجرف بهستون) من غير أن تبدي تلك الأوابد المستردة أية مقاومة أو تشكل تحالفات ممانعة لوحدها.

لم تكن تقارير ذلك العهد لتفصل قط بين الآثار والمشروع الإمبريالي، ففي اليوم الذي نشرت فيه جريدة التايمز عرضًا لكتاب سمث «سفر التكوين الكلداني» الذي نشر سنة ١٨٧٥، ضم العمود الذي بجانبه تمامًا مقالة عن صربيا والجبل الأسود تقول في مستهلها: "مرة أخرى تبدو الأمور مظلمة في الشرق، وهذا سببه الموقف المبهَم لصربيا والجبل الأسود[٣]"، ثم تتابع المقالة

---

(1) Steven Holloway, "Biblical Assyria and Other Anxieties in the British Empire," *Journal of Religion and Society* 3 (2001), 1-21.
(2) Ibid., 20.
(3) *Times*, 4 December 1875, 4.

لتصف الوضع غير المؤكد لدولتي البلقان هاتين الواقعتين بشكل مُقلق ضمن منطقة نفوذ مشتركة لكل من الإمبراطوريتين العثمانية والمجرية-النمساوية، فليس من باب الصدفة في مثل هذا السياق المضطرب إذن أن يستمتع كاتب العرض لكتاب سمث باستخدام لغة الضبط القانوني والتقدم العسكري ذات النبرة المنتصرة: "إن فك رموز الكتابة المسمارية يسير بخطوات تُذهل أشد معجبيها حماسةً وتفوق توقعات أشد أتباعها إخلاصًا، لقد جرى استجواب آشوربانيبال، واستدعي الآن بل والتنين إلى المحكمة... لقد هُزِمَتْ أسطورة المشركين الساميين، بل هُزم دينهم".

بتمويله بعثة سمث لإيجاد الجزء المفقود من قصة الطوفان، كان إدْوِن آرنولد يقتدي بقصةِ نجاحِ عمليةِ بحثٍ وإنقاذٍ إمبريالية أخرى، فقد كانت صحيفته الديلي تلغراف قد أرسلت هنري مورتن ستانلي للبحث عن المستكشف والمبشِّر الدكتور ديڤد لِڤِنغستون في إفريقيا الوسطى حين انقطع اتصاله بإنكلترا خلال رحلة استكشاف طويلة بدأها سنة ١٨٦٦، عثر ستانلي على لِڤِنغستون في أواخر ١٨٧١ وبعد أن قضى معه عدة أشهر بحثًا عن منابع النيل، عاد ستانلي مكللاً بالنصر، وقبل محاضرة سمث بشهرين كانت الملكة ڤكتوريا قد استقبلت ستانلي في شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٧٢ وتكرمت بإهدائه علبةَ سُعوط ذهبية تقديرًا لجهوده.

ومن المفارقة أن هوس بريطانيا بإيجاد الطبيب المفقود أعاق جهود سمث السابقة للارتحال نحو الشرق، وعندما التمس مساعَدةَ هنري رولنسون لجمع المال، أجابه هذا بأنه لا يستطيع مساعدته؛ نظرًا لانهماكه في محاولة جمع المال لإيجاد لِڤِنغستون، وهذا مشروع "عديم الفائدة بنظري" كما كتب

سمث باشمنزاز في رسالة إلى لايرْد[1]، وذلك قبيل أن تصل إلى لندن أخبار نجاح ستانلي، ولما راحت شهرةُ سمث تتنامى، صار يُنظَر إليه بمثابة المكافئ الآركيولوجي للِفنِغْستون؛ إذ كان يكتشف منابع الطوفان بدلاً من منابع النيل، وقد أبرز سكْرِبْنَر - ناشر سمث الأمريكي - هذه العلاقة على الغلاف الخلفي لكتابه «المُكتَشفات الآشورية»؛ حيث أدرج عددًا من العناوين ذات الصلة مثل «الشك المعاصر والإيمان المسيحي»، «الأصل المُعْجِز للكتاب المقدس»، وكتاب ستانلي الأخير الأكثر رواجًا «كيف عثرتُ على لِفنِغْستون»، بل إن التماهي بين سمث ولِفنِغْستون ظل قائمًا حتى في موتهما؛ حيث كتب صديقه آ. هــ. سايس تأبينًا في صحيفة التايمز، "لقد أصبح اسمه شائعًا على كل لسان تمامًا مثل اسم لِفنِغْستون، وأنا على يقين أن التعاطف الذي أثاره موت ذلك الرحالة الإفريقي العظيم سيثيره أيضًا موت الرحالة والمستكشف العظيم في بلاد التوراة وإمبراطوريات الشرق القديمة[2]".

¤ ¤ ¤

كان سايس محقًّا في وصفه سمث بأنه مستكشفٌ عظيم لإمبراطوريات "قديمة،" أما الشرق الأوسط الحديث فقد حيَّر سمث وأصابه بالإحباط كثيرًا، ورغم تلهُّفه للسير على خُطى رولنسون ولايرْد، فإنه كان ينقصه الاستعداد التام للعيش في ثقافة مختلفة كليًّا عن ثقافته، فهو لم يكن يعرف العربية أو التركية أو الفارسية، وربما لم تطأ قدماه أرضًا خارج بريطانيا قبل

(1) Smith to Layard, 11 February 1872, BL 39,000, f. 196.
(2) *Times*, 13 December 1876, 10.

مغادرته إلى العراق في كانون الثاني/ يناير ١٨٧٣ سوى مرتين ذهب فيهما إلى باريس في رحلتَيْ بحثٍ قصيرتين، فكان على وشك أن يواجه عالمًا غريبًا إلى أبعد الحدود.

فصّل سمث في الحديث عن مغامراته في كتاب أسماه «الاكتشافات الآشورية: وصف التنقيبات والاكتشافات في موقع نينوى خلال سنتي ١٨٧٣ و١٨٧٤»، وقد نُشر سنة ١٨٧٥ في طبعة أنيقة مزودة بالعشرات من النقوش وخريطة مَطْوية تبين مسيرة سمث عبر "تركيا الآسيوية"، وقد جعل سمث كتابه على شاكلة كتاب لايَرْد الأكثر رواجًا «نينوى وآثارها»؛ حيث صاغ حديثه عن التنقيبات وفقًا للأنماط الرائجة لأدب الرحلات وحكايات المغامرات الإمبريالية، وبهذه العملية جعل سمث من نفسه لصًّا يُغير على الفُلْك المفقود، فُلْك نوح، في هذه الحال، وليس تابوت العَهْد الذي سيبحث عنه إنديانا جونز ذات يوم على الشاشة الفضية، ولما كان سمث في الصميم باحثًا لا مُغامرًا، فقد أدرك أن هذا الطرح لا يحمل في طياته أفضل إمكانيةٍ لإثارة اهتمام قرائه فحسب، بل لاستدرار دعمهم المادي أيضًا، وقد أعلن عن هدفه هذا في الفصل الختامي من كتابه، كما يتضح من ملخصات العناوين الفرعية في الفهرس: "صعوبة العمل، قِصَر الوقت، نتائج طيبة"، في حين أن العناوين تبدأ باستهلال مشجع: "ضوء جديد على الكتاب المقدس، أصل الحضارة البابلية، العرق الطوراني، الغزو السامي، أساطير الطوفان، علم الأساطير، العلاقة مع الأساطير اليونانية"، قبل أن يعلن الكتاب عن موضوعه الختامي، "أهمية التنقيبات المستقبلية[(١)]".

(1) Smith, *Assyrian Discoveries*, xiv.

لم يُطْبَع كتاب «المُكتَشفات الآشورية» ثانيةً منذ أيام سمث، وهو يكشف انبهار كاتبه بالعادات الأجنبية، كما يكشف عن القلق الذي تثيره فيه هذه العادات، وقد تعرضت مشاعره للتحدي باكرًا وهو في إيطاليا حيث صعقه، وهو البروتستانتي الإنجليزي الوفي، مرأى الاعتراف يُمارس علانية في الكنيسة، "كانت الصلاة تجري في الكاتدرائية، إلا أن أكثر ما يؤذي عيون الإنجليز هو مرأى الاعتراف الذي تم خلال الصلاة وفي الكنيسة". ولم تكن الرهبانية الكاثوليكية تقل غرابة بالنسبة إليه، حيث يقول حين رأى ديرًا منعزلاً على جرفٍ: "إن المشاعر التي دفعت الناس للبناء على هذه الصخور الوعرة وللسكن في بقاعٍ منعزلة يتعذّر بلوغها لا بد أنها كانت متناقضة تمامًا لروح الاختلاط والنشاط التي تسود الكون هذه الأيام[١]".

فإذا كانت جنوب أوربا الكاثوليكية غريبة بالنسبة إلى سمث، فإن الشرق الإسلامي كان محيِّرًا تمامًا. ففي مدينة إزمير التركية، وهي أول ميناء يتوقف فيه في الشرق الأوسط، كانت الحشود تدفعه بالمناكب، فأزعجه الضجيج والفوضى، بل إن منظر الشيش كباب أدهشه، "تتناثر هنا وهناك مطاعم للأكلات الخفيفة يطبخ فيها الأهالي أطعمة قذرة المنظر، وقد بدا لي أحد هذه الأطعمة منفرًا للغاية، وهو يتألف من قطع لحم صغيرة ومصارين الخراف تُنظم في أسياخ كأنها لحم قطط، وتُشوى على نار الفحم، وكان الطلب على هذا الطعام اللذيذ كبيرًا؛ حيث كان الباعة ينادون على المارّة ويدعونهم لكي لا تفوتهم الفرصة لتجريب طعامهم الناضج الممتاز[٢]".

(1) Ibid., 19-20.
(2) Ibid., 23.



جورج سمث، حوالي سنة ١٨٧٤

كانت القذارة ضاربة الأطناب، وهذا أمر منفر بالنسبة إلى شخصٍ نيِّقٍ يصعب إرضاؤه، فالشارع الرئيس "لم يكن سوى خلطة طينية طويلة"، والحياة على ظهر السفينة لم تكن أفضل، ففي إزمير "أركَبْنا عددًا من الآسيويين الذاهبين للحج، وكانوا يسافرون في الدرجة الرابعة ويعيشون على ظهر المركب في المقدمة، كانوا في غاية الورَع والقذارة أيضًا، ومنذ أن استولوا على ذلك الجزء من المركب صرنا نتفاداه[١]"، بل إن الأماكن التي يمكن أن يستحم فيها الناس كانت على درجة عالية من القذارة، ففي بلدة حمّام علي، "كان الناس من كلا الجنسين يستحمون في مسبحٍ ماؤهُ آسِنٌ وتطفو على سطحه قطعٌ من القار، وكان داخلُ المبنى المحيطِ بالمسبحِ يستخدم لقضاء الحاجة؛ مما جعل قذارته لا توصَف[٢]".

(1) Ibid., 23-24
(2) Ibid., 96.

وبغض النظر عن النظافة، نادرًا ما كانت العادات المحلية تستهوي سمث؛ فعندما دُعي إلى مأدبة أُديرت "بلباقة الشرقيين ورزانتهم" سرعان ما تلاشى هذا الأثر الطيب نتيجة التسلية التي تلت العشاء، والتي تألفت من "سلسلة من النكات الفظّة،" وسيجارة تنفجر، ورقصة مغناجة لشاب مخنث، كان الصبي يرتدي ملابس نسائية باهتة الألوان، "مطرزة بدوائر من الهُداب، وكان ينتفض، وجسده مصبوغٌ بالأحمر والأزرق، كانت حركاته غريبة لا جميلة، كان يتمايل، ويطوّح بذراعيه، ويطقطق بأجراس نحاسية صغيرة مربوطة بأطراف أصابعه، ثم يقفز، وينط مرَحًا، ويهزهز رأسه إلى الأمام والوراء كأن رقبته متحررة من أي رباط.... وقد سعدت عندما انتهت التسلية وتمكنت من العودة إلى مضجعي(١)".

وقد بلغت أسفار سمث منعطفًا سيئًا عند قرية سورية يتألف "خانُها بكل بساطة من غرف ومقاعد من الخشب الخشن ويُشك أنه موبوء بالهوام"، وبعد عشاءٍ مُزْرٍ استمتع سمث ورفيقا سفره، الخائفون من قضاء ليلة مزعجة، بقراءة سجل زوار خادع:

> جلب لنا يعقوب - صاحب الخان - دفترًا دوَّن فيه زواره المتعددون تجاربهم في الخان، وقد ظن يعقوب الذي لا يجيد القراءة أن كل المدونات كانت تكيل له الثناء، فرجونا أن نضيف إلى مجموعته تنويهًا برضانا عن المكان، فأخذنا الدفتر وعايناه، فإذا هو مليء بعبارات دسمة تليق بالخان، فقد تحدث أحدهم عن عمر الدواجن، وآخر عن الهوام، ووجه آخرون تحذيرات للمسافرين الذين قد يأتون بعدهم، بينما نصح

(1) Ibid., 129-31.

> آخر الزوار اللاحقين أن يحاذروا من السقوط عبر الحفر في الأرضية؛ لأن منظر الشقة التي تحتهم لن يسرهم، وكتب آخر أن المكان مريح وأن الثقوب في الأرضية "مناسبة لقضاء الحاجة" وبعد تسجيل بعض الملاحظات في الدفتر، غادر السيد فوربس، فبدأت أنا والسيد كير نتصارع مع البراغيث، وأخيرًا نال الإرهاق منا فنمنا[١].

ورغم انزعاج سمث من منغصات الأسفار إلى الشرق، فإنه أحب المناظر وذلك الإحساس بالارتباط بالتاريخ القديم الذي درسه طويلاً، فبينما كان يعبر القرى النائية في طريقه إلى قرى نينوى داهمه شعورٌ يصله بالماضي، فقد رأى بيوتًا طينية عرف نمطها من النقوش القديمة وصادف دَرّاسةً "تشبه تلك الموجودة في الرواسب من حقب ما قبل التاريخ، إن استعمال هذه الآلة يُظهر مدى التغير البسيط الذي أنتجته آلافٌ من السنين في الشرق[٢]"، وبشيء من الدعابة، يصف عشاءه في خان يعقوب على أنه خير مثال على استمرارية العصور القديمة، "كان العشاء عبارة عن وجبةٍ وحيدة تتألف من لحم طيرٍ متين بوسعه أن يتذكر الإمبراطورية الآشورية[٣]"*.

---

(1) Ibid., 26-28.
(2) Ibid., 37.
(3) Ibid., 27.

* تذكرنا هذه الدعابة بقصيدة مشابهة لديك الجن الحمصي التي يقول فيها:

دعانا أبو عمرو غميرُ بنُ جعفر ... على لحم ديك دعوةً بعد موعد

فقدّم ديكًا غدمليًا ملدحًا ... مبرنس أثياب، مؤذن مسجد

يحدثنا عن قوم هود وصالح ... وأغرب ما لاقاه عمروُ بنُ مرثد

([المترجم])

وهكذا اجتمعت المناظر والمعتقدات الشعبية لتجعل سمث يشعر كأنه على اتصالٍ مع جلجامش أو (إزْدوبار) نفسه:

> كانت بعض المناظر على شاطئ النهر جميلة، وكانت الصخور بشكل خاص رائعة، وكانت إحداها تعلوها خرائب قلعة قديمة، وفي مكان آخر؛ حيث تنهض الأجراف سامقة من مجرى الماء، يوجد كهف ترتبط بها أسطورة عجيبة، يُقال: إن سعلاة كانت تعيش في سالف الأزمان في هذا الكهف، وكانت تأخذ ضحايا بشرية من المناطق المجاورة، لا شك أن إقفار المكان الموحش، وموضع الكهوف الشاعري؛ حيث يتعذَّر بلوغُها - قد اجتمعا لجعله مكانًا مناسبًا لمثل هذه الأسطورة.
>
> وأنا أمر بهذا المكان على طوّافتي، رأيت دجلة هادرًا مُزْبدًا عند كتلٍ صخريةٍ متساقطة عند قدم الكهف، فلم أملك إلاّ أن ألحظ الشبهَ بين هذه الحكاية وإحدى قصص إزدوبار، وأظن أن هذه نسخة عصرية لتلك الحكاية القديمة، وأن الناس ظلوا يتداولون هذه الأسطورة في هذه البلاد منذ أيام إزدوبار(١).

ومع ذلك فقد تركت المناظر أثرًا ملتبسًا على سمث، فبعد أن أثنى على الإقفار الرومانسي للمشهد بمفردات تليق ببايرون أو كولردج، فهو يعترف

---

(1) Ibid., 51-52.

بوجود قلق متزايد، "صار النهر الآن يرتفع بسرعة، وبدا كأن طوفانه الهائل الكاسح هو أمارة الحياة الوحيدة في كل المشهد، وصارت معظم المدن التي كانت تحف ضفتيه أثرًا بعد عين... إن وحشة المكان واستحضار الفرق بين الماضي والحاضر يخلِّفان كآبةً في نفس المسافر حتى لَيبدو كأنه منفيٌّ من كل أسباب الحياة ومشاغل الدنيا(١)".

تلاشت شكوك سمث حين اقترب أخيرًا من هدف حياته، من خرائب نينوى، عاصمة الموصل الإقليمية، ففي آخر ليلة له قبل بلوغه الموقع كان شديد التلهُّف إلى درجة أنه لم يستطع الانتظار حتى طلوع الفجر لكي يخرج. "في اليوم التالي (الثاني من آذار/ مارس) انطلقتُ قبل شروق الشمس ووصلتُ خرائب نينوى في حوالي التاسعة صباحًا، إني أعجز عن وصف المتعة التي انتابتني حين شاهدت هذه المدينة الخالدة التي هي بغية كثيرٍ من خواطري وآمالي(٢)"، كانت المدينة الخَربة تتألف من الروابي المسطحة الواسعة التي أثار انعدام معالمها هنري لايَرْد عندما رآها، وكانت أكبر هذه الروابي، وتدعى قيونجيك، يبلغ ارتفاعها أربعين قدمًا، وطولها حوالي الميل، وعرضها ثلث ميل، كانت محفرة بشتى الخنادق والحُفَر التي حفرها لايرْد ورَسّام قبل سنوات حين نبشا القصور التي تضم مكتبة آشوربانيبال العظيمة وما يساوي أكثر من ميلين من المنقوشات المنحوتة.

لقد كان سمث يعلم أن رَسّام لم يُكمل تنقيبه عن المكتبة في "القصر الشمالي" الذي بناه آشوربانيبال، الذي كان يعتقد أن ألواح ملحمة جلجامش وقصة الطوفان قد أتت منها على الأرجح، لقد روَّج لفكرة بعثته لدى صحيفة الديلي تلغراف على أمل أن يجد جزءًا مفقودًا من لوح قصة الطوفان يبلغ

(1) Ibid., 52.
(2) Ibid., 45.

ثلاثة بوصات في أحد جوانبه، ويظن أنه مطمور تحت أطنانٍ من الأنقاض في ذلك الموقع، ولكن لا بد أنه كان يعلم أن هذا البحث بمثابة البحث عن إبرة في كومة قش، بل عن قشة في كومة من القش؛ إذ لن تكون كسرة الطين المشوي مميزة عن غيرها في ركام الأنقاضِ المحيطة بها، هذا مع افتراضِ أنها لم تتفتت في الأزمنة الغابرة أو أنها لم تُرمَ من قبل رجال رَسّام خلال التنقيبات قبل اثنين وعشرين عامًا.

في الحقيقة، كان لصعوبة البحث جانب إيجابي، فكلما طال بحثه عن الكسرة المفقودة، طال أمد تنقيبه، كان قد حصل على فَرَمان من الحكومة العثمانية يخوله بالتنقيب لمدة أقصاها سنة، لن تكفيه الألف الجنيه التي جمعها له محرر الديلي تلغراف كل هذه المدة، لكنه كان يأمل بتمويل جديد من المتحف البريطاني لو استطاع أن يجد لُقى مهمة، وبما أن الحظ قد حالفه من قبل كما لم يحالف أحدًا غيره في اكتشاف معظمِ لوح الطوفان ضمن مُقتَنيات المتحف، فلم يكن حقيقةً بحاجة لأن يطرق الحظ بابَه مرتين، لقد كان تلهفه لنبش ألواح تاريخية وإدارية تساعده على جلاء بعض الفجوات في فهمه المتنامي للتاريخ الآشوري لا يقل عن تلهفه لإيجاد تلك الكسرة المفقودة.

أراد سمث أن يبدأ بالتنقيب في اليوم الذي وصل فيه، إلا أن المسؤولين المحليين أجّلوه، إما لأنهم ارتابوا في مقاصده أو لأنهم أرادوا رشوة، فرفضوا قبول الفرمان الذي يخوله بأعمال التنقيب، فاضطر للسفر مسافة مئتي ميل إلى بغداد لتسوية الأمور، وقد مر في طريقه بتكريت، التي ستصبح مستقبلاً مسقط رأس صدام حسين، فقال عنها سمث: "إنها بائسة المنظر(١)"، وبعد عودته من بغداد بعد المصادقة على الفرمان، استأجر عمالاً من الموصل

---

(1) Ibid., 52.

والقرى المحيطة بها وراح يوسّع حفريات رَسّام القديمة في موقع المكتبة، ثم خصص مجموعاتٍ أخرى للعمل في مواقع يُحتَمل العثور فيها على ألواحٍ أو منحوتات، عمل رجاله في مجموعات من ستة أو سبعة أفراد؛ حيث كان يقوم واحدٌ أو اثنان بأعمال الحفر، وواحد أو اثنان يملآن الأنقاض في سلال، والآخرون يحملون هذه السلال إلى مكَبٍّ للأتربة، كانت الفوضى والارتباك في كل مكان، ليس فقط بسبب الأضرار القديمة التي خلّفها خراب القصر، بل لأن الطرق التي اتبعها هُرْمُزْد رَسّام كانت أيضًا غير منهجية، ثم إن الحفرة أصبحت مؤخرًا منجمًا للأحجار، فهُدِمت الأسوار القديمة لتتراكم الأنقاض الجديدة فوق القديمة، بدأ العمل في الموقع بتاريخ ٧ أيّار/ مايو ١٨٧٣، واللافت للنظر أنه خلال أسبوع طرق الحظ باب سمث مرة أخرى؛ حيث عثر على فضلَة لوحٍ تحتوي على الجزء المفقود من قصة الطوفان، أبرق خبر اكتشافه للديلي تلغراف، فمنح إدْوِن آرنولد السبق الصحفي الذي أراده، فتناقلت الصحف العالمية خبر عمله الفذ هذا.

ومن المناسب أن يُعلن عن اكتشاف هذا النص القديم بأحدث الوسائل، وكان صموئيل مورس قد وضع نظام البرق التجاري، وهو أول نظام اتصالات دولي، في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وقد تم تداوله على نطاق واسع في الستينيات من القرن نفسه، أما أول خطٍّ بحري ناجح فقد مُدَّ سنة ١٨٦٦؛ أي: قبل أن ترسل الديلي تلغراف سمث إلى العراق بسبع سنوات، وفي اليوم الذي عثر فيه سمث على اكتشافه العظيم، نشرت صحيفة النيويورك تايمز مقالة تتأمل هذا التقارب بين وسائل الاتصالات الحديثة والقديمة، "من غير الممكن أن نتصور إنتاجين أدبيين أكثر تناقضًا من الصحيفة المعاصرة والمُدَوَّنات الملْغزة المتفتتة التي يُعثَر عليها بين عادياتِ

الزمن الغابر.... هناك ما يثير الدهشة في ربط الاثنين معًا، في وضعهما في حالة تقابل مفاجئة وغير متوقعة بعضها مع بعض؛ وهذا تمامًا ما فعلته صحيفة لندنية أرسلت السيد جورج سمث، وهو منقبُ آثارٍ معروف لعله يحل ألغاز نقوش آشور القديمة[١]"، وهكذا تلاحمت الألواح القديمة مع آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا في رحلة طوافها حول العالم.

وصف سمث اكتشافه في كتابه «المُكتَشفات الآشورية» بلغة علمية رزينة، من دون قفزٍ هنا وهناك، أو تَعَرٍّ:

في الرابع عشر من أيار/ مايو زارني في الموصل صديقي السيد تشارلز كير الذي كنت قد تركته في حلب، وقد قابلته حينما عدت إلى الخان حيث كنت أقيم، وبعد تبادل التهاني جلست لأتفحص حصيلة يومي من كسَر النقوش المسمارية، فكنت أستخرج هذه الكسر وأنفض عنها التراب لأقرأ محتوياتها، وعندما نظّفت إحداها وجدت، ويا لها من مفاجأة سعيدة! أنها تحتوي على الجزء الأعظم من سبعة عشر سطرًا من نقوش العمود الأول من قصة الطوفان الكلدانية، وأن مقاييس هذه الكِسرة تتوافق مع مقاييس الجزء الوحيد الناقص من القصة، كنت حين نشرت محتويات هذا اللوح قد خمَّنت أن القصة قد انخرم منها حوالي خمسة عشر سطرًا، أما الآن فقد مكنتني هذه الكسرة من إكمال القصة تقريبًا[٢].

(1) "Journalism and Archeology," *New York Times*, 14 May 1873, 6.
(2) Smith, *Assyrian Discoveries*, 97.

هنا يكاد سمث أن يكون مفرطًا في واقعيته، وهو على أية حال مشهور بتواضعه حتى إنه احمَرَّ خجلاً ذات يومٍ حين سألته امرأة: إن كان بإمكانها أن تصافح "السيد سمث العظيم(١)"، ومع ذلك فرواية سمث تحمل في طياتها أصداء تاريخية وإمبريالية مذهلة، فبعد انتصاره على المسؤولين العثمانيين الفاسدين ليبدأ تنقيباته، عثر سمث على الكسرة المفقودة بُعَيْدَ نبشه "نصف لوح غريب منسوخٍ من أصلٍ بابلي، يحذِّر الملوك والقضاة من الشرور المنتوجة عن تجاهل العدالة في البلاد(٢)"، وبما أن الشيء بالشيء يُذكَر، فسيأتي حينٌ من الدهر يكسر فيه البابليون أنفسهم هذا النص البابلي سنة ٦١٢ ق.م. حين اقتحامِهم نينوى ونهبهم قصورَها.

وبينما كان عماله ينقِّبون هنا وهناك في خرائب المكتبة، عثر سمث على النصف الآخر من اللوح عن فساد الحُكم، ثم فجأة ظهرت كسرة لوح الطوفان المفقودة، وكأن مفتاحًا سحريًّا أُدخل في قفل، وقد تم اكتشافها في سياق اجتماعي وسياسي، ففي وصفه للمشهد، يستخدم سمث لغةً لاشخصية تتجنب ذكر العاملين معه من الأهالي ("لدى إزالة بعض هذه الأحجار، ظهرت ...")، وبدلاً منهم يظهر صديق سمث الزائر، تشارلز كير، رفيقه في الشقاء في خان يعقوب السيئ الذِّكر، والاكتشاف العظيم يتم بعد "تبادل التهاني" بين رجلين إنجليزيين التأم شملهما للتو، وبعد إنقاذ اللوح المسماري من حطام التاريخ القديم وفساد الحكم المعاصر، يجد جمهورًا إنجليزيًّا حتى العظم مستعدًّا لانتشاله وحمله إلى موطنه الإمبريالي الجديد.

¤ ¤ ¤

(1) A. H. Sayce, "George Smith," *Nature* (1876), 125.
(2) Smith, *Assyrian Discoveries*, 97.

كانت عودة سمث إلى بريطانيا أبكر مما كان يرغب، ومما جعله يندم أشد الندم هو أن الديلي تلغراف أمرته بالعودة فور إعلانه عن اكتشافه السريع لنص الطوفان، وذلك بعد أن حرَّفت عبارات برقيته بكل خسَّة، وجعلتها توحي بأن سمث قد اختار إنهاء مهمته، وحتى بعد سنتين من هذه الخديعة، ظل سمث يتميَّز من الغضب، فكتب في «المُكتشفات الآشورية»، "بسبب خطأ لا زلت أجهله، كانت البرقية المنشورة تختلف عن تلك التي أرسلتُها، وبشكل خاص، وردت في النسخة المنشورة عبارة 'ولاسيما أن الفصل يُشارف على الانتهاء' التي قادت إلى الاستنتاج أنني أرى أن الفصل المناسب للتنقيب قد شارف على نهايته، غير أن شعوري الشخصي كان بخلاف هذا، وأنا لم أرسل هذه العبارة[1]"، وما حصل هو أن الكسرة التي عثر عليها بهذه السرعة لم تكن من «ملحمة جلجامش»، بل كانت نسخة أقدم بكثير من قصة الطوفان، فلو أدرك سمث هذا الأمر، لكان بإمكانه أن يُحاجج أن مهمته لم تنته بعد، حتى وإن عثر على ما أُرسِل من أجله، ألا وهو مستهل القصة.

وحين أُمِر سمث بالعودة إلى بريطانيا واجهته صعوبة الوصول إلى هناك، كانت الحرب قد اندلعت حول الموصل بين القبائل العربية المتنافسة، وكان اللاجئون يتدفقون حول الروابي التي كان سمث ينقب فيها، والغريب أن هذه الأحداث لم تحرك فيه ساكنًا، كان سمث يرى أن العنف في المنطقة هو سمة ملازمة للمكان، بل استمرارٌ للأزمنة القديمة؛ حيث يقول: "إن يد العربي المتجوِّل اليوم -كما في الماضي- مرفوعة في وجه الآخرين، وأيدي هؤلاء مرفوعة في وجهه[2]"، هنا يقرأ سمث الثقافة المحيطة به بمنظار

(1) Ibid., 100.
(2) Ibid., 109.

توراتي؛ حيث يُحرِّف العبارة التوراتية التي تصف إسماعيل، الابن المنبوذ لإبراهيم، ووالد جميع الشعوب العربية (سفر التكوين ١٦: ١٢).

إلا أن سمث صبَّ جام غضبه على الحكومة التركية لرفضها حماية الآثار الكائنة في البلاد التي تحكمها. كانت الحرب الحديثة في الواقع أقل تخريبًا لمواقع التنقيب من الحياة اليومية؛ حيث ظل أبناء القرى المجاورة لقرون ينقبون في الروابي القديمة بحثًا عن حجارة أو قرميد يستخدمونه في مشاريعهم العمرانية، ففي خرائب بابل، "كنت أرى هذا العمل جاريًا على قدمٍ وساق، تمامًا كما جرى لقرون، وهكذا راحت بابل تختفي تدريجيًّا من دون أن يُبذل جُهدٌ لتحديد أبعاد المدينة ومبانيها أو حتى لاكتشاف ما تبقى من نُصُبها التذكارية[١]"، أما "المسؤولون الأتراك المستعدون دائمًا لمنع البحوث واكتشاف النُّصُب أو إزالتها لا يمنعون الأهالي إطلاقًا من تدمير الآثار[٢]".

كان سخط سمث على المسؤولين الأتراك توازيه بالمقابل شكوكهم المتنامية حوله، وبسبب عدم اكتراثهم بالتاريخ القديم للبلدان التي يحتلونها، ناهيك بنظائر ذلك في التوراة، لم يصدق المسؤولون الذين تعامل معهم سمث أنه مهتم حقيقةً بكِسَر الألواح الطينية التي كان يُريهم إياها، وأخيرًا حصل على إذنٍ بمغادرة الموصل على رأس قافلة من البغال المحملة بصناديق مليئة بألواحه الثمينة، لكن مسؤولي الجمارك أوقفوه في حلب وحاولوا مصادرة مقتنياته.

أخرج لهم سمث الفرمان الذي يثبت حقه في هذه الآثار، إلا أن المسؤولين أصروا على أن يُفرغ كل صناديقه للتفتيش، "ضحك الضباط

---

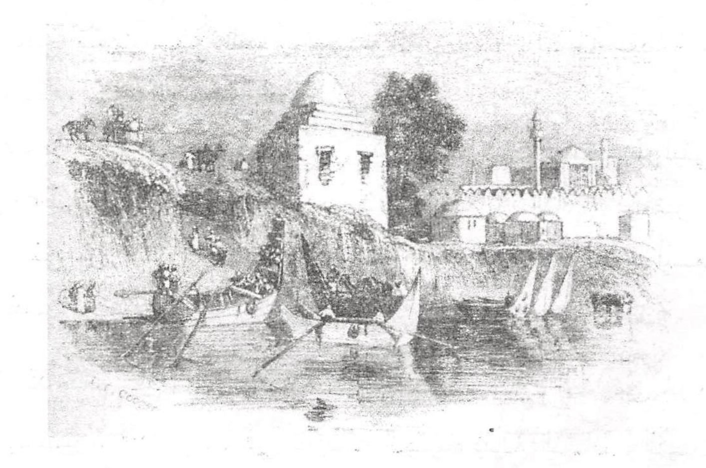
(1) Ibid., 62.
(2) Ibid., 427.

الأتراك من منظر الكسر القديمة للنقوش، وقالوا: إنها أشياء تافهة، وسخروا من فكرة الاعتناء بها"، ثم أعطوا سمث تصريحًا لنقلها عبر ميناء إسكندرونة، "إلا أنهم لم يتورعوا عن خداعي، رغم أن هذه الأشياء تافهة في نظرهم، فاكتشفت لاحقًا أن التصريح الذي أعطوني إياه لم يكن إلا أمرًا بمصادرة صناديقي.... وهكذا جعلني المسؤولون الأتراك أحمل رسالة موجهة ضدي".

ثم يكتب سمث بمرارة: "هكذا تصرف المسؤولون الأتراك مع ممثل دولة كانت دومًا سبّاقة لدعم تركيا(١)"، اضطر سمث أن يُبحر في شهر تموز/ يوليو من عام ١٨٧٣ من دون نفائسه التي أُفْرِج عنها بعد أسابيع حين تدخل السفير البريطاني في إسطنبول، وجرى شحنها إلى إنكلترا بسلام، غير أن سُخط سمث وهو يتذكر هذه الحادثة يمنعه من تذكر أن الجزاء من جنس العمل، فالإهانات التي كتبها الضيوف مُخاتلة في سجل الزوار في خان يعقوب الأمّي يماثلها تعويل ضباط الجمارك على عجز سمث عن قراءة التركية أو العربية، وهكذا وقع أهم مرجعية عالمية على قيد الحياة في الكتابة المسمارية في حبائل كتابات لا يستطيع قراءتها، ولولا مساعدة السفير، لما انتهى الأمر بلا نتائج كارثية هذه المرة، إلا أن كوميديا الأخطاء لن تبقى كوميدية أمدًا طويلاً.

(1) Ibid., 115-17.

شُهْرَةٌ مُبْكِرَة وموتٌ مفاجئ



مرسى العَبّارات على ضفة دجلة في الموصل

عاد سمث إلى لندن ليجد نفسه مشهورًا، وقد نشرت الديلي تلغراف مقالاتٍ تعلن محتفلةً:

بعثة الديلي تلغراف الآشورية

نجاحٌ تامٌّ للتنقيبات

العثور على الجزء المفقود من لوح الطوفان(١)

(1) *Daily Telegraph*, 21 May 1873, 7.

بعد ذلك نشرت الديلي تلغراف وصحف عديدة أخرى متابعات صحفية عن "المستكشف الذائع الصيت" أو "عالِم الآشوريات البارز" حسبما صار يُعرف في الأوساط الصحفية، وفجأةً ازداد الطلب عليه للحديث، وشهدت صالات الشرق الأدنى في المتحف البريطاني تزايدًا في أعداد الحضور، وكما قد تمنى سمث، دفع الثناء الذي رافق نجاحه الشبيه بقصة ستانلي-لفنغستون، دفع أمناء المتحف البريطاني أخيرًا إلى تقديم دعمٍ ماديٍّ إضافيٍّ حددوه بألف پاوند لا طعم لها ولا لون بدلاً من الألف جنيه إسترليني الأكثر أناقة التي أعطاه إياها آرنولد، غادر سمث في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٣، وقد عزم على أن يستغل ما تبقى له من مدة الفرمان أحسن استغلالٍ في أعمال التنقيب.

أمّا وقد أُنعِم عليه الآن بمكانة جديدة جعلت منه واحدًا من أبرز علماء الآثار البريطانيين، فقد انهمك في تنقيباته الجديدة ببالغ النشاط واللهفة، ورغم اشتياقه الشديد لأسرته، فإن رسائله لزوجته تفيض فرحًا بمغامراته ومكتشفاته، فبعد عدة أشهر من العمل كتب لماري، "لدي كل أنواع النفائس: التاريخية والأسطورية والمعمارية، إلخ، إلخ، أتوقع أن أُحضر معي ما بين ٣٠ إلى ٤٠ ألف قطعة، وعليك أن تأتي إلى المتحف لرؤيتها، وهي لن تساوي بالنسبة إليَّ شيئًا إن لم تشاركيني نجاحي[1]"، ثم كتب إليها وهو في غاية التشوق للعودة إلى موطنه: "لن آتي هذه المرة عبر باريس، ولن أستطيع أن آتيك بهدية سوى نفسي النبيلة المجيدة، وستكون هذه أنفس هدية في الدنيا، أما وجهي المزدهي بهالةٍ من شعر الذقن وشاربين فيشبه مكنسةً

(1) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 30 March 1874.

جيدة مُتَيَبِّسة تنتصب أسنانها بالمقلوب[1]"، فكر سمث في حلق هذه جميعًا، "لكني تذكرت إعجابك بزوائد الماعز هذه، فاستبقيتُها إكرامًا لك[2]".

كان يواظب على كتابة الرسائل وبشكل مطول، وكان دائمًا يرجو ماري أن تبعث إليه برسائل جوابية، لكن لم يأته من هذه سوى القليل، **أولاً:** لأن خدمة إيصال البريد لم تكن على ما يُرام، **وثانيًا:** لأن ماري كانت نادرًا ما تكتب، إما لأنها منهمكة في رعاية أطفالهما الستة أو لأنها لم تشعر بأنها تجيد الكتابة، وبما أنها نالت من التعليم الرسمي أقل بكثير مما نال زوجها، ربما كانت تشعر بالرهبة إزاء معرفته الفائقة بالنحو وخطه الجميل الذي صقلته سنوات العمل في النقش، كانت جُمله تعاني من مَثْلبة الإطالة، لكنه كان يكتب بخط مائل رائع يكاد يخلو تمامًا من أي شطب ولا تشوبه شائبةٌ من حبر.

دأب سمث على إرسال محبته وقُبَله إلى "الملائكة الصغار" وهم: تشارلي، فرد، سِسي، آرثَر (الملقَّب "توبِني" [أبو قِرْشين])، بيرتي، "إيفِيل" كان يسأل عن دراسة الكبار، وعن تدرُّج الصغار في المشي والكلام (وكان واضحًا أن "إيثيل" تنطق اسمها بلثغة)، وليسلِّيهم، كان غالبًا ما يخطُّ رسومات مضحكة عما يمر به من وقائع، كدُوار البحر الذي أصابه وهو يعبر القنال الإنجليزي، أو عن "رحلة بابا إلى آشور" على صهوة حصانٍ وهو يلوِّح بسيف، أو وهو يَتَقَلْقَل مثل طائرٍ على ظهر بعير.

---

(1) Ibid., 10 May 1874.
(2) Ibid., 6 May 1874.

[illegible] very cold weather. My kind regards to [illegible]
and I hope to [illegible] happy [illegible] a message with the
compliments of the season to Aunt and Uncle [illegible], Mr and
Mrs [illegible], all the [illegible] and all friends [illegible]
[illegible] messages to Miss Green as I suppose she must [illegible]
gone long ago, I hope she is as active as ever [illegible]
[illegible]. Tell Charly to work [illegible] like a man and
[illegible] the others especially Cissy and kiss them all [illegible] — My
love to Father and Mother I have had too much to do [illegible]
much but I shall soon see them all for a few days and
then I am off to the diggings, I have provided excellent [illegible]
companions and shall have no trouble this time
Your loving hubby George

Busses
For you xxxxxxx &c. &c. &c ——
Charly xxxxxx
Fred xxxxxxx
Cissy xxxxxxxxxx
Twopenny xxxxxx
Bertie xxxxxx
Ethel xxxxxx

Papa off to Assyria

الصفحة الأخيرة من إحدى رسائل جورج سمث إلى زوجته ماري كتبها سنة ١٨٧٥ من إسطنبول، يرسم سمث نفسه هنا يعدو على ظهر حصانه إلى آشور، شاهرًا سيفه، ويطارده اثنان من الكلاب التي كانت تتسكع في شوارع إسطنبول.

ورغم أن أسرته البعيدة لم تفارق خاطره طوال هذه الرحلة الثانية، فإنه عمل ما بوسعه ليغتنم هذه الفرصة ويعيش بمستوى أعلى من مستوى معيشته في بلاده، كان يتعشى مع السفراء في إسطنبول، والرحالة الأثرياء في حلب، وضباط الجيش في بغداد، بل إنه استطاع في رابيته خارج الموصل أن يجعل لنفسه موطنًا بعيدًا عن وطنه، لقد بنى بيتًا بالقرب من

موقع التنقيب، فأرسى أساساته بنفسه، وأشرف على بنائه، وكان عنده خادم إنجليزي ماهر في فن الطبخ، فكتب إلى ماري بُعَيْد وصوله، "تمنيتُ اليوم لو كنتِ معي، إننا نعيش عيشة باذخة، ويقول جوزف: إنه على يقين أن أمير ويلز لا يحظى بمثل هذه العيشة، فلدينا من لحم الغزال والبط واللسانات ما لذ وطاب، ولدينا كمياتٌ وفيرة من الحليب والقشطة والقهوة، لقد أوقفنا التنقيبات في الموقع إلى أن يتحسن الطقس، وليس لدينا ما نفعله سوى أن نُشبع شهواتنا، سأعود إليك أسمن من خنزير، بل أكثر وقاحةً"، ثم اختتم رسالته بقوله: "إني أسمع عشاءنا يُبَطْبِط[١]".

كانت الحيوانات الأليفة بالنسبة إليه بمثابة عائلة بديلة، "لدي الكثير من الحيوانات الأليفة: سلحفاة، وبعض الخفافيش، والسحالي، وأرنبٌ صغير جميل جدًا، وبما أنه صغير لا يستطيع أن يأكل، فنحن نُغذّيه بالحليب، ويتقافز هنا وهناك في الغرفة، ويختبئ في سرير جوزف أو في سريري، فيأتي جوزف ويُجرجره كأنه يجرجر طفلاً"، ثم اختتم سمث رسالته طالبًا من ماري أن "قبّلي جميع أحبائي الصغار الآخرين في الوطن، وقبلاتي العديدة لك أيضًا[٢]"، ورغم اشتياقه لأسرته، فإنه لم يكن بادي الشوق لبريطانيا، فكتب أنه ينوي أن يؤجل عودته لكي يتفادى الشتاء الإنجليزي القارس، وهذا ليس إعلانًا لبقًا يُقال لزوجة شابة تقبع مع أطفالها الستة في شهر شباط/ فبراير الإنجليزي القاسي، غير أن سمث لم يكن يخجل من استمتاعه بمحيطه، ولاسيما أنه راح يتنامى لديه تذوُّقٌ للمتع غير المألوفة للسلطة الاستعمارية، "فلولا غيابك عني" كتب لماري، "لشعرتُ كأنني في بريطانيا، وهذه البلاد تعجبني أكثر، حيث أستطيع أن أفعل فيها ما يحلو لي، ولدي سلطةٌ ونفوذ[٣]".

(1) Ibid., 11 January 1874.
(2) Ibid., 3 March 1874.
(3) Ibid., 1 February 1874.

بَيْدَ أن المسؤولين المحليين لم يَرُق لهم أن يفعل سمث ما يحلو له، كانوا على قناعة أنه قد هرَّب كنزًا قديمًا في رحلته الأولى، فعملوا على عرقلة عمله بسلسلة من الحواجز البيروقراطية، وفي النهاية، صادروا عدة مئات من الألواح، فاضطر سمث للعودة إلى بلاده بأقل بكثير مما وجد، في كتابه «نشأة علوم الآشوريات وتطورها» الصادر سنة ١٩٢٥ يميل قَيِّم المتحف البريطاني والِس بَدْج إلى إلقاء اللوم على سمث نفسه. يقول بدج: "لم يستوعب عقله الساذج فائدة البقشيش"، فالباشا كان بْحاجة إلى أن يسد النقص في دخله غير المنتظم بمثل هذه الرسوم غير الرسمية:

> لم يتلق راتبه لعدة أشهر وكان بحاجة إلى المال، كان يتوقع أن يشتري سمث الألواح التي صادرها منه، ولكن سمث لم يفعل، ولم يعد أحدٌ يعرف الآن مصيرها، إن فقدان هذه الألواح شيء مؤسف جدًا، وكان يمكن تجنبه بسهولة، لم يكن سمث ليصغي لنصيحة القنصل الفرنسي الذي توسل إليه لأن "يرتِّب" مع الباشا الذي لم يكن راغبًا بالألواح ولم تكن لديه وسيلة لإرسالها إلى إسطنبول، لكن سمث لم يفهم عقلية الأهالي أو عاداتهم(١).

قد يكون بدج محقًا إلى حدٍّ ما، لكن مَن يتحدث بهذه الثقة عن "عقلية الأهالي" قد يعوزه الفهم الكافي للأوضاع الكولونيالية المعقدة. في الحقيقة،

---

(1) E. A. Wallis Budge, *The Rise and Progress of Assyriology* (Martin Hopkins, 1925), 115.

دفع سمث البقشيش على مضض في بعض الأحيان، لكن يبدو أن الصراع قد خرج عن نطاق الرشوة العادية.

إن لبَّ الصراع يكمن في أن سمث كان يتوقع أن يأخذ إلى بلاده تقريبًا كل ما يجده، بينما كان الباشا يصر على أن يعطي سمث الحكومة نصف مُكتشفاته، وما فاقم الأمور هو ظهور هُرْمُزْد رَسّام في الموصل في هذه الأثناء لزيارة أسرته، ورَسّام هو أول من نقّب في هذا الموقع، وافق رَسّام على نُصح الباشا حول القسمة العادلة للُقى الأثرية، كانت العلاقة بينه وبين سمث فاترة منذ مدة؛ إذ يَعُدُّ رَسّام نفسه المنقِّب المتمرس بينما سمث مجرد هاوٍ للعمل الميداني. كان رَسّام قد خُذِل حين أرسل محرر الديلي تلغراف سمث للبحث عمّا تبقى من قصة الطوفان في حفريات رَسّام القديمة، بعد أن طرح الفكرة أولاً على رَسّام نفسه(١). كان سمث يستمتع بشهرته الصحفية المفاجئة كعالم آثار ومستكشف بارز، وكان يشعر بأنه يحق له أن يغتنم أي فرصة تأتيه لأبعد الحدود، وكما كتب سمث لزوجته في جملة مطوّلة غاضبة، "يُصر الباشا على تقاسم آثاري مناصفةً، وقد عيَّن عدويَّ اللدود هُرْمُزْد رَسّام وكيلاً عنه لتقاسم هذه الأشياء، وهو لا يحسب حسابًا إلا لمصلحته ويظن أن بضعة أيامٍ فقط تفصله عن تحقيق هدفه، ولكنني لم آتِ إلى هذه البلاد ليستغفلني هو أو رَسّام(٢)".

لا بد أن دور رَسّام في مساعدة الباشا على مصادرة ألواحه قد أسخط سمث على نحوٍ استثنائي؛ لأنه كان يجمع لوحاتٍ وكِسرًا غفل عنها رَسّام قبل عشرين سنة، وتقاسم اللقى قبل أن تُدرَس من شأنه أن يقوض الغرض الكلي لبعثته، ألا وهو تجميع الكِسر وترميمها والتعرف على السلاسل المتعددة

(1) Hormuzd Rassam, *Asshur and the Land of Nimrod*, 53.
(2) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 3 March 1874.

الألواح، وبينما كان الصراع يحتدم، تزايد غضب سمث على رَسّام، ومما زاد في الطين بلةً أن خادمه تورط في أمرٍ أسهم في توتيرِ الأمور:

> لقد سببَ لي إهمال جوزف ورطةً لا أستطيع أن أبوح لك بتفاصيلها الآن، ستُسوّى جميع الأمور قبل أن تتلقي هذه الرسالة؛ لأنه ما لم تؤازرني الحكومة البريطانية سأضحي بما جمعت وأغادر هذا المكان، إن تجاهلي من قبل الحكومة البريطانية كان فضيحة كبرى، ومعظم مصاعبي نشأت من عدم مؤازرتهم لي: لقد مات أرنبي الصغير، كان لدي من المشاغل ما ألهاني عنه(1).

ولما حُرِم من حيوانه الصغير المدلل، راح سمث يفكر في الاستقالة من منصبه في المتحف البريطاني، وهذه خطوة جبارة نظرًا لما مرَّ به. ليحرز موقعه، واختتم رسالته إلى زوجته بقوله: "صدقيني، إنني سأقف على قدميَّ كيفما ألقوا بي، وأنا عازمٌ على ألاّ أسبب القلق بعد اليوم لأناس لا يستحقونه".

¤ ¤ ¤

لا شك أن نفاد الصبر الذي تتسم به شخصية سمث وعناده قد زادا من مصاعبه، لكن كان واضحًا أن كلاً من رَسّام والمتحف البريطاني كانا

---

(1) Ibid., 17 March 1874.

يستخفّان به، وكان سمث يشعر بوخز هذا الاستخفاف، كما أن التوترات السياسية والثقافية كانت تتصاعد في طول العراق وعرضه في هذه الأثناء، لقد تم تعيين باشا جديد في بغداد، وعلى خلاف سلفه، أبدى هذا الباشا اهتمامًا شديدًا تشوبه الريبة فيما يقوم به سمث من عمل، والمفاجئ في الأمر بالنسبة إلى سمث أن هذه الريبة زادها اطلاع الباشا على الثقافة الفرنسية. "علمتُ أن رشيد باشا كان يفهم الفرنسية وله إلمامٌ بالحضارة الأوربية، لكن بدلاً من أن يتعلّم من الغرب سمعتُ أن سياسته في بغداد معادية لكل الأجانب"، وما شجع الباشا على تماديه في التعامل مع سمث هو أنه لم يكن في الواقع ممثلاً للحكومة البريطانية، بل "مجرد مراسل صحفي؛ لذلك يستطيع أن يفعل بي ما يحلو له[1]".

حاول سمث أن يصمد في موقفه، معتمدًا على حرفية القانون؛ إذ ما فتئ يشير إلى أن الفرمان الذي لديه من إسطنبول لا ينص على مقاسمة اللقى، كما أكد أن بغيته لم تكن المنحوتات بل الألواح الطينية التي لا قيمة لها عند الأتراك، وفي محاولة منه للتسوية، عرض أن يأخذ المسؤولين إلى حفرياته ويشير إلى أية منحوتات كبيرة قد يعثر عليها كي يستخرجوها حين انتهائه من عمله، "ضحك الأتراك من منطقي هذا، وقالوا: إنهم لا يفهمون في أمور الآثار، وإنني إن أشرت إلى أي شيء فلا بد أن أشير إلى أشياء لا قيمة لها، ولذلك يجب أن يأخذوا نصف ما أجمع كي يضمنوا الحصول على مكتشفات ذات قيمة". انتهى الاجتماع بعدم رضا الطرفين، "ومنذ ذلك الحين وأنا أتعرض لمضايقات لا تنتهي[2]".

---

(1) George Smith, *Assyrian Discoveries* (Scribner, Armstrong, 1875), 136-38.
(2) Ibid., 138.

حين كتب سمث لماري عن مصاعبه، استخدم لغة القتال المفتوح، "لقد خضت قتالاً شديدًا هنا؛ لأن والي البلاد والباشا قد أجمعا رأيهما على خصومتي لكن عزيمتي لن تخور.... لقد ارتكبا خطأ بمعارضتي وأنا أعلم أنني سأنتصر[1]"، لا يستخدم سمث مثل هذه اللغة الحربية فيما ينشر، إلا أنه في مقدمة كتابه «المُكتشَفات الآشورية» يشير إلى الرهانات السياسية الكبرى المتضمنة في عمله الأركيولوجي؛ حيث يربط مصاعبه الشخصية بتلك التي يواجهها المبشرون المسيحيون في المنطقة، "ليس لدي أدنى شك أن الأتراك في حُكمهم لآسيا لا يدركون مصالحهم الخاصة ولا سيما في قوانينهم الجائرة واضطهادهم للمسيحيين، إن البعثات التبشيرية الأمريكية في الشطر الآسيوي من تركيا تؤدي عملاً نبيلاً، إلا أن فائدة هذه البعثات تتناسب طردًا مع حجم الدعم الرسمي الذي تتلقاه من إنجلترا وأمريكا"، ويشير سمث بصراحة إلى أن الحضور البريطاني في العراق أقل من حضور منافسيهم الفرنسيين، ثم يضيف: "من المؤسف جدًا أنه لا يوجد ممثل بريطاني واحد في كل البلاد الواسعة الواقعة بين حلب وبغداد[2]".

¤ ¤ ¤

رغم أن سمث اضطر لترك عدد كبير من الألواح وراءه، فإنه عاد إلى بلاده في أوائل حزيران/ يونيو عام ١٨٧٤ ومعه مجموعة كبيرة منها، ثم راح يفك رموز قصة الطوفان كاملة والملحمة التي ظهرت فيها، ومع أن الطوفان يحتل لوحًا واحدًا فقط من ألواح الملحمة الاثني عشر، فإن سمث عنْوَن ترجمته «الرواية الكلدانية للطوفان»، وذلك ليستغل اهتمام الجمهور

(1) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 1 February 1874.
(2) Smith, *Assyrian Discoveries*, vii-viii.

بقصة نوح كما وردت بنسختها الأولى في الملحمة، عمل سمث بوتيرة عالية، فنشر ترجمته في نهاية ١٨٧٤، وفي السنة التالية نشر ما لا يقل عن أربعة كتب، بما في ذلك «المكتشفات الآشورية» البالغة ٤٥٠ صفحة، ومجموعة ضخمة تحتوي على ترجمة كل النصوص الأدبية الكبرى التي عثر عليها، وعندما عجز عن ربط كل هذه النصوص الأكثر تنوعًا بقصة الطوفان فقط، لجأ بكل بساطة إلى توسعة إطاره التوراتي، فعنون كتابه الجديد «رواية التكوين الكلدانية: وتشمل وصفًا للخلق، وسقوط الإنسان، والطوفان، وبرج بابل، وعصور الآباء، والنمرود، وحكايات بابلية وأساطير الأرباب، من النقوش المسمارية».

جاءت معالجة سمث لملحمة جلجامش في إطار اهتماماته السياسية، لم تكن قراءته للرواية الكلدانية للطوفان فقط من أجل تشابهاتها مع الكتاب المقدس، بل أيضًا في إطار المُثُل الأوربية للهوية القومية في القرن التاسع عشر، وبينما راح يُجمّع أجزاء الملحمة وصولاً إلى قصة الطوفان، بدأ سمث يبحث عن موضوعٍ جامعٍ لمغامرات جلجامش، لقد ظن سمث أن جلجامش هو نفسه النمرود الذي عرفه الأصحاح العاشر من سفر التكوين بأنه ابنُ حَفيد نوح، وتصفه التوراة بأنه صيّادٌ جبّار ومؤسس بابل ونينوى وإريك (الاسم التوراتي لمدينة جلجامش، أوروك)، ثم يجزم أن الملحمة كانت "قصيدة قومية بالنسبة إلى البابليين وتشبه في بعض وجوهها قصائد هوميروس بين الإغريق، لقد كان إزدوبار [جلجامش] يُعَدُّ في غالب الأحيان إلهًا، ولقد وجدتُ في نينوى كسرة لوحٍ تحمل دُعاءً موجَّهًا له(١)".

---

(1) George Smith, *The Chaldean Account of the Deluge, from Terra Cotta Tablets Found at Nineveh* (Sampson Low, 1874), 204.

لا خلاف على ذلك حتى الآن، ولكن عمَّ تدور هذه الملحمة القومية؟ لقد وجد أن لب الملحمة يكمن في رحلة جلجامش إلى غابة أرزٍ بعيدة في اللوح الخامس؛ حيث يهزم هو ورفيقه إنكيدو وحشًا يُدعى هُمبابا، بذل سمث أقصى ما يستطيع لجمع خيوط هذه الحكاية، ورأى أن هُمبابا ليس وحشًا بل ملكٌ غزا البلاد وأذلَّ شعبها، "يبدو أن إزدوبار لم يعتلِ العرش إلا بعد أن ذبح الطاغية هُمبابا، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج أن هُمبابا، أو على الأقل العرق الذي ينتمي إليه، هو الذي غزا إريك واستبد بأهلها وربما في كل بابل ... وأن موت الطاغية أذِن بإعلان التحرر البابلي وحكم إزدوبار(١)".

لقد أخطأ سمث في استنتاجه هذا تمامًا؛ إذ لم يكن هُمبابا غازيًا مستبدًا، بل عملاقٌ منعزل يعيش وحيدًا في غابة أرزه لا يضطهد أحدًا، ولا سيما رعايا جلجامش في أوروك البعيدة، وجلجامش هو حاكم على مدينته منذ البداية، وهزيمته لهُمبابا ليس لها أي أثر على مكانته السياسية، فهو يُنهي الملحمة كما بدأها، ليس بطلاً "قوميًا" بل حاكم دويلته المحلية، كما لم تكن هناك أية دولة بالمعنى الحديث للكلمة في كل بلاد الرافدين، بل تجمعات بشرية تصغر أو تكبر: إمبراطوريات، دويلات مُدن، قبائل بدوية.

ورغم أن تفسير سمث كان خاطئًا من أساسه، فإنه كان عملاً باهرًا من أعمال التحري، حيث استدل استدلالاً منطقيًا من قرائن خارجية لكي يفهم النص المتشظي الذي بين يديه، وكتاباته مليئة بالاكتشافات التي اجتازت اختبار الزمن، وغالبًا ما كانت هذه الاكتشافات تستلزم قفزاتٍ حدسية فوق

(1) George Smith, *The Chaldean Account of Genesis: Containing the Description of the Creation, the Fall of Man, the Deluge, the Tower of Babel, the Times of the Patriarchs, and Nimrod; Babylonian Fables, and Legends of the Gods; from the Cuneiform Inscriptions* (London: Sampson Low, 1875; New York: Scribner, 1876), 185, 216.

الظاهر الحرفي للنص، وما يجعل إنجازاته مثيرة للإعجاب بشكل أكثر هو أنه بنى بعض تفسيراته على تخمينات حول كلماتٍ لم يفك أحدٌ رموزها من قبل وترد في سطور غالبًا ما تكون مَخرومة، ففي «رواية التكوين الكلدانية»، يستهل سمث فصله المُعَنْوَن "هلاك الطاغية هُمبابا" باعتراف صريح، "لقد عانيتُ الأمرَّين في كتابة هذا الفصل، وفي الحقيقة لقد رتبتُ مادته ثلاث مرات وحال كسْر الألواح مزرية إلى درجةٍ تجعلني أشك أنني استطعت أن أرتبها بشكل صحيح[1]"، وفي هذا الفصل بعض النصوص المترابطة، ولكن نصوصًا أخرى كثيرة تبدو بهذا الشكل:

٧. هُمبابا ....

٨. لم يأتِ ....

٩. لَم ....

(سبعة أسطر مَخرومة)

١٧. ثقيل ....

١٨. فتح هيباني فمه ....

١٩. .... هُمبابا في ....

٢٠. .... واحدًا واحدًا ثم ....

(المزيد من الأسطر المخرومة)[2]

---

(1) Ibid., 207.
(2) Ibid., 215-16.

حيثما كانت الألواح في حالة معقولة من الصون، تمكن سمث من أن يخرج بترجماتٍ في غاية الدقة في غالب الأحيان، كان يبدأ بنسخ الأحرف التي تصعُب قراءتها، ثم يحدد المقطع الذي يمثله كل حرف، وبعد ذلك يترجم كلمة بكلمة، كما في الوصف التالي لرد فعل أُتنابشتيم عندما يتوقف المطر ويرى الخراب الذي سبَّبه الطوفان:

uk – tam – mi – is – ma – at – ta – Šab – a – bak – ki

crouching down I sat I wept

جاثيًا جلستُ بكيتُ

eli dür ap – pi – ia il – la – ka di – ma – a – a

on wall of my nose streaming tears

على جدار أنفي تجري دموع

وبعد ذلك أعاد سمث صياغة ترجمته الإنكليزية على النحو التالي:

I sat down and wept, over my face flowed my tears.

(جلستُ وبكيتُ، وعلى وجهي سالت دموعي) [١].



صورة التقطها جورج سمث للقطعة الكبرى من لوح قصة الطوفان، حوالي ١٨٧٣.

ومن أكثر سمات سمث إثارةً للإعجاب هو سعيُه الدائم لتطوير فهمه ولمراجعة نظرياته أو نبذها حيث تدعو الحاجة، وكما يقول في نهاية «رواية التكوين الكلدانية» بخصوص نظرياته عن الملحمة، "لقد غيرتُ آرائي مِرارًا،

(1) Smith, *Assyrian Discoveries*, 190.

وليس لدي شك أن ظهور أي مادة جديدة سيغير آرائي مرة أخرى بخصوص الأجزاء المتأثرة بذلك ... فمما لا شك فيه أنه في المسمارية غالبًا ما توجّب علينا أن نتوصل إلى الحقيقة من طريق الخطأ[1]"، إن ما قام به سمث من إعادة تركيب للنص كان عملاً عبقريًا ما كان لباحث آخر من جيله أن يأتي بمثله، ومع ذلك فإن غموض النص بحد ذاته ساعده في مطابقة النص مع التاريخ التوراتي والاهتمامات القومية المعاصرة، فجعل من جلجامش الملك الذي منح البابليين "تلك الوحدة القومية التي ما كانت تقوم لهم قائمة من دونها[2]".

¤ ¤ ¤

صار جورج سمث الآن في أوج مسيرته وفي قمة طاقاته، وكان يطمح لكتابة سلسلة طويلة من الكتب عن التاريخ والثقافية الآشورية والبابلية، علاوة على ذلك، كان قد غادر العراق وقد أقسم ألاّ يعود، وكان بإمكانه أن يقضي ثلاثين سنة من العمل في المتحف البريطاني على ألواحه البالغ عددها بالآلاف، من غير حاجة للمغامرة خارج البلاد مرة أخرى، إلا أن ما كان يؤرقه هو إحساسه بأن هناك فرصًا لاكتشافات أخرى لم تُغتنم بعد، استمر الاهتمام الشعبي بمكتشفاته بلا هوادة، وعندما قرر المتحف إرسال بعثة ثالثة في نهاية ١٨٧٥، وافق على أن يقوم برحلة أخيرة، وبما أنه كان مدمنًا على متع الاكتشافات الأثرية وملذات الحياة الكولونيالية، يصعب علينا أن نتخيل أن هذه ستكون رحلته الأخيرة. نعم، يصعب علينا أن نتخيل هذا لولا أن هذه الرحلة الثالثة قتلته.

(1) Ibid., 301.
(2) Ibid., 294.

وقد ظلت رواية والس بدج في كتابه «نشأة علوم الآشوريات وتطورها» الصادر سنة ١٩٢٥ هي أكمل ما وصلنا عن هذه البعثة القاتلة. يقول بدج: إن سمث ارتحل مع عالم آثار إسكندنافي يُدعى إنبيرغ، وكان قصوره يماثل قدرات سمث المحدودة:

> الحقيقة هي أنه لا يوجد رجلان دعاهما القَدَر إلى السفر في بلاد الرافدين لا يصلحان لعملهما أكثر من هذين؛ نظرًا لظروف الارتحال في تلك الأيام، كان كلاهما متحمسًا، سريع الاهتياج، ومتفائلاً، وكان كلاهما يغتاظ من مضايقات الأهالي اليومية التافهة كما كانا يتضايقان لعجزهما عن الحصول على الطعام والمنام الجيد، كان سمث يعرف قليلاً من العربية، أما العربية التي يعرفها إنبيرغ فهي لغة القرآن، وهذه لا تنفع من يريد شراء التمر والسكر والخبز أو في مساومة الأهالي الطمّاعين على أجرة الجمال والحمير(١).

تأخر سمث عدة أشهر لكي يحصل أولاً على فرمان يخوّله العمل، وثانيًا لكي يجد مَن يعمل بموجبه في الموصل، ومن الطريف أن مقالة تأبينية في صحيفة التايمز اللندنية توحي بأن كتب سمث ذاتها ربما أسهمت في مصاعبه، تقول المقالة: إن سمث "لم يكن ذا حُظوة لدى السلطات العثمانية؛ نظرًا لانتقاداته القاسية في كتبه لحكمهم غير الرشيد.... فعند كل منعطف كان تنصب له أتفه الشراك ويُشكّك في معنى الامتيازات الإمبراطورية إلى أن طفح الكيل وقرر العودة إلى بلاده(٢)"، ففي دفاتر مذكراته عن رحلته إلى

(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 117.
(2) *Times* (London), 5 September 1876, 4.

إسطنبول تنقل مُدوّناته المختزلة بما لا يدع مجالاً للبس إحباطَه جَرّاء أسابيع من المراوغات والتأخيرات غير المعلّلة، وهي تكتيكات صقلتها الحكومة العثمانية عبر القرون وجعلت منها فنًا دقيقًا، إن مدونة واحدة فقط تحكي مجلدات:

> الفرمان... اطلُب المساعدة، عِدْهم بالكتب – المترجم يغادر، تقدّم بطلب إلى السفارة – لا شيء يُنْجَز – وعود الأتراك – أبْرِق لبغداد والموصل، البرقية الثانية، طلبٌ جديد، وعد ببرقية أخرى... تأخيرات، اقترح قانون ١٨٧٦، القانون التركي، الرحلة الفرنسية – أنا أعترض، أرفض أن أوقّع – يُمنَح الفرمان، مناقشة الوعود الجديدة – عرضٌ بالتخلي عن المنحوتات – وعدٌ من كبير الوزراء – الألواح مجانية – المنحوتات خاضعة للتثمين – موافق ... المصاعب تتجدد(١).

أخيرًا، حصل سمث على الإذن بالذهاب للتنقيب، ولكن أسفاره شرقًا عبر سوريا والعراق أعاقتها الاضطرابات المدنية والأمراض المنتشرة، ومن الفواجع أن رفيقه إنبيرغ مات من الكوليرا وهما يتجهان إلى بغداد، وعندما وصل سمث إلى الموصل واجه المزيد من العوائق البيروقراطية، ولم يُسمَح له بالتنقيب إلا في تموز/ يوليو حين تكون الحرارة أشد من أن تسمح

(1) Smith field notebooks, British Library Add. Mss. 30, 425, 4-5.

للتنقيبات بالبدء. دفعه الإحباط للتخلي عن مهمته بعد أن جمع مقدار صندوق واحدٍ فقط من اللُقى؛ يقول بَدج:

> غادر الموصل في نهاية تموز/ يوليو ضَجِرًا خائب الأمل باتجاه حلب، ورغم تحذيرات نائب القنصل الفرنسي والأهالي من ذوي الخبرة بالأسفار، أصر على المسير نهارًا، وهذا ما لا يفعله أحدٌ من أبناء البلاد في الصيف، وقد حاول أن يعيش كأهل البلاد على أرغفة الخبز القاسية الحافية والتمر، وقد قيل لي في الموصل سنة ١٨٨٨ : إن زاده للرحلة كان قليلاً ولم يكن معه أية أدوية[١].

ظلت مقولة بَدج هي الرواية المتواترة المقبولة طيلة الثمانين عامًا الماضية، وغالبًا ما يُستَشهَد بها في معرضِ الأحاديث الموجزة عن سمث في بطون الكتب عن آثار الشرق الأوسط، وأقل ما يُقال عن هذه الرواية أنها ناقصة، ومنهج بدج الأساسي هو أن يضع اللوم على الضحية، وهذا ينسجم مع الصورة الكلية التي يرسمها للشاب الساذج سمث، يبدأ بدج هذه السلسلة بقوله: "لم يفهم سمث عقلية أهالي البلاد ولا عاداتهم، وعجزه عن ذلك كلّفه حياته في نهاية المطاف[٢]". لكن، هل هذه هي القصة الكاملة؟

(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 118.
(2) Ibid., 115.

من المعروف أن سمث مات فجأة من الزُّحار في إحدى القرى السورية وهو في طريق العودة إلى بلاده، ولكن يبقى السؤال: لماذا يصرع هذا الاضطراب المعوي رجلاً في أواسط الثلاثينيات من عمره وذا بُنية حديدية؟ ومن غير المحتمل أن يكون بَدج محقًا في تصوره أن أكل الخبز والتمر عجّل في موت سمث – وهل وفي الصحراء ما هو أفضل من مأكل البدو؟ ولكنْ هناك قدْرٌ من المعقولية في الرأي القائل: إن سمث أنهك نفسه بالسفر نهارًا، فالتجفاف، بل ضربة الشمس، لا بد أنهما كانا من العوامل المساعدة، والحقيقة أن سمث وجد أن الحرارة في هذه المنطقة في رحلته الثانية عبر سوريا كانت لا تُطاق. "هذه المنطقة مغلقة بسبب الجبال المحيطة بها إلى درجة أن الهواء يبدو راكدًا وضاغطًا على الأنفاس، وبدت الشمس في هذا اليوم كأنها تُصدِر حرارة شديدة تكاد لا تُطاق، وبدا الهواء مضيئًا ويطفو أمواجًا أمواجًا أمام ناظريك، وأي نسمة من الهواء تهب كأنها تأتي من موقد[1]".

المشكلة الوحيدة في نظرية بدج هي أنها خاطئة؛ إذ سافر سمث ليلاً في غالب الأحيان خلال أشهر الحَر، وفي واحد من بين عدة نصوص منشورة عن مباهج السفر ليلاً يقول: "الطريق هنا في هذا الوقت من السنة ممتاز، والسفر على ظهور الدواب ليلاً ممتع .... وخلال هذه الرحلات الليلية استمتعت بمناظر رائعة للسماوات؛ كانت الزُّهرة تشرق كل صباحٍ كأنها مصباح، وللنجوم جميعًا بريقٌ لا يعرفه سكان المناطق في شمالي أوربا[2]"، وفي آخر رسالة باقية كتبها لزوجته حين بدأ رحلة العودة القاتلة إلى موطنه يقول: "الطقس حارٌّ جدًا إلى درجة أننا لا نستطيع أن نخرج

(1) Smith, *Assyrian Discoveries*, 112.
(2) Ibid., 109.

نهارًا، وبما أننا مضطرون للسفر ليلاً، فإن مسيرنا بطيء وأنا أشعر في غاية الإرهاق[١]".

إذن، فما سبب موت سمث؟ لا شك أن أحد العوامل كان المرض ذاته الذي يستحق من الاهتمام أكثر مما أعطاه بدج. يُعْرَف الزُحار في أخبث أشكاله الجرثومية باسم الشيجلا، وهو مرض خطر جدًا، وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن أسبابه ولا طرق علاجه مفهومة فهمًا جيدًا[٢]، وكان أحد أبرز أسباب الموت في الحرب الأهلية الأمريكية، لكن كيف أُصيب سمث بالشيجلا؟ أغلب الظن أن إصابته لم تكن من مصدر شائع (الخضار المزروعة بالمزابل)؛ إذ عمل عين العقل واكتفى بالخبز والتمر، ويمكن أن يكون المصدر الآخر هو الماء الملوَّث بالغائط، وسمث يتحدث في مذكراته الميدانية عن حالة الماء غير النظيف الذي وجده في هذه الرحلة الأخيرة، "عبور النهر، بغالٌ وحمير إلى بغداد، روائح بالوعات نتنة، حيوانات نافقة، ماء أخضر وأحمر، حال المنطقة القذرة[٣]".

إن مسيرة سمث العلمية غير المتوقعة نشأت لكونه الشخص المناسب في الوقت المناسب والمكان المناسب؛ لكنه مات لأنه أُخذ على حين غِرَّة في المكان الخطأ والزمان الخطأ، وبعد عدة سنوات أدرك العلماء أن الكوليرا والزُحار تسببهما جراثيم يمكن قتلها بغلي الماء؛ فلو أن سمث كان يعرف ما أصبح احتياطًا أوليًا خلال فترة وجيزة، لربما عاد إلى بلاده وهو على قيد الحياة.

---

(1) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 16 July 1876.

(٢) أدين بهذه المعلومات لصديقي القديم الدكتور روبرت ت توكس، الذي يعمل حاليًا طبيب أمراض سارية في مراكز مكافحة الأمراض في ولاية أتلانتا، وقد وصفتُ له أعراض مرض سمث. [حاشية المؤلف].

(3) Smith field notebooks, BL 30,425, entry from April 1876.

وجاءت المشكلات التي كانت تغلي من حول سمث لتضاعف من مصاعبه: كانت هناك حربٌ قبلية تدور في الشمال، أعمال شغب في عدة مدن، والكوليرا التي قتلت إنبيرغ تجتاح وسط العراق، والطاعون في الجنوب، وما جعل سمث يسير في أواسط الصيف، على ما فيه من صعوبات، هو أن الحَجْر الصحي بسبب الطاعون منعه من اتخاذ المخرج الأبسط، وهو طريق دجلة النهري إلى بغداد ومن هناك يأخذ الباخرة عائدًا إلى بلاده، كان عليه أن ينتظر عدة أسابيع إلى حين انتهاء الحجر، وسيضطر إلى المبيت مع مسافرين من مناطق موبوءة، ارتأى سمث أن مساكن الحجر الصحي هي أفضل مكان لانتشار الطاعون، ولذلك قرر أن يجازف باتخاذ الطريق البري بدلاً من ذلك.

كان سمث يسمع بهذه المشكلات منذ وصوله إلى العراق في شهر آذار/ مارس، حين كتب لماري من مدينة حلب السورية حاول أن يُهوِّن من أمر الكوليرا والطاعون، مع أن كتابته تتصاعد نبرتها كعادته حين يتوتر:

> يجتاح الطاعون جزءًا من المنطقة التي يجب عليَّ أن أزورها، لكن لا داعي للقلق، فأنت لا تعلمين أن الطاعون كان في البلاد في زيارتي الأخيرة لها، مع أنه لم يكن يجتاحها بهذه السرعة، ومع أنه لا يوجد خطر حقيقي فإنني شديد الحرص، وقد أجَّلت رحلتي وتوقفت حاليًا في حلب إلى أن تتجلي الأمور، الناس هنا قلقون، وهو أمر طبيعي؛ لأنهم فقدوا السنة الماضية في هذه المدينة ٨٠٠٠ نسمة من أصل ١٠٠،٠٠٠ نتيجة الكوليرا التي اختفت الآن.

ويتضح أنه أدرك أن هذه المعلومات قد تثير الذعر لدى زوجته؛ لذلك أضاف، وقد ضرب بعلامات الترقيم عرض الحائط، "أُخبرك هذه الأشياء لأنك يجب أن تكوني مستودعًا سريًّا ويجب ألا أخبئ عنك شيئًا لكن إيّاك والقلق بلا داعٍ؛ إذ لا خطر علي إطلاقًا ولكن ستسبب لي هذه الأسباب مصاعب جمّة بل قد تؤجّل رحلتي[1]".

لا شك أن هذه المصاعب من شأنها أن تجعل أي شخص "يغتاظ" على حد تعبير بدج، لكن رسائل سمث تُظهر أن معنوياته أُصيبت بنكسة أخرى بسبب موت طفل رضيع مؤخرًا، لقد كتب سمث من إسطنبول بعد وصوله هناك في بداية بعثته، ويتحدث عن ترتيب أمر شاهدة للقبر، وحين تطفو الذكريات، يغير الموضوع فجأةً إلى شراء الملابس، "سأنظر في ترتيب شاهدةٍ لقبر أرنبنا المدلل، إني لا أنساه أبدًا، فأنا أرى مهده الصغير مركونًا في غرفتي تمامًا كما كان في الأيام المرة حين كان يرقد ميتًا، إنني غالبًا ما أحلم به ولكنني لا أحب أن أكتب عن هذا إن أردتِ أن تحصلي لي على بدلتي، فسأدفع لك ثمنها بموجب شيك[2]".

نظرًا لحالته العقلية الهشة، ربما لم يُقدّر سمث الأمور تقديرًا صائبًا في تلهّفه للعودة إلى وطنه، ولكن هناك عوامل أخرى مؤثرة، ويمكن رؤية هذه في الشهادة العينية التي تركها طبيب أسنان إنجليزي يُدعى جون پارسنز وكان في حلب حين مرض سمث وهو يعبر سوريا في طريق عودته إلى بلاده في شهر آب/ أغسطس، كان لدى سمث مساعد يُدعى پيتر ماثيوسن، ولما راحت حال سمث تتدهور، صار شيئًا فشيئًا عاجزًا عن ركوب حصانه،

(1) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 20 March 1876.
(2) Ibid., 16 December 1875

فتوقفا في قرية اسمها إكِسْجي وتبعد عن حلب مسافة أربعين ميلاً[(١)]، تابع ماثيوسن مسيره إلى حلب وهناك قابل طبيب الأسنان بارسِنْز، وهو أقرب شيءٍ لطبيب ناطقٍ بالإنجليزية يمكن أن يجده، ذهب بارسِنْز إلى إكِسْجي مع ماثيوسِن وقدَّم له القليل الذي يستطيعه، ثم ساعد في نقله في مِحَفَّة على شكل كرسي يجرها بغل تسمحُ عادةً للنساء بالسفر بحرية وهن محجوبات عن أعين الناس، أوصلا سمث إلى حلب حيث مات بُعَيْد وصوله إلى المدينة، كان بارسِنْز يقوم بجولة مُطوّلة في الشرق الأوسط، وقد ترك مخطوطةً بحجم كتاب عن تجاربه بعنوان «أسفارٌ في بلاد فارس وتركيا في آسيا»، لم تُنشر هذه المخطوطة قط، ولكنها تستقر الآن في قسم المخطوطات في المكتبة البريطانية، وتضم عشر صفحات تصف أيام سمث الأخيرة.

كان بالإمكان أن تُدفَن مخطوطة بارسِنْز في قسم المحفوظات وتظل مجهولة للأبد لكل من يهمه أمر جورج سمث، إلا أن جهود عددٍ من موظفي المكتبة في القرن العشرين أنقذتها من هذا المصير، ففي حزيران/ يونيو من سنة ١٩١٨ أي بعد بضع سنين من إهداء المخطوطة للمكتبة، تصفح أحد المُفَهْرسين ويُدعى "جي. جاي. إي" (G. J. E.) صفحات المخطوطة البالغة ٤٦٤ صفحة، ولاحظ الصفحات العشر التي تحكي قصة موت سمث، فوضع لها إحالة في فهرس المكتبة، وبعد خمسة وسبعين عامًا، أصلح مُرَمِّمٌ بضع صفحاتٍ بأن كساها بطبقة من الصفيح اللامع "والميلار المغطى بالتكسيكريل"، وقد حرص على تدوين هذه المواد لفائدة أي مرمم في

---

(١) يبدو أن هذه القرية، التي تذكر مصادر أخرى أنها تبعد ستين ميلاً إلى الشمال الشرقي من حلب، لم تعد موجودة على خارطة سوريا بهذا المسمى، فالتسمية تبدو تركية، وقد دأبت الحكومات السورية منذ الاستقلال عن الحكم العثماني على تغيير المسميات التركية للقرى والبلدات وإحلال تسميات عربية محلها. [حاشية المترجم].

المستقبل، ثم قام مُفهْرِسٌ مؤخرًا بنقل إحالة جي. جاي. إي إلى قاعدة البيانات الإلكترونية في المكتبة؛ ليسهل على الباحث المعاصر معرفة وجودها، هذه هي العناية التي أولتها أجيالٌ من موظفي المكتبة البريطانية لعشرات الآلاف من الوثائق التي في عُهدتهم، تحمل مخطوطة پارسِنْز الرقم ٣٩،٣٠٠ في قسم "المخطوطات الإضافية" في المكتبة، لم يدُر بخلد أيٌ من مُفهرسي المكتبة ومرمميها أنه سيأتي يومٌ يستفيد فيه باحثٌ من عنايتهم بمخطوطة غير منشورة عن أسفار طبيب أسنان مغمور، وأغلب الظن أنه لم يستفد منها أحدٌ من قبل، ولكن بفضل عملهم فُتِحت نافذة على أيام سمث الأخيرة.

لم يكن پارسِنْز مختصًا بالأمراض المُعْدية، لكنه ظن أن سمث يمكنه أن يتماثل للشفاء من خلال الطعام والعناية المناسبين؛ يقول في مخطوطته: إن سمث كان منهمكًا في مهمته إلى درجة أنه أهمل نفسه، غير أن توكيد پارسِنْز يكمن في مكان آخر. تفسيره للأمر؟ "ضع اللوم على البلغاري". عندما أخذه ماثيوسن إلى إكسْجي، أُصيب پارسِنْز بالصدمة حين وجد سمث محمومًا على أرض كوخٍ وليس لديه أي فراش سوى بطانية، وبلا طعام، ولديه "موقدٌ قصديري صغير لغلي القليل من الماء وحوالي حفنةٍ من الشاي[1]" لم يكن پارسِنْز يصدق أن أي إنجليزي حقيقي يترك رفيقه في مثل هذه الظروف، كما أُصيب بالصدمة حين علم أن ماثيوسن أخذ معه إلى حلب من التموينات والأغطية أكثر مما ترك لسمث، غير أن اللغز حُلَّ حين قال له سمث وهو يحتضر: "إن السيد ماثيوسن لم يكن إنجليزيًّا بل بلغاري[2]"، ثم

(1) John Parsons, *Travels in Persia and Turkey in Asia*, BL 39,300, 345.
(2) Ibid., 348.

يختتم پارسِنز حكاية موت سمث بعبارة رزينة، "إني أحسب أنه راح ضحية إهمال مساعده البلغاري[1]".

يصعب علينا أن نتكهن في أمر هذه النظرية، إلا أن اسم "پيتر ماثيوسن" ليس اسمًا سلافيًّا، ورسائل سمث ودفاتر مذكراته لا تذكر شيئًا عن جنسيته، لقد ظن پارسِنز أن ماثيوسن إنجليزي حتى لحظة البوح تلك من قِبَل سمث، أو على الأقل حتى سمع من الرجل المحتضر ما يمكن تفسيره بطريقة تُدغدغ كبرياءه القومية المجروحة، (هل من الممكن أن يكون سمث قد وصف ماثيوسن بأنه vulgar أو vulgarian [سوقي] بدلاً من Bulgarian [بلغاري]؟) أيًّا كان أصل ماثيوسن القومي، يبين لنا پارسِنز أن جزءًا من معاناة سمث كان بسبب إهمال رفيق سفره، ولعل ماثيوسن ندم على تركه سمث بلا مؤن تكفي، إذ يذكر پارسِنز أنهما وهما يستعدان للانطلاق نحو إكِسْجي "وضع الطباخ في يدي قطعتين أو ثلاثًا من لحم الضأن، ولم يكن السيد ماثيوسن يرغب في أكلها، قائلاً: إن سمث قد يريد قليلاً من اللحم[2]".

ربما ندم ماثيوسن، ولكن پارسِنز كان حريصًا على إبعاد اللوم عن عاتق الإنجليز، وسيكون هذا أيضًا دأب والِس بدج في كتابه «نشأة علوم الآشوريات وتطورها»، إلا أن متهمًا إنجليزيًّا لا غبار عليه يخرج علينا من بين محفوظات المتحف: إنه المتحف البريطاني ذاته؛ إذ يبدو أن سمث قد قرر أن يحد من خسائره ويعود إلى بلاده حين راحت التأخيرات والمصاعب تتصاعد، لقد ذهب بريق المغامرة الإمبريالية، كما قال في إحدى رسائله إلى ماري:

(1) Ibid., 350.
(2) Ibid., 343.

لستُ أستمتع بإقامتي هنا، ومع أني أعيش بشكل لائق إلا أنني نحيف، وغالبًا ما يخطر ببالي أنني أُفضّل لحم الضأن البارد في بلادي على أن أكون هنا، والحقيقة هي أن العزوبة لا تناسبني، وقد مضى على زواجي وقت طويل، وكان الأمر مقبولاً خلال البعثة الأولى، ولكن خبز الزنجبيل فقد بريقه، ولو لم أقطع على نفسي عهدًا، لما أتيتُ الآن. ... قبّلي أحباءنا الصغار وأخبريهم أن بابا سيعود قريبًا، ولينتظروا توقف عربتي عند الباب ذات يومٍ قريب، إن نجحت هذا العام، فسأعود إلى الوطن في تموز/ يوليو، وأترك التنقيبات في عهدة مساعدي، وهو رفيق مناسب وجيدٌ جدًا[1].

ثم كتب سمث للمتحف يعلمهم بنيته؛ لكن رسالته هذه لم يبقَ لها أثر، أما ردُّ المتحف فهو موجود، كتب سكرتير المتحف مكالستَر جونز بلهجةِ مَن يُوبّخ خادمًا كسولاً، معربًا عن دهشته أن سمث يفكر في ترك موقعه قبل الأوان، "هذا أمرٌ مرفوضٌ تمامًا من قِبَل الأُمناء؛ إذ ليس مَنصوصًا أن جهود السيد ماثيوسن تكافئ جهودكم، وإذا لم تكن جهودكما متكافئة فمن الواضح وجوب ألاّ تُترك أعمال التنقيب تحت إشرافه إلا في حالات الضرورة القصوى، وسيكون الأمناء سعداء أن يتلقوا منكم شرحًا لهذا الأمر".

ومع أن جونز حاول أن يختتم رسالته بنبرة أكثر تعاطفًا، فإن نغمة التوبيخ تتسلل إليها:

(1) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 5 March 1876.

يؤسفني أن أعلم من رسالتك الأخيرة أن الطاعون يتزايد إلى حد كبير، وهذا يتطلب منك أن تأخذ كل حيطة[١].

المخلص لك بصدق
إس مكالستر جونز

جونز، الذي صارت اللهجة اللاذعة سمة في رسائله، يأمر سمث أن يأخذ كل حيطة إلا حيطة مغادرة المكان الموبوء فورًا، وفي حزيران/ يونيو كتب سمث لماري من بغداد حيث كان يحاول بلا جدوى أن يتفادى الحجر الصحي، ويحجز في رحلة بالباخرة إلى بريطانيا، فأضاف ملاحظة تحذيرية: "لا تذكري شيئًا لجماعة المتحف عن الهدايا التي أعطيتك إياها فهم شديدو الانتقاد وأفظاظ في رسائلهم لي[٢]"، ربما كانت هذه الهدايا عبارة عن أختام أسطوانية أو تذكارات صغيرة من موقع حفرياته.

لا شك أن كثيرًا من الإنجليز في العصر الفكتوري كانوا يتسمون بشيء من التبجح الإمبريالي، فيجازفون بحياتهم تبعًا لذلك، حتى ولو كان من أجل أغراضٍ لا تستدعي ذلك، مع ذلك يصعب أن نتخيل أن مكالستر جونز يجرؤ على استخدام هذه النبرة في رسائله إلى السير هنري كرزْوِك رولنسون أو السير أوستن هنري لايَرْد. تُرى، كيف كان يمكن أن يكون جوابه على أيٍّ منهما؟ "عُد إلى وطنك فورًا، سيدي العزيز، بأية وسيلة! لا تفكر في البقاء حتى تموز/ يوليو- لا يستطيع الأمناء أن يسمحوا لك بالمجازفة بحياتك من أجل عدة ألواحٍ لدينا منها الكثير. ... لا تتردد في

(1) British Museum, "Smith Personalia," S. McAllister Jones to George Smith, 10 April 1876.
(2) British Museum, "Smith Personalia," George Smith to Mary Smith, 14 June 1876.

استخدام كل البلغار الذين تحتاجهم للمحافظة على المواقع في أثناء غيابك"، أو شيء من هذا القبيل، على الأرجح، يناسب سيدًا محترمًا له لقب واسمٌ مشتق من سلالتين مرموقتين أو ثلاث، أما جورج سمث الذي تلقى توبيخًا شديد اللهجة من أجل رغبته في العودة باكرًا إلى بلاده، فقد ظل في العراق طويلاً بلا طائل فمات.

في كتابه «نشأة علوم الآشوريات وتطورها» اختتم والس بدج روايته عن مسيرة سمث بقوله: إن موت سمث لم يترك فراغًا كبيرًا، وفي ذات الفقرة يلتفت للإشادة بترقية السير هنري رولنسون في المتحف في تلك السنة:

> مات ... سمث في التاسع عشر من آب؟ أغسطس ودُفن في مقبرة شركة شرق المتوسط، وبفضل العمل الهائل المفيد للطلاب الذي قام به سمث، فإن موته المبكر في السادسة والثلاثين لم يُبطئ تطور علوم الآشوريات؛ وذلك لأن عددًا من الشبان في إنجلترا كانوا قد بدؤوا العمل في الموضوع؛ ولحسن الحظ تمكن رولنسن من متابعة مشروعه العظيم في نشر مواد جديدة للدراسة، وربما لا ضيرَ في أن نذكر على الهامش أن رولنسون انتخِب لمجلس أمناء المتحف البريطاني في ١٨٧٦، وهكذا صار الرئيس والمدير الرسمي للدراسات الآشورية في إنجلترا، إضافةً إلى كونه "والد علوم الآشوريات[١]".

(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 119.

لكنَّ آخرين غير مكالستر جونز أو والس بدج شعروا بالحزن العميق لفقد سمث، ففي تأبينِ حزين كتبه صديقه وزميله سايس في مجلة **Nature** العلمية، قال: "إن العلماء يمكن تربيتهم وتدريبهم، ولكن قلّما نتوقع أن يجود علينا كلُّ قرن بأكثر من عبقري مُلهَم يستطيع أن يتكهن بمعنى لغة منسية"، وبعد أن أشاد بسمث ووصفه بأنه "فاتح مغاليق الفكر" راح سايس ليستذكر مناقبه الشخصية أيضًا: حماسته المتوقدة، "لطفه المتفضّل"، وتواضعه. ثم اختتم قائلاً، "إن خسارته لا تُعوَّض[1]".

أما صديقه فريدرك دلِتش، وهو باحث ألماني شاب، فقد أحس بوقع الخسارة عليه شخصيًّا، ففي ذات الساعة (كما علم لاحقًا) التي مات فيها سمث في حلب، كان دلِتش في لندن في طريقه لزيارة صديق مشترك يُدعى ولِيَم سينت تشاد بوسكاوِن، ولدى مروره بشارع سمث، سمع صوت شبحٍ يناديه باسمه، وقد تأمّلت صحيفة التايمز اللندنية في أمر هذه المصادفة بما يكفي لنشر تقرير عن هذا التخاطر عبر المتوسط - أو من وراء القبر:

> لدى المرور بنهاية طريق كروغزلاند، الذي يقطن فيه السيد جورج سمث، وعلى مرمى حجرٍ من المنزل، يقول صديقه ومترجمه الألماني: إنه فجأةً سمع صرخةً حادةً للغاية جعلته يرتعد حتى العظم وهي تناديه، "السيد الدكتور دلِتش"، وما إن تجاوز الصدمة حتى نظر في ساعته، فإذا بالوقت بين السابعة والسابعة إلا ربعًا مساءً، والسيد پارسِنز يحدد ساعة وفاة السيد سمث بالسادسة مساءً، خجل الدكتور دلِتش، الذي يُنكر أي ميل لتصديق

---

(1) A. H. Sayce, "George Smith," *Nature* 14 (1876), 421-22.

الخرافات - أن يذكر تلك الحادثة للسيد بوسكاوِن عندما وصل بيته، مع أنه يعترف أنه في طريق عودته إلى بيته وجد توجُّسه العصبي من حصول مكروه في عائلته متنفسًا له في الدموع، وأنه سجل كل هذه الوقائع في دفتر مذكراته في تلك الليلة(١).

ورغم تحرره من "الميل لتصديق الخرافات"، لم يملك دِلِتش إلا أن يحكي هذه القصة، ولم تستطع صحيفة التايمز الرزينة مقاومة نشرها: كان سمث في مماته كما في حياته مادة صحفية دسمة. بالمقابل، خدمته الصحف التي جعلته مشهورًا خدمة رائعة في مماته، وذلك بأن حفظت ذِكْره في أعين الجماهير والتركيز على الظروف الرهيبة التي تمر بها أرملته وأطفاله الستة إلى أن قدمت لها الحكومة أخيرًا راتبًا تقاعديًّا وقدره ١٥٠ جنيهًا - إنه مبلغ متواضع ولكنه يكفي لعيشة الكفاف.

لا يزال ملف المتحف المُعَنْوَن "متعلقات سمث الشخصية" يضم بطاقة الملاحظات ذات الحافة السوداء التي كتب عليها رئيس الوزراء بنجامين دزرائيلي شخصيًّا لماري سمث، والتي تحمل توقيعًا بلقبه الجديد، اللورد بيكِنزفيلد، الذي أسبغته عليه الملكة فكتوريا مؤخرًا في الشهر الذي مات فيه سمث:

سيدتي،
إن الملكة، إذ تتعاطف معك في مصيبتك وفي خسارة شخصٍ أسهمت جهوده الممتعة المخلصة في إلقاء ضوء

(1) *Times*, 11 September 1876.

جديد على التاريخ القديم، يسرُّها أن تمنحك راتبًا سنويًا قدره مئة وخمسون جنيهًا.

وقد وجِّهت بضرورة تنفيذ المقاصد الكريمة لصاحبة الجلالة فورًا.

ويشرفني،

سيدتي،

أن أكون خادمَك المخلص،

بيكنزفيلد(١)

¤ ¤ ¤

خلال العقد القصير بعد "دخوله الحياة الرسمية" سنة ١٨٦٧، كتب سمث ثمانية كتب مهمة شملت دراسات لغوية، وأعمالاً تاريخية رائدة، وترجماتٍ لأهم النصوص الأدبية في بلاد الرافدين، وكل الأبحاث الحديثة عن الأدبِ البابلي ناشئة من عمله الرائد، وساعة موته كان يعلم أن إنجازاته ستعيش بعده في كتبه وفي أعمال الذين سيتقتفون أثره.

وتتضح هذه الاعتبارات بشكل بارز في آخر ما قيَّده في مُدوَّنته الميدانية الأخيرة، وهذه المدونة عبارة عن دفتر أسود صغير عرضه ثلاث بوصات ونصف وطوله ست بوصات، ومُجلد من العرض، يحمل الغلاف الداخلي عبارة متباهية تقول: "دفاتر هنري يني المعدنية المطورة المسجلة".

(1) British Museum, "Smith Personalia," letter from Benjamin Disraeli to Mary Clifton Smith, 20 October 1876.

كما تقول العبارة: إن دفاتر هنري بِني تستخدم "أفضل ورق مُصنَّع" وتؤكد لنا أن هذه الدفاتر "تصلح للرحّالة ولكل الراغبين في حفظ كتاباتهم".

وهذا الدفتر يحفظ كتابات سمث حقًا، وخطه الجميل الواضح لا يترنح إلاّ أحيانًا في آخر مدوناته، وبما أن هذه المدونات لم تُنشر من قبل، فإني أُورِدُها كاملة هنا، في هذه المدونات يتأرجح عقله بين أسرته وواجبه والتاريخ الآشوري، وتمثالين صغيرين من البرونز خبّأهما في جزمته الطويلة، يعرب سمث، ونذر الموت تلوح أمام ناظريه، عن آماله بمستقبل العمل الذي نذر له حياته:

ليلة ٩-١٠من بيرادجيك إلى إكِسجه، مريض طوال الوقت

١٠ أرسل ماثيوسن من أجل المحفَّة

١١ ارتحت بشكل أفضل، قررت التحسن

١٢ لستُ على ما يُرام، خفَّ الإسهال، لو حضر الطبيب لَتَعافيت، لكنه لم يصل بعد، حالة مريبة جدًّا، إن كانت قاتلة فوداعًا إلى عزيزتي ماري وكل صغاري، كان عملي كله من أجل العلم الذي أدرسه، آمل من الأصدقاء أن يحموا أسرتي، تضم مقتنياتي بعض العينات المهمة بما في ذلك تمثالا البرونز الصغيرين السابقين المعروفَيْن في آسيا قبل عهد الساميين، إنهما في جزمتي الطويلة، كما يضم صندوقي حوالي خمسة وثلاثين لوحًا وكسرة، منها حوالي العشرين ذات قيمة، وبعضها فريد مثل لوح لابير باري كوردو ليبرسوركس البيروسي، هناك حقل واسع للدارسين

في مجموعتي، كنت أنوي أن أقوم بذلك شخصيًّا، لكنني الآن أتمنى أن تفتح كل آثاري ودفاتري لجميع الطلاب، لقد قمت بواجبي على أكمل وجه، إني مدينٌ لماثيوسن بمبلغ ٣٨ جنيهًا وبمبلغ ٢٠ جنيهًا كنت أنوي إعطاءه إياها على سبيل الهدية حتى غاية شهر آب/ أغسطس؛ أي إنني مدين له بمبلغ ٥٨ جنيهًا (راتب + هدية).

لا أخشى التغيير ولكني أتمنى أن أعيش من أجل عائلتي، ومن يدري، لعلّ الأمور تنجلي على ما يُرام.

فُلباليدين، من أوائل ملوك بابل، أشرك شخصًا (ربما ابنه) في الجلوس على العرش، لكن لا سبيل للتأكد من هذا الأمر؛ لأني بعيد عن المتحف، الناس هنا لُطَفاء على طريقتهم، ولكنهم يُحدثون ضجة كبيرة؛ لذلك لا أستطيع أن أرتاح.

أحاول أن أرفع من معنوياتي وأشعر بتحسن قليلاً، قليلاً أكثر، ربما أحاول أن أنام في الخارج، ريح قوية، بردٌ قارس، أدخل، أنام.

١٣ حالي تتحسن، بحاجة إلى الراحة والغذاء الجيد، جيراني في إكسجَه ذكورًا وإناثًا، الرجال ليس لديهم ما يفعلونه إلا التدخين، والنساء عمومًا يغزلن، يطبخن، وينشتلن الماء من بئر وذلك بربط حبل حول خصورهن، ضابط التجنيد يجمع ميرة الذرة، خصومات لا تنتهي، لا تروق لي.

١٣ آب/ أغسطس، عاد ماثيوسن والسيد پارسنز، طبيب أسنان في حلب، التحسن الأكيد قنينة بيرة، شهيتي تعود - وهنّ في المساء - المحفة.

١٤ كاركوس سيئ.

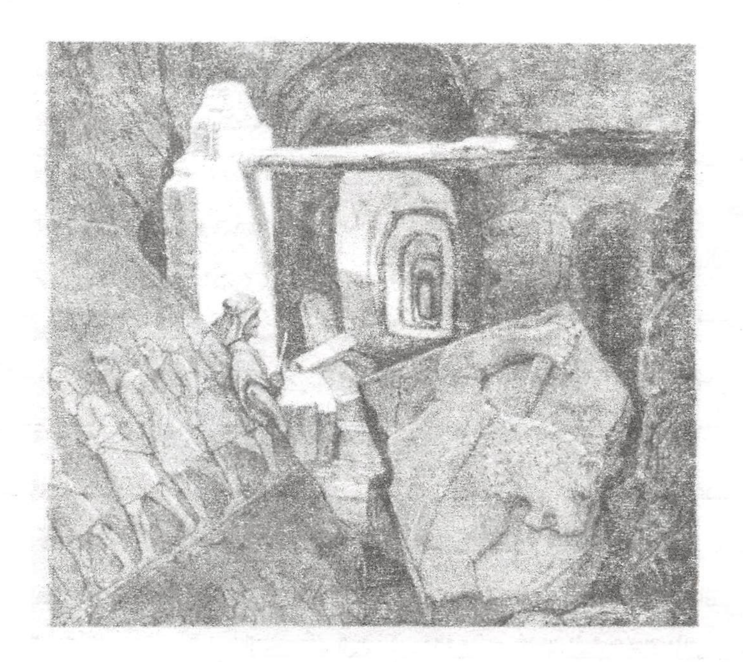
١٥ كاركوس أفضل قليلاً.

ليل ١.٥-١٦ إلى شيبوم بك[١]

وهكذا ظل سمث حتى النهاية يراقب ما يستطيع، بل يصحح انطباعه الأول أن جامع الضرائب كان ضابط تجنيد، عندئذ تتداعى المدونات في العبارات الأخيرة غير المتماسكة، على نحوٍ يناسب مُرَمِّم الألواح العظيم، وكانت هذه آخر ما كتبه سمث من كلمات، وبعد ثلاثة أيام مات في حلب، وهو مَنْ كان قبل أربع سنوات فقط أول من استطاع أن يقرأ «ملحمة جلجامش» بعد ألفي سنة من النسيان.

(1) BL 30,425. 28-29.

المكتبة المفقودة



نَفَق تنقيب

قام سمث باكتشاف مذهل حين عثر على الجزء المفقود من قصة الطوفان في نينوى، إلا أنَّ عملية البحث ذاتها كانت مباشرة بما فيه الكفاية؛ إذ كل ما فعله هو تمشيط الركام في الحفريات التي حفرها هُرْمُزْد رَسّام قبل عشرين سنة. كان رَسّام قد اكتشف قصر آشوربانيبال ومكتبته العظيمة سنة ١٨٥٣، والفضل في ذلك كان لِما اجتمع له من حدسٍ ودهاءٍ وعنادٍ وتوفيقٍ

وعملٍ متواصلٍ لعدة ليالٍ صافية مُقمرة سمحت له أن يُجري عمليات سَبْرٍ جريئة في منتصف الليالي في الموقع الحاسم.

كان رَسّام يعمل سرًّا؛ لأنه لم يكن في الواقع مخولاً بالتنقيب في الموقع، كان القنصل الفرنسي فكتور پلاس قد باشر تنقيباته سنة ١٨٥١ لصالح متحف اللوفر، وكان پلاس قد عقد اتفاق شرف مع هنري رولنسون، الذي كان حينها القنصل البريطاني في بغداد، يقضي بتقسيم التلال خارج الموصل إلى مناطق تَبَعِية بريطانية وفرنسية، وهذا الاتفاق هو صورة مصغرة عن "مناطق النفوذ" السياسي التي ابتكرتها القوى الإمبريالية لكي تساعدها على تقسيم العالم وغزوه من دون التورط في معارك غير ضرورية على مناطقٍ بعينها، إلا أن هذا الاتفاق لم يَرُق لرَسّام؛ لأن من بين مناطق پلاس تلٌ كبير يُدعى قُيونجيك على الضفة الأخرى لدجلة قبالة الموصل.

كانت قُيونجيك جزءًا من مركز نينوى القديم، وعلى مدى عدة آلاف من السنين تنامى حجم التل بسبب اهتراء المباني الطينية وتسويتها مع الأرض ثم قيام مبانٍ جديدة فوق ركامها المُتَراص، وفي القرون التي تلت هَجر المدينة، قسَّمت عوامل الحَت والتعرية القشرة الاصطناعية للمدينة إلى عدة تلال مختلفة هي عبارة عن مرتفعاتٍ جرداء يصل ارتفاعها إلى تسعين قدمًا عن سطح الصحراء المحيطة، كانت قبائل العرب الرُحّل تنصب خيامها أسفل هذه التلال، بينما أغنامها وماعزها تتسلقها بحثًا عن الكَلأ في الربيع، كان تل قيونجيك أكبر هذه التلال، وهو عبارة عن كتلة شبه بَيْضوية يبلغ طولها ميلاً وأعرض نقطة فيه تبلغ ثلث ميل، كانت هناك مجموعة من الأكواخ عند أحد طرفي التل، كما كان يستخدم أحيانًا مقبرة، وظلت آثار قيونجيك طي النسيان على عمق عدة أقدام تحت سطح الأرض.

كان رَسّام يعد قيونجيك بمثابة أرضه الخاصة، فهو من أهالي الموصل وقد وظّفه رائد منقّبي نينوى، أوستن هنري لايَرْد، بوظيفة صرّاف رواتب خلال تنقيبات ١٨٤٥-٤٧ و١٨٤٩-٥١، ومن بين أهم مكتشفات لايَرْد كان قصر الملك الآشوري سنحاريب الواقع في الركن الجنوبي الغربي من تل قيونجيك، قام لايَرْد ببضعة تنقيبات أخرى في الجوار، لكن رَسّام كان دائمًا يشعر أن الطرف الشمالي للتل يستحق اهتمامًا أكبر، طلب أمناء المتحف البريطاني من لايَرْد أن يذهب مرة ثالثة سنة ١٨٥٢، لكن لايَرْد انخرط في السياسة البريطانية وأراد أن يصبح عضوًا في البرلمان؛ لذلك أقنع الأمناء أن يرسلوا رَسّام بدلاً منه، وعندما قام المتحف البريطاني بإرسال رَسّام في أواخر ١٨٥٢ أُصيب بإحباط شديد حين علم أن فكتور پلاس قد حاز حقوق التنقيب في قيونجيك.

في السنة التالية راح رَسّام ينافس پلاس على حق التنقيب في مواقع جديدة، وكان غالبًا ما يتغلب على منافسه الفرنسي بفضل اتصالاته مع الأهالي؛ فقد أحرز ملكية أحد المواقع بإهدائه نصف رطل من القهوة، جاءت في الوقت المناسب، لأحد الشيوخ المحليين، نقّب رَسّام في عدة أماكن ولاقى شيئًا من النجاح، لكن اللُّقى التي عثر عليها لم تكن ذات قيمة كبرى، وما أزعجه بشكل خاص هو أن قيونجيك كانت مُحرَّمة؛ حيث كان پلاس يركز جهوده في مكان آخر ولم تكن هناك تنقيباتٌ في التل الذي يشتهيه رَسّام. وأخيرًا، حين بدأ الوقت والمال المخصصين لبعثته ينفدان، لم يعد رَسّام يطيق صبرًا، فقرر أن يتخذ إجراءات مباشرة. وكما يصف ورطته في كتابه «آشور وأرض النمرود»، "كانت الصعوبة بالنسبة إليَّ هي كيف أقوم بهذا من غير أن أصطدم مع السيد پلاس، وخشيت إن فعلتُ وفشلتُ أن أزعج العقيد رولنسون، وأقع في ورطة مع المتحف البريطاني ... لذلك قررت أن

أقوم بفحصٍ تجريبي للموقع ليلاً، وانتظرت حتى تحين فرصة مناسبة وليلة مُقمرة ساطعة لأقوم بمغامرتي الليلية(١)".

قام هو ومساعده الألباني لطيف آغا، وهو ألباني حقيقي وليس بُلغاريًا مُتخيّلاً، بجمع فريق "من بين عَربنا المجرَّبين المخلصين الذين يُمكن التعويل عليهم لكتْم السر ... والمضحك في الأمر أنه لم يعلم أيٌّ منهم موقع العمل إلى أن بدؤوا بالتنقيب(٢)". وفي ليلة العشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٥٣، قسّم رجاله إلى ثلاث مجموعات عمل صغيرة. في الليلة الأولى عثرت إحدى المجموعات على بقايا متهدمة لبناء قديم، وفي الصباح أبرق رَسّام لكل من رولنسن ولندن ليعلن عن اكتشافٍ كبير، وفي الليلة التالية راح رجاله يعمّقون حفرياتهم فاكتشفوا بقايا نقشٍ آشوري ضئيل البروز على جدار، إلا أن النقش الحجري انتهى بعد عدة أقدام، "ولم يكن هناك ما يُرى سوى الرماد والعظام ونفايات أخرى." ويعلق رَسّام بمرارة: "وهذا ثبَّط معنوياتي" والأحرى به أن يُصاب بالانهيار؛ إذ سيلحق به العار إن لم تجلب له تنقيباته غير المرخصة سوى غضب فكتور پلاس، كان رَسّام يراهن على اكتشافٍ عظيم؛ إذ إن اللقى الحقيقية ستتفوق على مطالب پلاس الإقليمية المهملة، ولكن إن عاد خالي الوفاض فإن هذا سيثير غضب رولنسون والمتحف البريطاني، وستنتهي مسيرته المهنية الآركيولوجية الجديدة نهاية شائنة.

كان رَسّام يعلم أن أخبار عمله السري ستصل إلى مسامع پلاس عما قريب؛ لأنه بحلول اليوم التالي، "انتشر خبر حفرياتي الليلية في مدينة الموصل." ومع نفاد الوقت سريعًا، وسع رَسّام عملياته على نحو هائل في الليلة الحاسمة الثالثة، وذلك بأن خصص عدة فرق للعمل في المنطقة.

(1) Rassam, *Asshur and the Land of the Nimrod* (Eaton and Mains, 1897), 23-24.
(2) Ibid., 25.

وأخيرًا، توّجت جهوده بالنجاح حين نبش رجاله نقشًا جميلا لملك يقف في عربة تبيّن أنه آشوربانيبال في لوحة منقوشة من قصره الذي اندثر منذ أمد بعيد. وعندما واصل رجاله الحفر انهار جزءٌ ترابي طوله خمس عشر قدمًا فانكشف جدارٌ كامل مليءٌ بالمشاهد المنحوتة؛ يقول رسّام: "كانت بهجة العمال بطبيعة الحال لا توصف. فما إن نطقت كلمة 'صور' حتى سرت البهجة كالكهرباء. تدافع الجميع لرؤية هذا الاكتشاف الجديد، وبعد أن حدقوا في النقش الضئيل البروز بإعجاب، تجمعوا وراحوا يرقصون ويمتدحونني على أنغام أغانيهم الحربية بكل ما أوتوا من قوة[1]"، لقد جاءت أغنية العمال الحربية منسجمة مع روح اللحظة بشكل مناسب، فانتصار رسّام على نسيان الماضي هو انتصار صغير في التنافس الإمبريالي الحديث.

¤ ¤ ¤

وحتى بمقاييس التبجح السائدة في منتصف القرن التاسع عشر (حيث كان يصعب التمييز بين منقبي الآثار ولصوص المقابر)، كان رَسّام غير تقليدي أحيانا في أساليبه، لكنه كان غير عادي في كثيرٍ من المناحي، كان رَسّام واحدًا من أبرز الشخصيات في تاريخ علم الآثار، وعالم الآثار الوحيد البارز في عصره من أصول شرقية، لقد ظل علم الآثار حتى القرن العشرين هوسًا وتسلية أوربية، كان السكان المحليون في مصر والعراق يعملون بأجور متدنية للقيام بأعمال التنقيب الشاقة، لكنهم كانوا يعملون لصالح علماء آثار جاؤوا من لندن وباريس وبرلين للتنقيب والرجوع إلى بلدانهم بالغنائم.

---

(1) Ibid., 26.

قد يحظى المتحف الإمبراطوري العثماني بحصته من اللقى، ولكن هذا المتحف الإمبراطوري في عهد رَسّام كان يديره فرنسي.

كان هُرمُزْد رَسّام يتحدر من أصول أشورية قديمة، وكان الوحيد الذي تخطى هذا الحاجز الإثني، فترقى سريعًا من منصب وضيع ليصبح عالم آثار ودبلوماسيًا، يدير بعثات تنقيب كبرى لصالح المتحف البريطاني أو يعمل وكيلاً سياسيًا لصالح وزارة الخارجية البريطانية، ثم صار كاتبًا أيضًا، يؤلف البحوث لصالح جمعيات علمية، كما كتب كتابين شائقين: واحدًا عن عمله في حقل الآثار والآخر عن أخطر مغامرة دبلوماسية قام بها لإنقاذ رهائن من ملك الحبشة، ولكن حتى قبل نهاية حياته بوقت طويل، وجد رَسّام كتابيه يطويهما النسيان، وتُعزى إنجازاته لغيره، ويُزال اسمه من اللوحات المعدنية التي كانت في يوم من الأيام تبرز اسمه في المتحف البريطاني.

لقد حاول علماء الآشوريات في السنوات الأخيرة أن يصححوا خطايا النسيان هذه، فأُعيد الاعتبار للدور الذي أداه رَسّام في التنقيب عن آثار بلاده، لكن حتى هذه التحريات الأخيرة تعطينا صورة ناقصة[١]، وذلك لأن الحرائق والفيضانات أتت على جزء كبير من المواد الهائلة غير المنشورة التي خلّفها رَسّام، كما أن رسائل رَسّام إلى أهله ضاعت حين احترق منزل العائلة في الموصل حوالي سنة ١٩٥٠، بينما سيرته الذاتية غير المنشورة، التي ظلت في حوزة أحد أحفاده لفترة طويلة في إنجلترا، راحت ضحية العفونة والرطوبة خلال خزنها في أحد الأقبية، ورغم أن أعمال رَسّام المنشورة

---

(١) الاستثناء الوحيد هو الصورة التي يقدمها مورغنز تروله لارسن في كتابه *The Conquest of Assyria: Excavations in an Antique Land 1840-1860*، («فتح آشور: تنقيبات في أرض عريقة ١٨٤٠-١٨٦٠») الصادر سنة ١٩٩٤ عن دار رتلدج، حيث يقدم الكاتب أفضل وصف للسنوات الأولى عن أعمال التنقيب الأثرية في بلاد الرافدين.

تخبرنا أشياء كثيرة، فإنه كان متكتمًا وحذرًا كعادته فيما ينشر، وكان غالبًا ما يقلل من أهمية التوترات والمصاعب التي تواجهه.

لكن لحسن الحظ ظل رَسّام يتراسل مع هنري لايَرْدٍ منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، نشأت صداقة حميمة بينهما، وكتب كلٌ منهما للآخر عشرات الرسائل خلال فترة خمسين سنة؛ أي: حتى موت لايَرْد سنة ١٨٩٤، تشكل هذه الرسائل ملحقًا قيمًا لكتابَي رَسّام، كما تبين لنا تعقيدات وضعه كاملةً، كان رَسّام ابنَ الموصل الوفي كما كان يفتخر أيضًا بدوره في المشروع الإمبريالي البريطاني، فقضى حياته وهو يؤدي دور الوسيط بين الثقافتين اللتين أحبهما.

إلا أن محبته للبريطانيين كانت من جانبٍ واحد في بعض الأحيان؛ إذ لم يكن هؤلاء مستعدين لمعاملة "شرقيٍّ" معاملةَ الند للند اجتماعيًا وفكريًا، لم يكن رَسّام واثقًا تمامًا من قبول المجتمع له في موطنه الجديد، فكان بدوره سريع الغضب مما يراه استخفافًا، سواء أكان الاستخفاف حقيقيًا أم متخيَّلاً، كانت هويته الثقافية المزدوجة ضرورية لنجاحه، لكنها عرضته أيضًا لسوء الفهم وسوء المعاملة والافتراء الصريح حتى بلغ ذروة ذلك في قضية كارثية رفعها رَسّام ضد والس بدج، وفي الحقيقة كان رَسّام أكثر مهارة في تعامله مع ثيودور ملك الحبشة العنيف الذي لا يُؤمَن جانبه مما كان في تعامله مع شلة الجنتلمانية المحروسة المتكاتفة في المتحف البريطاني.

نشأ هُرْمُزْد رَسّام في بيئة ثقافية مختلطة، ولد في الموصل سنة ١٨٢٦، وكان أصغر ثمانية أطفال لأب عراقي وأم سورية، كانت الموصل حينها مدينة ريفية خاملة، وكانت شوارعها الترابية غير مُعبَّدة ومناراتها القروسطية تتداعى للسقوط هنا وهناك، كانت الموصل موطنًا للعرب والأكراد والكلدانيين المسيحيين الذين كانوا تحت الحكم العثماني الذي كان يتراوح بين القسوة واللامبالاة، كانت

أسرة رسّام من الكلدانيين، وهم ينحدرون من سكان المنطقة الآشوريين الأوائل الذين اعتنق كثيرٌ منهم المسيحية في حوالي القرن الرابع وقد ظلوا متميزين عن العرب والأكراد الذين عاشوا بينهم.

كان الكلدانيون المسيحيون غالبًا ما يُنظَر إليهم بشيءٍ من الريبة، ليس فقط من قبل المسلمين العرب والأتراك، بل من قبل الغربيين الذين كانوا يرون أن بعض ممارساتهم ليست متطابقة تمامًا مع المعتقدات المسيحية الصحيحة، أما الكلدانيون فكانوا يقولون: إن طائفتهم القديمة بشعائرها البسيطة هي صورة نقية للمسيحية الأولى، كان عددٌ من المبشرين الأوربيين، بمن فيهم مُبشِرٌ أنجليكاني يُدعى جورج بيرسي بادْجَر، ينشطون في المنطقة حين كان هُرْمُزْد يافعًا، وفي سني مراهقته سار هُرْمُزْد على خطا أخيه الأكبر كرستيان فاعتنق الأنجليكانية، وكان كرستيان قد تزوج ماتلْدا، أخت المبشر بادجر، ومن خلال هذا القِران الإنجليزي، عُيِّن كرستيان نائبًا للقنصل البريطاني في الموصل التي لم تكن مكانتها من الأهمية بحيث تستحق ممثلاً مولودًا في بريطانيا.

حين بدأ لايَرْد تنقيباته خارج الموصل سنة ١٨٤٥ ساعده كرستيان رسّام على جمع عدد من العمال وزكّى أخاه ابن التاسعة عشرة ليكون محاسبًا، كان هُرْمُزْد الشخص المناسب لهذه الوظيفة؛ إذ كان يعمل كاتبًا لدى أخيه، وكانت حَماة كرستيان قد علّمته الإنجليزية، كان أيضًا يتكلم بطلاقة كلاًّ من العربية ولغته الأم الآرامية، وهي اللغة التي تكلم بها المسيح وكانت شائعة على نطاق واسع في الشرق الأدنى قبل أن تبدأ العربية بالانتشار مع انتشار الإسلام، وبالإضافة إلى مهاراته اللغوية، كان الشاب هُرمُزد متميزًا في كثير من المناحي التي نالت إعجاب لايَرْد، كان اجتماعيًا وفضوليًا ويهتم بكل شيء، وكانت لديه قدرة استثنائية على التحمل، وكان نزيهًا إلى أبعد

الحدود، وأخيرًا وليس آخرًا، كان مأخوذًا بسحر الماضي وشغف البحث عن الآثار القديمة.

في أربعينيات القرن التاسع عشر لم يكن هذا الشغف معروفًا إلا لبضعة أناس في المنطقة، ففي المناسبات النادرة حين كانت عوامل التعرية تُظْهِر منحوتاتٍ آشورية أو بابلية في تل قديم، كان العرب ينظرون إليها عادة بشيء من القرف العميق بوصفها صورًا منقوشة من أيام الجاهلية، بل إن هناك من كان يعتقد أن من واجبه الديني أن يحطم هذه الأصنام، أما حكام بلاد الرافدين العثمانيون فقد كان اهتمامهم الديني أقل، ولكنهم كانوا مستهلكين بمشاق قمع الحروب القبلية وجباية الضرائب من رعاياهم الفقراء الساخطين، وقد أبدى الأتراك اهتمامًا شديدًا في الكنوز المدفونة المصنوعة من المعادن الثمينة، لكنهم، كما اكتشف جورج سمث، لم يفهموا سبب الاهتمام بأشياء قذرة مصنوعة من الطين أو الحجر، يتحدث رَسّام في كتابه «آشور وأرض النمرود» عن أحد هؤلاء المسؤولين، "كان عمره على الأقل سبعين سنة، ومن ثم فهو من المدرسة القديمة، وكان يعد البحث عن الآثار مهنة سخيفة، أما من يقيمون لها وزنًا فمستشفى المجانين أولى بهم(١)"، وكانت آراء الأوربيين المقيمين في المنطقة مشابهة لهذا الرأي؛ إذ كانت مزيجًا من العداء الديني تجاه الآثار الوثنية واللامبالاة، من الناحية الجمالية، تجاه أي فنٍّ لا يتطابق مع معايير الجمال الإغريقي.

بيد أن رَسّام كان مفتونًا بكل شيءٍ وجده هو ولايَرْد، فأصبح اليد اليمنى له والمؤتمن الأساسي على أسراره في الميدان، وعندما حان وقت العودة إلى إنجلترا في نهاية ١٨٤٧ عرض لايَرْد أن يأخذ هُرْمُزْد معه ويساعده في الالتحاق بجامعة أُكسفورد، كان والد هُرْمُزْد متوفيًا، ولكن

(1) Rassam, *Asshur*, 261.

كرستيان وماتلدا كانا قد تعهدا برعايته ودفع نفقاته، كما كان لديهما ارتباطات بالمبشرين في إنجلترا ممن يسرهم مساعدة شاب عراقي موهوب على تشرُّب المذهب الأنجليكاني من المنبع، وهكذا ذهب هُرمُزْد مع لايَرْد، مع أن ماتلْدا حذرت لايَرْد قائلةً: إن ابن حميِّها "يتطلب يدًا قوية لتسيطر عليه[1]".

في البداية شعر لايَرْد أنه يسيطر على عُهدته سيطرة تامة، فكما كتب إلى صديقه هنري روس، وهو تاجر بريطاني في الموصل: "أظن أنني أرى إمكانية توظيف هُرمُزْد رَسّام في الشرق وإن أحسنَ التصرف قد أرقّيه في الوقت المناسب[2]". لكن نبرةً من السخط المتنامي على هُرمُزْد بدأت تظهر في رسائل لايَرْد اللاحقة، فبعد عدة أسابيع من وصولهما إلى إنجلترا، كتب لايَرْد: "هُرمُزْد بخير وعنيد كعادته[3]". وبعد شهر، كتب لايَرْد: "ليته يهتم بأمرٍ جدّي— إنه طائش تمامًا." ومع ذلك، اعترف لايَرْد: "إنه محبوبٌ من قبل الجميع وطيِّب القلب. سيكون له أصدقاء كُثُر[4]"، كان هنري لايَرْد في الثلاثين من عمره؛ أي: أكبر من هُرمُزْد بتسع سنواتٍ فقط، ربما لم يكن لايَرْد بسبب طبعه العنيد والمندفع خير قدوة في الإقناع والتعقل بالنسبة إلى عُهدته الشاب، وسرعان ما ذاب أي أثر للسلطة البريطانية على هذا التابع المستعمَر، وحل محلها نوعٌ من تمرد الأخ الأصغر على أخيه الأكبر، شكى لايَرْد، بعد أن أصابه الإحباط إلى روس، "لم يعد يُصغي إلي أو ينظر إلي كما كان ينظر إلى أخيه في الموصل. إن هذا يؤسفني، كوني أعتقد أنني أكثر خبرة منه في العالم المتحضر، وهذا ما لا يعتقده هو. وحقيقة الأمر أنه مُدلل،

(1) Matilda Rassam to Layard, 21 August 1848; British Library, Add. Mss. 38,978, folio 158.
(2) Layard to Henry Ross, 25 Agust 1847, BL 38,941, f. 11.
(3) Layard to Ross, 31 December 1847, BL 38,941 f. 23.
(4) Layard to Ross, 6 February 1848, BL 38, 941, f. 24.

ثم (كعادته كما تعلم) يقوم بأشياء يعلم علم اليقين أنني لا أرتضيها، ويحاول عبثًا أن يخفيها عني ويخدعني[١]".

في ذلك الشتاء تورط هُرمُزْد في مغامرة رومانسية في أوكسفورد كان يمكن أن تكون جدية، ولكنه لم يقل شيئًا للايَرْد إلا بعد أن انتهى كل شيء، فعلى مدى عدة أسابيع متتالية، ظل رسّام يرى شابة جذابة تنظر إليه في كنيسة الكلية المَجدلية في أكسفورد، ثم راح يلاحظها في حفلات الموسيقى الدينية التي تقام في الكنيسة المجدلية كل عصر من أيام الأحد، كتب إلى لايريد بعد شهر، "منذ حوالي شهر تقريبًا، وعندما غادرت الكنيسة في حوالي الخامسة قادمًا إلى البيت، وجدتُ ذات السيدة تمشي ورائي، وقبل أن أصل إلى البيت اقتربت مني إلى درجة أن كتفها الأيسر لامس كتفي الأيمن، فاضطررت لسؤالها عمّا تريد، ولكنها قالت: 'لا أعرف يا سيدي!' فرجوتها أن تتركني وشأني، أما إن كانت ترغب في التحدث معي فسألتقيها في المكان نفسه في السادسة والنصف، فقالت: 'ربما'".

لقد أدلى هُرمُزْد بهذا الاقتراح؛ لأنه كان يخشى أن يراه الناس وهو يتحدث إلى امرأة غريبة، بينما لقاؤهما عند الغسق يوفر لهما شيئًا من الخصوصية، كان تأرجحه بين البهجة والحذر قد أوقعه في حيرة تامة، فلم يستطع أن يجزم إن "كانت سيدةً أم لا." وإن لم تكن كذلك؟ كان يخشى "أن تكون امرأة ذات سمعة سيئة فتوقعني في المتاعب وتشوه سمعتي في الجامعة"، كان هُرمُزْد مرتبكا إلى درجة أنه لم يستطع أن ينظر إلى الفتاة وهي تسير بجانبه، "مع أنني تفوهت بتلك الكلمات معها إلا أنني لم أحرك رأسي قيد أنملة لأنظر إليها؛ لأنني كما تعلم معروفٌ في هذا المكان ولم أرغب في الحديث إليها في ذلك الوقت من النهار حين يذهب جميع الناس في

(1) Layard to Ross, 27 March 1848, BL 38. 941. f. 26.

الجامعة من كلية إلى أخرى، وعندما عدت إلى البيت فكرت في الأمر مدة فلم أعرف كيف أفكر فيه[١]".

قرر هُرمُزد أن أفضل خطة هي أن يأتي معه صديق إنجليزي في المساء وينظر إلى السيدة، إن كانت سيدة فعلاً، من مسافة، كان هُرمُزد، الذي لم يكن عارفًا بأصول السلوك واللباس عند الإنجليزيات، يأمل أن يتمكن صديقه الإنجليزي أن يخمِّن شخصية الفتاة من مظهرها ولغة جسدها. إلا أن خطته باءت بالفشل؛ لأن الشابة رأتهما في مكان اللقاء قبل أن يتخذ صديقه مكانه في نقطة المراقبة فمرت بهما من دون أن تنبس بكلمة واحدة، انتهت المغامرة فجأة، ولم تظهر الفتاة في الكنيسة مرة أخرى بعد ذلك اليوم.

لا يمكننا أن نعرف حقًا إن كانت معجبة هُرمُزد "امرأة سيئة السمعة" تتجرأ على إغواء زبائنها في كنيسة تتخذ من المجدلية اسمًا مناسبًا لها[٢]. لعلها كانت مجرد فتاة وقعت في غرام الأجنبي الوسيم، لكنها ارتبكت حين رأت هُرمُزد وصديقه ينتظرانها في الغسق، على أية حال، ارتاح بال هُرمُزد، لقد أقنع نفسه أنه هو، وليس هي، من أنهى الأمور، "أنا سعيدٌ جدًا أنني تخلصت منها؛ لأنها كانت ستدمر سمعتي بين أصدقائي الأتقياء، كانت صاحبة أفضل قوام رأيته حتى الآن، وكان وجهها جذابًا جدًا، لقد فصلت الجامعة شابين، وهما ابنا سيدين محترمين جدًا لذات السبب الذي كان سيحصل لي".

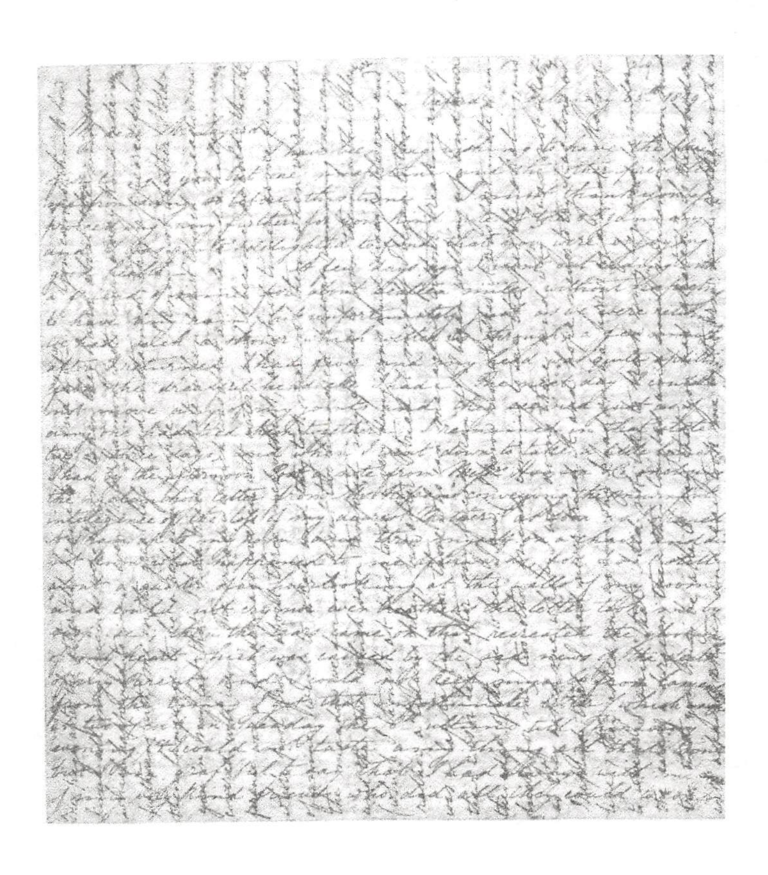
ورغم ما في هذه الرسالة من بوحٍ كاشف، فإنها لا تسلم أسرارها بسهولة؛ إذ كان من عادة رَسّام لدى كتابة صفحة كاملة أن يديرها تسعين

---

(1) Rassam to Layard, 25 February 1849, BL 38,978, f. 269ff.

(٢) الإشارة هنا إلى المومس التائبة مريم المجدلية التي مسحت وجه السيد المسيح بشعرها حين كان معلقًا على صليبه، حسب المعتقد المسيحي. [حاشية المترجم].

درجة ويبدأ بالكتابة بشكل متعامد، كان أفراد في أسرته يلجؤون إلى هذا السلوك كما كان يفعل هنري لايَرْد أيضًا عندما يكون في الميدان؛ لأن من شأن هذا الأمر أن يوفر الورق ويخفض تكاليف البريد العالية، وهذا أمرٌ مهم بالنسبة إلى هُرمُزْد الذي كان يعيش على ميزانية محدودة في أكسفورد، وفي الوقت نفسه كان هذا النمط من الكتابة يعني أن لا أحد يستطيع بنظرة عابرة أن يقرأ محتوياتها بل يحتاج إلى عناية أكبر.



رسالة هُرمُزْد رسام إلى لايرد المؤرخة في ٢٥ شباط/ فبراير ١٨٤٩، يصف فيها موت أمه، ورحلة تزلجٍ على الجليد.

وقد حملت هذه الرسالة بالذات حمولة عاطفية استثنائية؛ إذ إنها لا تكتفي بإعطاء شرح مفصل لمغامرة هُرْمُزْد الرومانسية، بل تصف أيضًا ردة فعله على خبر رهيب وصله من موطنه بعد قشعريرة حادة أصابته وهو يمتطي حصانًا في جوٍّ ماطر، "في اليوم التالي لم أستطع أن أحرك أيًّا من مفاصلي التي بدت وكأن شخصًا قام بتقييدها، وبقيت على هذه الحال يومين أو ثلاثة، وعندما ذهبت لتناول القليل من الطعام وصلتني ببريد العصر مذكرة من السادة هانسن وشركائه تضم الرسالة الكئيبة من السيدة ماتلدا رَسّام التي تنقل لي فيها خبر فاجعة فَقْدِ أمي العزيزة." لا بد أن بُعد هُرْمُزْد عن موت أمه زمانًا ومكانًا زاد من فجيعة هذا الخبر الصاعق، لم يكن التلغراف المبتكر حديثًا قد وصل العراق بعد، فلم يكن لدى ماتلدا من خيار آخر غير الكتابة، وتستغرق الرسالة منها عدة أسابيع لكي تقطع مسافة ثلاثة آلاف ميل بوساطة بريد الجياد، ثم بالباخرة عبر المتوسط، ثم عبر بريد القطارات الفرنسي البطيء، ثم بالعبّارة عبر القنال الإنجليزي، وعربات البريد الملكي البريطاني. لم يتمكن هُرْمُزْد من إيجاد سكن مناسب الإيجار في أكسفورد، ولم تكن ماتلدا تعرف عنوانه؛ لذلك بعثت برسالتها إليه عن طريق الوكلاء الذين كانوا يديرون أموره المالية في لندن، ربما لم يكن يعرف السادة هانسن وشركاؤه أي أخبار يحملون إلى شاب مصاب بالحمى في مُغتربه.

أُصيب هُرْمُزْد بالارتباك. "جريتُ إلى غرفتي وألقيت بنفسي على كرسي ولم أدرِ ما حدث لي بعد ذلك؛ إذ جلست حوالي ربع ساعة أنظر في جدران غرفتي ولم أستطع البكاء ولا حتى التنفس حين أخذتني الرسالة على حين غِرّة، ثم انهمرت الدموعُ وأنعشت الكآبةَ في قلبي." كانت كتابة هُرْمُزْد الإنجليزية لا تزال يشوبها شيءٌ من الارتباك، لكنه عبر عن حزنه بمزيج مؤثر من بوح المشاعر الشخصية والعبارات البيروقراطية التي تعلمها حين

عمل كاتبًا لدى أخيه. "لم أتمالك نفسي من النحيب منذ أن تلقيت تلك الرسالة المشؤومة التي وصلتني في الساعة الثانية من يوم الثلاثاء، السادس عشر من الشهر الأخير وإلى مساء الخميس لم أذق شيئًا طيلة هذا الوقت، لكنني ممتن لأصدقائي الذي غمروني بلطفهم الفائض الذين لم يدخروا جهدًا لمواساتي".

لحسن الحظ أن هُرمُزْد كان اجتماعيًّا فكوَّن في هذه الأثناء شبكة من الأصدقاء؛ إذ عانى في الأسابيع الأولى في أكسفورد من غربة شديدة، وكما كتب للايَرْد في كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٤٨، كان يحرز تقدمًا ممتازًا في تعلم الإنجليزية وذلك بفضل سيدة لطيفة كان مستأجرًا عندها، فكانت "تفعل ما في وسعها لتعلمني لسان الإنجليز وروحهم(١)"، ولكنه كان ينسى العربية في ذات الوتيرة تقريبًا، وكان متعثرًا في دراسته الجامعية، "من الغريب أنني كلما أردت أن أبدأ بالدراسة كان يعترضني عارضٌ فيشوِّش تفكيري، وأعتقد أنني لو بقيت قرنًا كاملاً في إنجلترا على هذه الحال من عدم الاستقرار، فلن أتقدم قيد أنملة في دراستي، لا أعرف إن كنت قد أحرزت أي تقدم في مجيئي إلى إنجلترا أم لا، لكنني أرى أن الأمر لا يقتصر على أنني لم أكسب شيئًا فحسب بل فقدت ما كنت أعرفه لقاء ذلك".

غير أنه قبل انقضاء وقت طويل، صار هُرمُزْد يستمتع بملذات طارفة كالتزلج على الجليد، ولم يكترث حتى عندما غطس هو وأصدقاؤه في بقعة جليدية هشة، "كدنا نموت من الضحك ونحن نرى أنفسنا غاطسين في الجليد(٢)". وقد أعطى أصدقاءه هدايا من الخط العربي، وكان يفتخر أن إحدى مقالاته عُلِّقت في مكتبة بودليان العريقة في أكسفورد، بل إن أُسقف أكسفورد أحب هُرمُزْد فراح يدعوه إلى قصره السكني، وبعد ثلاثة أشهر من لقائه

(1) Rassam to Layard. 17 December 1848; BL 38.978. f. 223.
(2) Rassam to Layard. 25 February 1849. BL 38.978. f. 269ff.

الغامض مع تلك الشابة في الكنيسة المجدلية، كتب رَسّام رسالة إلى لايَرْد عن صداقته مع الأسقف، وأضاف بشيء من المكر، "هناك إشاعة في كل أكسفورد تقول: إنني سأتزوج ابنته التي قدّمت للملكة قبل بضعة أيام، لكنني لن أقول: إن كانت الإشاعة صحيحة أم لا[1]". لم تكن الإشاعة صحيحة على الإطلاق، ولكنها كانت دلالةً سارةً على ترقّي هُرْمُزْد في الأوساط الراقية من المجتمع البريطاني.

¤ ¤ ¤

في هذا الوقت بالذات انتهى النعيم الذي كان رَسّام يعيشه في أكسفورد، فقد طلب أمناء المتحف البريطاني من لايَرْد أن يعود إلى الموصل لإجراء مزيد من التنقيبات، فحصل على موافقتهم على توظيف رَسّام بصفة نائب رسمي له، وهذه ترقية مهمة من دوره السابق حين كان محاسبًا. فكتب لايَرْد إلى رَسّام يهنئه على هذا الانقلاب، غير أن رَسّام فاجأه بالسخرية من هذا الأمر، فبعد سنة ونصف في أكسفورد لم يكن رَسّام يتلهف للعودة إلى بلاده، هذا إن عاد، ومع ذلك لم يكن بإمكانه أن يرفض طلبًا مباشرًا من مناصره وولي نعمته، فكتب إلى لايَرْد رسالة تشيع فيها نبرة الاستسلام الحزين:

> لا شك أنك ستظن أنني مجنون لو أخبرتك أن الأسى الذي شعرت به (حين تلقيت منك خبر عودتي إلى نينوى) يوازي فرحتي الواجب أن أشعر بها للذهاب ورؤية عائلتي وأصدقائي الكثر، ولكن صدقني يا عزيزي

---

(1) Rassam to Layard. 25 May 1849, BL 38,978, f. 350.

السيد لايَرْد إنني لا أطيق مغادرة إنجلترا، كما ينتابني رعبٌ هائل من العودة إلى الشرق، مع ذلك على المرء أن يفعل ما بوسعه في هذا العالم التعيس لكي يهرب من الشرق إلى الغرب لكي يجد عملاً، أعرف أنك ستسخر من قلة عقلي إن قلت لك: إنني أفضّل أن أكون منظِّف مداخن في بريطانيا على أن أكون باشا في تركيا، لعلك تعتقد أن شعوري هذا منافٍ للفطرة، ولكن ماذا عساني أن أفعل؟ أنا مستعد للتضحية بنفسي من أجل إنجلترا وعبادةِ دين بريطانيا العظمى النقي. مع ذلك، فإني أجد عزاءً عظيمًا في متعة السفر معك مرة أخرى، وأنا على ثقة أن خدماتي ستكون دومًا مفيدة لك، وآمل أن أكون رفيقك حيثما تريدني أن أكون، إني أتطلع دائمًا لنصائحك وأنا رهنُ إشارتك(١).

ومـــع أن رَسّام أكد وفاءه الواجب تجاه لايَرْد، فإنه سأل إن كان بإمكان لايَرْد أن يساعده على إيجاد وظيفة له في السلك الدبلوماسي البريطاني بعد انتهاء التنقيبات، كان من الواضح أن رَسّام يخشى أن يُترك خالي الوفاض في الموصل بعد انتهاء المهمة الموكلة إليه من المتحف، ولا سيما أن مسيرته الأكاديمية انحرفت عن مسارها وبذلك تلاشى أمله في الحصول على وظيفة حكومية على أساس شهادة جامعية من أكسفورد، فحتى عنـــدما وافـــق عـــلى مضض أن يعود إلى موطنه، كان رَسّام يخطط للهروب ثانية.

---

(1) Ibid.

لا شك أن الموصل لم تكن تُغري أحدًا بالعودة إليها في ذلك الوقت، لقد ظلت لزمن طويل مركزًا للتجارة في شمالي العراق، إلا أن النزاعات القبلية وانتشار العصابات في الأرياف أدت إلى انخفاض تدفق البضائع من المدينة وإليها، وفي سنة ١٨٣١، حين كان رَسّام في الخامسة من عمره، اجتاح الطاعون معظم أرجاء العراق، فمات نصف سكان بغداد، ولم يتمكن الاقتصاد من النهوض من كبْوَته تمامًا، ظلت كثيرٌ من قنوات الري التي تعرضت للإهمال على حالها، وكان الطعام شحيحًا في غالب الأحيان، وجاء الجوع ليزيد من انعدام القانون في الأرياف، وكانت الإدارة العثمانية، حتى في أحسن الأوقات، نادرًا ما تكترث لتطوير البنية التحتية، وتعرضت قدرة الحكومة للنهوض بالاقتصاد للشلل بسبب نقص عائدات الضرائب في أعقاب الطاعون، كان كُتّاب الأسفار الأوربيون في أربعينيات القرن التاسع عشر يرسمون صـــورة نمطية للركود الأزلي في العراق، وهـــم لا يدركـــون أن ما كانوا يرونه في غالب الأحيان هو الآثار المتبقية للأزمة الصحية الحادة التي مر بها العراق في العقد السابق.

إذا كانت الصورة الإجمالية في الموصل قاتمة سنة ١٨٤٩، فإن الأمور في أسرة رَسّام لم تكن أفضل بكثير، فقد كان والداه متوفيين، ولم تكن علاقته مع أخيه كرستيان طيبة، أما عن علاقة رَسّام مع زوجة أخيه، فما كان يكتب عنها إلا مادحًا "السلوك اللطيف" لتلك المخلوقة "الودود [١]"، أما في الواقع، فقد وجدها شديدة الانتقاد وسيئة الطباع، وقد وجدت ماتلدا نفسها شيئًا فشيئًا غير راضية عن حياتها في الموصل، لم يكن زواجها يسير على ما يُرام، فشعرت بالغضب والمرارة؛ ففي رسالة كتبها لايرْد سنة ١٨٥٠ لاحظ أن "مزاجها الغيور الحقود[٢]" كان أبرز سماتها الشخصية، وفي نهاية

(1) Rassam, *Asshur*, 4.
(2) Layard to Ross, 2 September 1850, BL 38,979, f. 289.

المطاف تقدم كرستيان للمحكمة بطلب طلاق منها، وهذا ما وتّر علاقة رسّام بكل منهما، وقد كتب رسالة إلى لايَرْد حينها بهذا الخصوص:

> أما بالنسبة إلى أخي الأكبر فقد صار سلوكه الشائن مع زوجته مصدر قلق عظيم لي ... لقد بذلت قصارى جهدي لكي لا أورط نفسي في خصوماته الكريهة مع زوجته، لكن إن لم أنبهه إلى قوانين هذه البلاد، فإنه سيوقع نفسه في ورطة، وبطبيعة الحال فإن العار والخراب اللذين سيلحقان به سينعكسان سلبًا عليّ ... إنه يظن أن كل ما عليه أن يفعله هو أن يعبر عن رغبته في حل رباطه الزوجي وينتهي الأمر، لكن زوجته لديها أصدقاء وأقرباء ماكرون جدًا، وهي شخصيًا ليست مُغفَّلة، وبينما هو يضيع وقته في التُرّهات، هم يحصنون أنفسهم لتدميره[1].

وقبل أن تنشب تلك الأزمة بوقت طويل، شابت الرسائل بين رسّام وأخيه وزوجة أخيه نبرة رسمية متشددة، فلم يعد هناك عش عائلي دافئ ينتظره، ومع ذلك ذهب مع لايَرْد، فاكتسب مهارات وثقة جديدة في عمله منقبًا.

(1) Rassam to Layard, 26 December 1971, BL 39,000 f. 82.

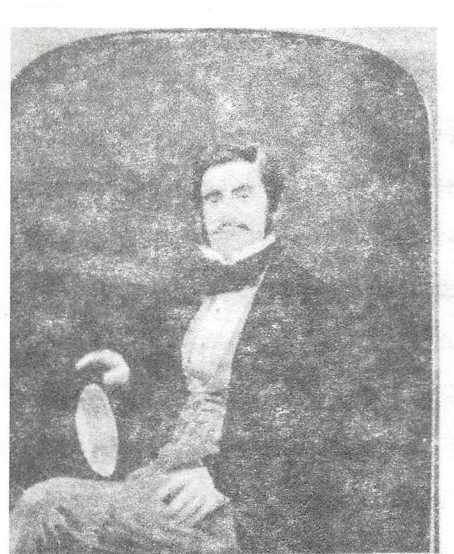
لا يمكن أن يكون التاريخ الذي وضعه المؤلف في هذا الهامش صحيحا، فلعل السنة التي كتب فيها رسام رسالته إلى لايرد هي ١٨٥١ وليس ١٩٧١، لا بد أن هذا خطأ مطبعي. [حاشية المترجم].

وبعد انتهاء البعثة التنقيبية سنة ١٨٥١ عادا إلى إنجلترا مُحملين بكنوز من نينوى ومحيطها، كانت بعض اللُقى، كذَيْنِكَ الأسدين المجنَّحين الهائلين الشرسين - قطعًا كبيرة وثقيلة جدًا إلى درجة أن جرَّ كل منهما من الموقع إلى الطَوْفَيْن اللذين بُنيا من أجل نقلهما عن طريق النهر احتاج إلى ثلاثمئة رجل، وقد استخدما سكاكين الجيب لإبعاد التراب من حول المواد الرقيقة كالتماثيل العاجية المصغرة العارية للآلهات وعشرات من الأطباق الجميلة المزخرفة التي كانت تُستخدم في المآدب الآشورية.

وحين عاد إلى لندن مفتخرًا بنجاحاته في العراق وبعد أن ألِفَ الحياة في إنجلترا، جلس رَسّام من أجل أن تُرسَم له لوحتان متوازيتان: واحدة في ملابس إنجليزية رسمية، وأخرى في طقمٍ من الثياب التي جلبها من موطنه، فصار الناس يستضيفونه على العشاء، فاستمتع بدور الغريب الغامض، وكتب إلى لايَرْد قائلاً: "لقد استمتعتُ أيّما استمتاع بعشاء اللورد محافظ لندن، ولم يتمكن أحد من معرفة الأمة التي أنتمي إليها(١)"، إلا أن إقامته اللندنية لم تدم طويلاً، كان لايَرْد قد كتب كتابًا حقق أفضل المبيعات عن بعثته الأولى، فصارت الجماهير تأتي إلى المتحف البريطاني لترى الكنوز الجديدة التي أتى بها، ولذلك عزم أمناء المتحف على تمويل بعثة ثالثة، وبما أن لايَرْد قد بدأ حياته السياسية، فقد قبل الأمناء اقتراحه أن يكون رَسّام مبعوثهم، ولا سيما أنه صار يعرف المواقع معرفة تامة كما صارت لديه مؤهلات فريدة لمعالجة تعقيدات التعامل مع المصالح الكثيرة المتنافسة في المنطقة أو ضدها، تردد الأمناء في منح صلاحيات كاملة لعراقيٍ في الخامسة والعشرين، لذلك رتبوا مع هنري رولنسون لكي يشرف على عمل رَسّام، ظل رَسّام يستشير رولنسون باستمرار، إلا أن هذا كان لغويًا ولا خبرة لديه في التنقيب، ولأن

(1) Rassam to Layard, 18 November 1851, BL 38,980, f. 166.

رولنسون كان يقطن على مسافة مئتي ميل في بغداد، فلم يكن يأتي ليرى ماذا يفعل رَسّام إلا نادرًا.

هرمزد رسام بملابس شرقية (يمين) وأخرى أوربية (يسار)، بريشة صديقه إف. سي. كوبر، ١٨٥١.

لقد حقق رَسّام ذاته في هذه الرحلة، فأخيرًا صار الوكيل المصدَّق لدى المتحف البريطاني الذي يُكلِّف القيامَ ببعثة تنقيبية كبرى، ولدى عودته إلى الموصل، استُقبل استقبال الأبطال الفاتحين، فخرج كبار السن من أهل المدينة للقائه حين اقترابه من المدينة، وكما يذكر رَسّام في مذكراته، "ذبح جزارٌ مسلم كنت أتعامل معه كبشًا أمام منزلي، وكان قد نذر أن يوزع لحمه على

الفقراء إن عُدت سالمًا[١]"، ومما زاد في حرارة الاستقبال أنه كانت لديه أموال وفيرة لتشغيل العمال؛ إذ تمكن من مطِّ أمواله أبعد من المتوقع، وذلك بفضل مقدرته على مساومة الأهالي مباشرة الذين تمكن من إقناعهم في غالب الأحيان على القبول بأجورٍ أقل من تلك التي يطلبونها من الفرنسيين.

كان حين ينتقل من موقع إلى آخر يمتطي حصانه على رأس رتلٍ طويل من العمال الذين يرتدون العمائم والثياب الفضفاضة، ويقضون وقتهم على الطريق وهم يغنون أغاني الحب والحرب، وكان مما يزيد من بهاء حاشيته، حين يسافر عبر مناطق غير مأهولة، انضمام قافلة من الإبل والحمير حيث كان عشرات التجار يلتحقون بموكبه للاحتماء من العصابات، وكان معروفًا على نطاق واسع أن رَسّام كان يتمتع بدرجة غير عادية من الحماية المزدوجة: من الحكومة العثمانية ومن كثير من شيوخ القبائل المحليين الذين لم يكترثوا في غالب الأحيان للسلطات التركية، ولكنهم كانوا يعرفون رَسّام وعائلته، ومن الجدير ملاحظته أنه في كل أسفاره لم يتعرض رَسّام لهجوم أو لسرقة، وذلك بفضل رقابة مضيفيه وعنايتهم. "كانوا يخبرونني في بعض الصباحات أن الشيخ الذي شعر أنه مسؤول عن حمايتي ظل يحرس خيمتي طوال الليل مخافةَ أن يدخل لصٌّ تائه ويسرق بعض ممتلكاتي، والحقيقة أنني حيثما خيَّمتُ شعرتُ أن العرب المحيطين بي يعرفونني، وأنه لن يتجرأ أحدٌ على إيذائي، وذلك مخافة الثأر من أصدقائي العرب[٢]".

كان رَسّام يلبس السترة والصدرية كأنه جنتلمان إنجليزي أصلي، وفي أيام الحر كان يسير راكبًا مطيته تحت ظل مظلة خفيفة، ويستطلع محيطه

(1) Rassam, *Asshur*, 4.
(2) Ibid., 44-45.

لعله يجد تلالاً يستكشفها، كما أنه أتقن فن الراحة في الاستراحات التي كان يلاقي فيها جورج سمث الأمرّين جراء الهوام والطعام السيئ؛ إذ كان يدرك أن عليه أن يمكث في الطوابق العليا ما أمكن (حيث البراغيث أقل)، كما كان يعرف كيف يخفض درجة الحرارة بمقدار عشر درجات وذلك عن طريق رش الجدران والأرضية بالماء، وكان في غالب الأحيان يتفادى الاستراحات، ويتوجه مباشرة إلى أكبر بيت في القرية، معتمدًا على سحره ومكانته لكي يستضيفه صاحب البيت الذي كان أحيانًا يتخلى عن غرفة نومه لرَسّام، وفي إحدى المرات استضافته امرأة بكل أريحية في قسم النساء؛ حيث كان صاحب البيت غير موجود، وأطعمته مضيفته قطعًا من البطيخ الأحمر وتينًا "صغيرًا لكنه لذيذ إلى أبعد الحدود[١]".

كان يرتحل عادة مع طباخ ممتاز ويحمل معه ما يكفي من المؤن، وكان يضيف إليها ما يستطيع من أطعمة طازجة يجدها في طريقه، وكان في غالب الأحيان يقوي صلاته بالزعماء المحليين وذلك بتقاسم أرزاقه معهم، وقد تمكن من كسب ود مجموعة من البدو بوساطة أكلة شهية لم يسمعوا بها من قبل: الكيك البغدادي، "كانت لدي مؤونة من الكيك البغدادي فأعطيتهم شيئًا منه ليأكلوه، وكانوا يتعجبون فيما يبدو من طعمه الغريب الذي لم يذوقوه من قبل، وكانوا يقولون بعضهم إلى بعض، 'في الحقيقة إنه خبز مُحلّى بالسكر والزبدة'[٢]".

هذا لا يعني أن السفر في بلاد الرافدين كان سهلاً حتى بالنسبة إلى رَسّام، ففي كتابه يُفصّل بدعابة كل أنواع المضايقات والمنغصات، "لا أظن أن هناك ما هو أكثر إزعاجًا من الوصول إلى قرية وسخة في جوٍّ ماطر،

---

(1) Ibid., 68.
(2) Ibid., 323.

فكل شيءٍ يبدو ملطخًا بالطين والوسخ، ناهيك بالروائح الكريهة التي تنبعث من القذارة التي تحيط بكل كوخ، ولا سيما إذا كانت هناك جواميس[١]"، وكانت أحيانًا تهاجمه أسراب البعوض التي وصفها بأنها "مُنغصاتٌ بغيضة[٢]"، وفي ليلة لا تُنسى هبطت على رأسه من السقف المَغْمِي بالقش مجموعة من الزواحف، "كان المنغص الأكبر ... يأتيني من السقف القذر الذي يرسل عليَّ بين الحين والآخر زخّاتٍ من السُّخام والحشرات الكريهة ... وبما أن أسطح المنازل تتصل بعضها ببعض على ذات المستوى، ويمكن ارتقاؤها بسهولة، فإنها تصبح مسرحًا تتجول فيه الكلاب والماعز بلا انقطاع، ولذلك كلما تحرك أي من هذه الحيوانات على السطح، فإنه يرسل فوقنا زخةً من الوسخ والبراغيث والذباب والعناكب[٣]".

بيد أن المنغصات قد تنقلب فجأة إلى خطر داهم، فقد تزل أقدام الأحصنة وهي تخوض أنهارًا سريعة الجريان، فتنجرف الحقائب والراكبون مع التيار، وكانت المراكب المتزعزعة المسطحة القعر التي تستخدم لعبور دجلة والفرات عبارةً عن مصائدَ موتٍ تطفو على الماء، وذلك بسبب بنائها المهلهل وزيادة حمولتها، "كان الماء في قعرها يبلغ الكاحل، وعندما يحملونها بأكبر عدد ممكن من الحيوانات المحملة، يتوجب على الركاب التعساء أن يبتعدوا عن الحيوانات وذلك بالتعلق بأي طريقة بالحواف الخشبية الخشنة المثبتة بشكل بدائي على جوانب المركب، وما إن يتوسط المركب من القناة حتى تبدأ الحيوانات تَحْرِن، وإن صادف وجود حصان أو بغل خبيث بينها، فإن بقية الحيوانات تُصاب بذعر جماعي[٤]".

(1) Ibid., 154-55.
(2) Ibid., 418.
(3) Ibid., 133.
(4) Ibid., 2-3.

وفي إحدى الليالي، كاد رَسّام أن يغرق على اليابسة، كان رَسّام قد خيَّم على تله المفضل في فيونجيك، فلم يَدْرِ أنه نصب خيمته فوق خندق مُغطى بشكل ضعيف ومهجور منذ تنقيبات لايَرْد السابقة، فهطلت في الليل عاصفة بَرَد شديدة، وتشكلت سيولٌ من الأمطار، فقوَّضت الأرض تحته، "فجأةً شعرتُ بأنني أهبط في حفرة مع سريري وخيمتي وكل شيء أملكه، ولكنِ محنتي في ذلك الوقت يُمكن تصوُّرها خيرًا من التعبير عنها، فقد بقيتُ مدة لا أدرك تمامًا حقيقة وضعي، وذلك من هول المفاجأة في تلك الليلة الظلماء، ووابل المطر والبَرَد يهطل عليَّ، وأنا مغمورٌ في حفرة، وطوفانٌ من الماء ينْداحُ من حولي جالبًا معه أكوامًا من ركام التنقيبات[١]"، وبسبب الذعر والوهن، شعر رَسّام أنه يلقى مصير قارون الخبيث الذي خسف الله به الأرض لتمرده على موسى، "لم أستجمع قواي العقلية إلا بعد أن أنقذني عددٌ من أصدقائي العرب الأوفياء الذين انتشلوني بسرعةٍ من الخندق، وقد كدت أن أغرق وكان الطين يغطيني تمامًا."

¤ ¤ ¤

كان اللصوص والفيضانات فيهما من السوء ما يكفي، لكن أكثر مشكلات رَسّام إلحاحًا نجمت عن منافسيه الفرنسيين، ففي إحدى المرات ثارت ثائرة عمال رَسّام حين علموا أن فريقًا فرنسيًا كان يحث الخطى نحو أحد مواقعهم في أثناء غيابهم، انتاب رجال رَسّام "سُعارٌ لا يوصَف ثم راحوا يغنون ... أغاني الحرب ويتراقصون كأن بهم مَسًّا من جنون[٢]"، عمل رَسّام على تهدئتهم، ولكن حين اقترب العمال من الموقع المتخاصَم عليه راحوا

(1) Ibid., 39.
(2) Ibid., 15.

يتسابقون لمواجهة خصومهم، لحق بهم رَسّام على ظهر حصانه، وهو يشق طريقه بين الأجمات والأغصان المتشابكة، وبالنتيجة أزعج هو ورجاله مرتعًا كاملاً من الحيوانات، "لقد أهاج تقدمنا السريع الخنازير والأرانب البرية والضباع وبنات آوى والثعالب وغيرها من الحيوانات البرية وأخرجها من مخابئها في تلك الأجمة، وأفزع طيور الدرّاج والحجل والسَّمّان من مكامنها"، وتمكن رَسّام من الوصول إلى الموقع في الوقت المناسب تمامًا، فحال دون إراقة الدماء.

وحين اشتدت المنافسة، لم يعد العنف حِكرًا على العمال العرب، ففي رسالة إلى لايَرْد كتب رَسّام بالتفصيل عن مواجهة مذهلة بين أوربيين كاد أن يسقط فيها قتلى، كان عائدًا من قيونجيك إلى الموصل مع عدد من الناس، بمن فيهم مساعده لطيف آغا، وصديقٌ يُدعى برِنْغتون، ووليم كِنِت لوفتوس، وهو عالم آثار ذو موهبة هائلة لكنه سريع الانفعال، وكان يقوم ببعض التنقيبات بتمويل خاص، كانوا على وشك أن يعبروا القوارب التي تشكل جسرًا مزعزعًا فوق دجلة، حين لحق بهم القنصل الفرنسي وطبيب إيطالي، شتم الطبيب الإيطالي دليلَ الإنجليز وأمره أن يبتعد عن طريقهما، لم يأبه له الدليل، فضربه الطبيب بسوطه "واستخدم لغة شائنة بحقنا جميعًا"، تدهورت الأمور سريعًا حين عبر القنصل الفرنسي وحاشيته الجسر وتوجَّه إلى الموصل، كان لوفتوس يغلي من الغضب فقفز عن حصانه وراح يجري وراء الطبيب وهو يلوِّح بسوطه، أوقف رَسّام مؤخرة القافلة فجأةً وقابل باشا الموصل الذي سأله عما يجري، "وبينما كنت أقول: إن طبيبًا أوربيًّا أهاننا، جاءني رجلٌ راكضًا وقال: 'لقد قُتِل صديقك'"، ولحسن الحظ تبين أن خبر موت لوفتوس كان مبالغًا فيه.

ركضت أنا وبرنغتون بأقصى ما نستطيع لكن لطيف آغا سبقنا ووصل المكان في الوقت المناسب لمنع الطبيب الغاضب من طعن السيد لوفتوس، ويبدو أن السيد لوفتوس ساط الطبيب بسوطه، ولكن رفيقه والمستشار انقضّا على لوفتوس المسكين وراح الثلاثة يوسعونه ضربًا، انتابت الطبيب الذي أهاننا نوبة غضب فاستلّ سكينًا وراح يجري وراء لوفتوس ليطعنه؛ لحسن الحظ كان هناك الكثير من الناس المتجمعين الذين أمسكوا بالطبيب وسحبوه جانبًا(١).

ورغم ما في الحادثة من فظاعة، فإن ما تلاها لم يكن أقل غـرابة، تقدم الإنجليز بشكوى جنائية ضد الطبيب الإيطالي الذي كان يهمّ بقتل لوفتوس، فاعتقله الباشا أصولاً، غير أن ڤكتور پلاس تمكن من إطلاق سراح الطبيب بحيلة ذكية، وهي أنه جعل الطبيب يتبرأ من جنسيته الإيطالية ويعلن أنه مواطن فرنسي، ثم أصر پلاس بصفته قنصل فرنسا أن الطبيب أصبح الآن في عُهدته، ثم أقنع، أو رشى، السجّان لتسليمه السجين ويضعه تحت وصايته؛ حيث جعله يغادر المدينة بكل هدوء، احتج الإنجليز بمرارة، لكن من غير جدوى، وحتى لو لم يُصب الباشا نصيبًا من رشوة السجّان، فأغلب الظن أن الباشا شعر بالارتياح؛ إذ لم يعد لزامًا عليه أن يقضي بين الأوربيين المتخاصمين.

لا يذكر رسّام هذه الحادثة الغريبة في كتابه، ربما لأن الإنجليز لم يحسنوا التصرف أيضًا، لقد كانت حادثة التدافع فوق الجسر مجرد حادثة

(1) Rassam to Layard. 20 December 1852: BL 38.981. f. 187.

واحدة خلال أشهر ظل كل فريق يحاول أن يدفع الطرف الآخر بالمناكب، وكان من حسن حظ رسّام أن أطرفَ ما في أمر التحايل على پلاس لم يكن ينتج عنه طعن كِنِت لوفتوس حتى الموت، وفي كتابه، يقدم رَسّام نفسه وكأن يربأ بنفسه عن مثل هذه الصغائر؛ حيث يقول بشيء من الحزن: "من المعروف أنه حيث تصطدم المصالح البريطانية والفرنسية في بلاد أجنبية، لا بد من حدوث الغيرة والامتعاض، ومع أنني حاولت دائمًا أن أتفادى مثل هذه النتائج المؤسفة، فإن واجبي الوظيفي أملى عليَّ أحيانًا أن أدخل في النزاعات[1]"، غير أنه استخدم لغة شديدة المشاكسة في كتاباته الخاصة، كما فعل في رسالة كتبها إلى لايَرْد سنة ١٨٦٠ من مسقط على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، "لا شك أن مسلمي هذه البلاد هم الأكثر ليبرالية في الدنيا؛ حيث يتسامحون حتى مع دين الهندوس بينهم، وأعتقد أن هذا مَرَدُّه لعدم وجود تدخل فرنسي أو كاثوليك متعصبين، وأنت تعلم أن هذين الشرين هما أساس كل شقاق! ... وبما أن العميد كوغلان غادر إلى زنجبار لم تعد هناك خشيةٌ من أن يكون لأكَلَة الضفادع أي نفوذ هناك أو هنا[2]"، وبعد أن يُثني رَسّام على التسامح الديني، ينصرف إلى ذمّ "أكلة الضفادع" الفرنسيين وقساوستهم "المتعصبين"، وهو لا يدرك المفارقة الكامنة في اللغة التي يستخدمها:

كان رَسّام مُتقدَ الولاء للبريطانيين، مُتقدَ العداء للفرنسيين، ومع ذلك كافح بلا هوادة لمجابهة مواقف زملائه الإنجليز المتعجرفة تجاه شعوب العالم العربي، كان معظم كُتّاب الأسفار الأوربيين من معاصريه يُلبِسون "الشرقيين" الذين يلتقونهم لبوسًا من الطرافة الغنية بالألوان ومن سذاجة الأطفال الممزوجة بأمارات الوحشية الهمجية الكامنة. لم تكن العنصرية الصريحة

(1) Rassam, *Asshur,* 12.
(2) Rassam to Layard, 24 December 1860; BL 38,987, f. 15.

غير مألوفة في كتاباتهم التي كانوا غالبًا ما يغلفونها بشيء من الدعابة الرخيصة، فعلى سبيل المثال، يعجّ كتاب كنت لوفتوس «أسفارٌ وأبحاثٌ في بلاد الكلدان وسُوسة» بالعداء تجاه سكان المنطقة، ومع أنه غضّ الطرف أيضًا عن حادثة العراك الأوربي المُخجِل على جسر الموصل، فإنه لم يتردد في تسلية قرائه وذلك بمقارنة مجموعة من رجال القبائل الفرس بالقرود، فهؤلاء "أغرب مجموعة من الحيوانات التي لها هيئة بشرية رأتها عيناي؛ إذ إن لهم مناكب عالية، وسيقانًا طويلة، ووجوهًا متغضنة، وإن صحَّت نظرية لامارك عن مسخ الأجناس وتحولها، فربما لهم ذيولٌ طويلة أيضًا، مع أنني لا أجزم بهذا الأمر؛ حيث لم تُتَح لي الفرصة لإجراء فحص حيواني دقيق(١)"، كان لوفتوس يكتب سنة ١٨٥٧، أي قبل سنتين من نشر كتاب «أصل الأنواع» لداروين، فكان عليه أن يعتمد على نظريات لامارك الأقدم لتمرير طرائفه التافهة المُنتنة، أما جورج سمث فقد استفاد سنة ١٨٧٤ من نظرية التطور لكي يُجري مقارنة بين العرب والقرود، "كان شيخ دُرْناق البائس المظهر نوعًا بدائيًّا من الجنس البشري يُضفي على نظرية السيد داروين شيئًا من المصداقية، ولديه ابنٌ وسيمٌ وحسنُ الثياب كأبيه، ولكن هؤلاء القوم مُتعالون لأنهم مسلمون(٢)".

وفي تناقض مقصود مع هذه التوصيفات، يبرز رَسّام في طيات كتابه «آشور وأرض النمرود» كيف كان الناس يلاقونه دومًا بالترحاب وحُسن المعاملة خلال أسفاره، ففي رحلةٍ في ثمانينيات القرن التاسع عشر تدخل للتوسط في خصومات بين عدة جماعات في أرمينيا، لكنه رغم ميوله المسيحية يقول: "لا بد أن أقول: إنني دائمًا وجدتُ أن المسلمين يسهل

(1) William Kennet Loftus, *Travels and Researches in Chaldea and Susiana* (Nisbet, 1857); quoted in Larsen, *The Conquest of Assyria*, 282.
(2) George Smith, *Assyrian Discoveries* (Scribner, Armstrong, 1875), 155.

استرضاؤهم أكثر من المسيحيين، ورغم أن المسلمين يُعدّون الأكثر تعصبا، فإنني وجدتهم عموما أكثر تسامحًا من جيرانهم المسيحيين[1]"، كان رسّام يتفق مع كثيرٍ من المراقبين المعاصرين في اتهام الإمبراطورية العثمانية الآفلة بانتشار الفساد والجور؛ حيث قال في إحدى المرات: "إن النظام متعفن حتى العظم ويحتاج إلى تطهير كامل[2]"، وفي ذات النص، يخرج عن موضوعه لكي يُعطي قراءه صورة حميمية لوالي بغداد، "لم يسبق في حياتي كلها أن أُعجِبتُ بمسؤول عثماني كما أُعجِبتُ بهذا النبيل الألباني، إنه سيدٌ بمعنى الكلمة وفي غاية اللباقة ... لا شك أن تركيا لا ينقصها رجالٌ ذوو همَم عالية ومواهب إدارية ولديهم الكفاءة للحكم بعدلٍ ونزاهة إن سُمح لهم بالتصرف كما يرغبون."

وفي مقدمة كتابه هذا، يسارع رَسّام إلى توضيح رسالته الثقافية منذ البداية: "إنني أهدف من وراء وصف أسفاري وصفًا كاملاً إلى شيءٍ واحد، وهو إظهار سهولة التعامل مع جميع سكان المناطق المذكورة في الكتاب المقدس، ولا سيما العرب، شريطةَ ألاّ يُعامَلوا بغطرسة واحتقارٍ لا يليقان[3]". ثم يعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في تلخيص تجاربه في نهاية الكتاب، "مع كل المنغصات الصغيرة والعوائق الصبيانية التي ألقيت في طريقي بين حين وآخر، ومعظمها منتوج عن مكائدَ سيئةِ التدبير، لا يسعني إلا أن أعترفَ وبكل إخلاص حقيقي أن العثمانيين عمومًا طيبو القلب ولبقون ولطفاء، وأنا شخصيًا مدينٌ لكل المسؤولين بفضلٍ كبير وأكن لهم مشاعر المودة الصادقة، ورغم أنني تعرضتُ في بعضِ الأحيان لمضايقات تخصُّ تنقيباتي الأثرية، فإنني في غالب الأحيان لقيتُ منهم منتهى اللطف والمؤازرة في كل

(1) Rassam. *Asshur,* 123.
(2) Ibid., 192.
(3) Ibid., ix.

مشروعاتي[1]"، وفي الحقيقة يصف رَسّام في متن كتابه الكثير من العوائق كما يصف أفضال المسؤولين العثمانيين الذين عرقلوا عمله كما عرقلوا جورج سمث، ولكن إصراره على إبراز "أفضال" المسؤولين يبين التزامه لمقارعة العداء الفكتوري الموجه ضد أبناء الشرق الغريب الجَهلة.

وحاشى أن تكون رؤية رَسّام مجرد دعاية لبلاده الأصلية، بل إنها ساعدته على تخطي المنغصات والعوائق التي اعترضته، فمجاملةٌ تأتي في وقتها أو التودُّد يمكنهما أن يفتحا أبوابًا لا تتزحزح أمام صخب جورج سمث أو ازدراء كِنِت لوفتوس، فعلى سبيل المثال، لقد كان أحد أسباب الخصومات المتكررة مع المسؤولين في الموصل هو أن التلال القديمة كانت تُستخدم مدافن للأموات، وبينما لم تشكل المدافن من عصور ما قبل الإسلام أي مشكلة، كان المساس بالمقابر الإسلامية مخالفًا للقانون، لكن رَسّام سرعان ما أدرك أن تعريف المسؤولين المحليين للمقابر كان مرنًا، وأن هذا يعتمد على موقفهم، سلبًا أو إيجابًا، من التنقيبات المقترحة، فرَطلٌ من القهوة يُقدَّم في اللحظة المناسبة يمكنه أن يكون أكثر تأثيرًا من التلويح بفرمان من إسطنبول النائية.

كان العمال المستأجَرون يعترضون على الحفر بين القبور القديمة، إما لأسباب دينية بحتة، أو لأنهم كان يرون بجلاء أن هذه المقابر تُستغَل من قِبل صائدي الكنوز الأجانب، فكما علم رَسّام حين نشب خلاف بين عماله، "بينما كنت أقضي يوم الأحد بهدوء في الموصل، راح عمال الشبّاك يتجادلون فيما بينهم إن كان من الصواب أن يسمحوا لمقابرهم أن تُدنَّس من أجل حُطام الدنيا، ولا سيما أن الخبثاء، وما أكثرهم، كانوا مستعدين لتوبيخهم على غبائهم في السماح لي بالتنقيب بين موتاهم، كان يُقال لهم: إنه مقابل كل قِرش

(1) Ibid., 424.

يقبضونه كنت أنا أحمل آثارًا تساوي وزنها ذهبًا[1]"، لم يكن رَسّام يتسامح مع أقوال "الخبثاء" هذه، فأهدافه بحثية وفنية وليس التنقيب عن الكنوز المدفونة، ولكن عماله الفقراء كانوا يعلمون أن هناك فجوةً هائلة بين أجورهم اليومية الضئيلة وبين الأثمان العالية التي تجلبها الآثار القديمة في الأسواق الخاصة المتنامية، فحتى والِس بَدج وجورج سمث، نيابةً عن المتحف البريطاني، كانا أحيانًا يدفعان للتجار الخاصين في بغداد مئة ضعف مما دفع هؤلاء للحصول على هذه الآثار القديمة.

حين كان رَسّام يسمع أن العمل قد توقف، كان يذهب إلى الموقع وينزع فتيل الأزمة بالدعابة، فكان يتظاهر أنه مستعدٌ تمامًا لوقف التنقيبات، ويعلن "إن استطاع الرافضون أن يحفروا ما تبقّى من الغرفة أن يُقسموا أن العظام هي عظام أسلافهم، فإني مستعدٌّ للتوقف عن التنقيب فورًا؛ لأنني أعلم أن هذه العظام قد تكون لقَتَلَة أو لأعداء أسلافهم، وهي قد أصبحت رميمًا منذ مئات السنين، كان قولي هذا يُضحكهم، فيستأنفون العمل."

¤ ¤ ¤

بلغ عملُ رَسّام أوْجَه في اكتشاف قصر آشوربانيبال، ظل آشوربانيبال وهو واحدٌ من أعظم الملوك في التاريخ الآشوري منسيًّا طيلةَ ألفي سنة، وقد ضاع اسمه لأنه لم يرد له ذِكرٌ في الكتاب المقدس ولا في أيٍّ من المصادر الإغريقية الباقية، ولكن حتى عندما عثر العمال على جدارٍ من المنحوتات المنقوشة في ضوء القمر الخافت، أدرك رَسّام أنه عثر على قصر ملك عظيم، وفي الصباح سرى خبرُ اكتشافه "كالنار في الهشيم"، فأسرع فِكتور

(1) Ibid., 219.

بلاس من قيونجيك من موقعٍ جنوب المدينة؛ حيث كان ينقِّب بلا طائل، واجه بلاس رَسّام واحتج بأنه لا يحق لأحد غيره أن ينقب في الموقع، فرد عليه رَسّام بكل هدوء أن لايَرْد كان أول من حصل على إذنٍ للتنقيب في قيونجيك وأن "السير رولنسون ليس من صلاحياته أن يتخلى عن أرضٍ لا يملكها[١]"، فما كان من بلاس الذي كان يتميَّز من الغضب إلا أن يهنئ رَسّام، على مضضٍ، على اكتشافه، واستؤنِف التنقيب.

في الأسابيع التالية راح رجال رَسّام يكتشفون غرف القصر الملكية، الواحدة تلو الأخرى، كان بعضها مدمرة تمامًا، وبعضها الآخر لها جدران فيها مشاهد مثيرة منقوشة في الحجارة، كان رَسّام مسرورًا بالنقوش التي اكتشفها؛ إذ كان يعلم أنها ستجتذب أعظم اهتمامٍ شعبي، أما أكثر الاكتشافات إثارةً فهو غرفة طولها خمسون قدمًا بعرض خمس عشرة قدمًا تمثل جدرانها مشاهد رائعة لآشوربانيبال وهو يصطاد الأُسود، تصور هذه النقوش الدرامية، التي تعد من بين التحف الفنية الآشورية - أُسودًا تهاجم عربة الملك وهو ينعطف بينها، ويسدد لها بسهامه إصاباتٍ لا تخطئ، فتصيبها في حلاقيمها أو عراقيبها، تمثل هذه الأسود، التي يبرز كل وترٍ من أوتارها بجلاء خصومًا ذوي هيبة للملك العظيم: مثيرة للرعب في غضبها، وللشفقة في موتها، بينما الدم يرغو من أشداقها.

يقول رَسّام في كتابه: "لقد جرى تصوير مكابدةِ لبوةٍ معينة مع الألم على نحوٍ جميل؛ حيث كانت تجثو على قائمتيها الأماميتين، ورأسها ممدودٌ للأمام، وهي تحاول عبثًا لَمْلَمَة أطرافها الجريحة[٢]"، أما الشخوص البشرية، فقد جرى تصويرها بواقعية لا تقل حيويةً، ويحتل آشوربانيبال مكان الصدارة

(1) Ibid., 27.
(2) Ibid., 30.

في كلِ مشهد كأنه مثالٌ مصوَر للاتزان والعزيمة بين مَشاهد من الفوضى التي تلفه من كل جانب.

لو تُرك رَسّام يفعل ما يشاء، لَركّز جهوده كليًّا على نبش مثل هذه العجائب اللافتة للنظر، ولكنه كان نظريًّا على الأقل تحت إشراف رولنسون، إلا أن اللغوي العظيم لم يكن لديه اهتمامٌ حقيقي بالفن، بل ما كان يريده هو المزيد من الألواح، وكان رَسّام محظوظًا في هذا المجال كما في اكتشافه للمنحوتات. فبعد عدة صفحاتٍ عن نقوش صيد الأُسود، يذكر رَسّام في كتابه، بشكل عابر تقريبًا أن أرضـــية الغرفة كانت مغطاة بآلافٍ من الألواح المسمارية، "في وسط الصالة ذاتها اكتشفت مكتبة آشوربانيبال، وهي عبارة عن ألواحٍ منقوشة مصنوعة من الطين المشوي من كل الأشكال والأحجـــام وأكبرها، وهي التي حظيت بترتيب أفضل، كانت في معظمها مختومةً بأختام، وبعضها الآخر كان منقوشًا برموزٍ هيروغليفية وفينيقية، وبين هذه السجلات وُجدت الروايات الكلدانية عن الخلق والطوفان[1]"، لم يكن رَسّام يدرك أنه عثر على المخزن الأساسي لواحدة من أعظم المُقتنيات الأدبية التي استُرِدَّت من العالم القديم، لم يكن هو شخصيًّا يستطيع قراءة النقوش المسمارية، كما لم يكن متأكدًا من قدرة رولنسون على فهم الألواح كذلك، "في ذلك الوقت كنت غير متيقن من القراءة الصحيحة للآشورية، أو ما يُسمّى عادةً المسمارية[2]"، هكذا يعترف رَسّام في كتابه، ثم يضيف أنه شعر "بالدهشة والارتياح" حين أعطى باحثٌ فرنسي زائر ذات المعنى الذي كان رولنسون قد اقترحه لأحد النقوش.

(1) Ibid., 31.
(2) Ibid., 32-33.



مشهد لآشوربانيبال في رحلة صيد، حوالي سنة ٦٦٠ قبل الميلاد، يبين هذا الجزء من النقوش التي اكتشفها هرمزد رسام الواقعية الحيوية للفن في عهد آشوربانيبال، يندفع حصان الملك للأمام، مشدودَ الأوتار، في حين أن الملك مثالُ الاتزان؛ حيث لا تجد خصلة شعر نافرة من مكانها، ويوشك على إطلاق سهمه المشدود إلى آخره.

كان مُقررًا أن يغادر رَسّام الموصل في نهاية السنة، ولكنه مدَّد إقامته لثلاثة أشهر أخرى، وهو ينقب مكتبة آشوربانيبال العظيمة ويفتح الغرف الواحدة تلو الأخرى المصفوفة فيها نقوش باهرة ترسم مشاهد للصيد والمعارك.

غادر العراق على مضض في آذار/ مارس ١٨٥٤، بعد أن نفد تمويل المتحف البريطاني، فتولى التنقيب كِنِت لوفتوس المموّل تمويلاً خاصًا.

لقد قام رَسّام بأهم اكتشاف في حياته، لكنه اكتشف في السنين التي تلت ذلك اكتشافًا لا يسرُّ الخاطر، وهو أن الصحافة البريطانية، بل المتحف البريطاني ذاته، راحت تنسب لُقاه لغيره، فإلى أن حان الوقت ليشحن لوفتوس حاويةً هائلة من النقوش إلى إنكلترا سنة ١٨٥٦، اختلطت مكتشفات رَسّام الكبرى مع لُقاه المتواضعة جدًّا، ولدى وصولها إلى إنجلترا نُسب اكتشاف المنحوتات إلى لوفتوس، أما في فرنسا، فقد قام فكتور پلاس، الذي ساءه تفوق رَسّام عليه، فقد محاه من مذكراته عن التنقيب وأحلَّ اسم لوفتوس محله. علاوة على ذلك، راح هنري رولنسون ينشر سلسلة من المقالات عن الألواح، واصفًا هذه الألواح، بل حتى المنحوتات، على أنها من اكتشافه هو، ورغم أن رولنسون نهى رَسّام في الواقع عن مواصلة التنقيب في قيونجيك؛ إذ كان يعتقد أن لايَرْد قد أشبع ذلك الموقع تنقيبًا، إلا أنه قرر، بأثر رجعي، أن يدعي أن اكتشاف قصر آشوربانيبال من وحيه هو في المقام الأول، بينما لم يكن رَسّام إلا "مُنقِّبًا" يُشرف على العمل.

تكاد صحيفة «أخبار لندن المصورة» **Illustrated London News** أن تنفرد في إبرازها دور رَسّام في اكتشاف النقوش الباهرة التي أرسلها لوفتوس إلى إنجلترا سنة ١٨٥٦، لكن حتى كاتب المقال لم يجد بدًّا من الحديث عن رَسّام بشيء من الاستعلاء، فعندما يشير إلى نجاح رسّام في مواصلة التنقيبات التي بدأها أوستن هنري لايَرْد، يعلق قائلاً: "لا بد أن رائد البحوث الآشورية يشعر برضى غير قليل حين يجد واحدًا من الشرقيين، الذين لا يكترثون عمومًا للأعمال الفنية، يقتدي به ويضطلع بالمهمة الموكلة إليه على أحسن وجه، بل

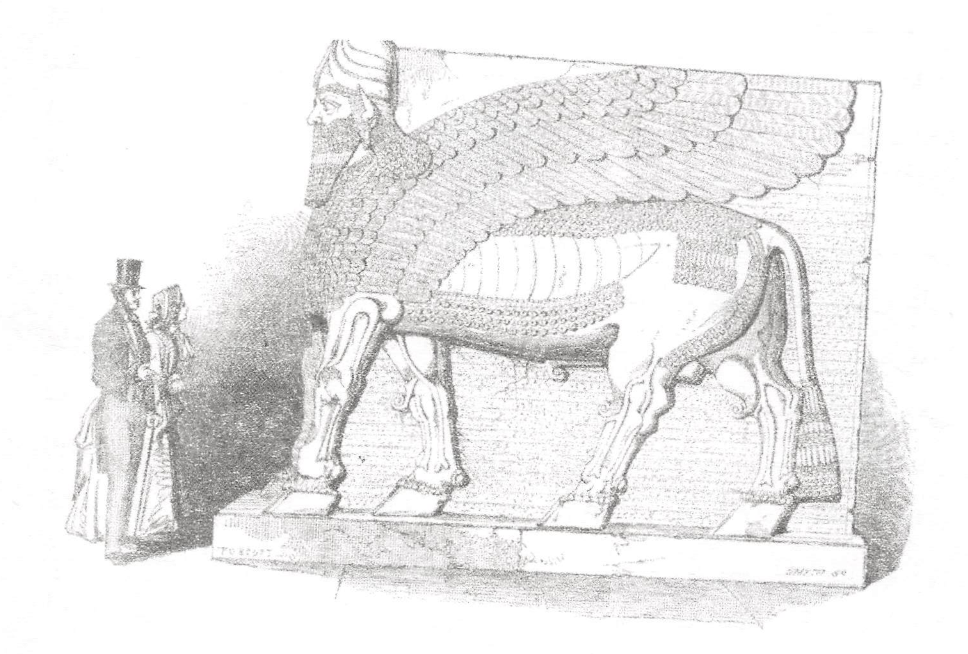
يحمل في نفسه من همة الإنجليز ما يبلّغه النجاح في مجهوداته الفردية(١)"، كان من عادة الفكتوريين أن ينظروا إلى الشرقيين على أنهم سلبيون ومخنثون بطبيعتهم؛ لذلك من الطبيعي أن "يحمل" في نفسه من همة الإنجليز ما ينجز به المهمة.

يشير الكاتب، الذي يرمي إلى الثناء على رَسّام، إلى أن هذا كان تحت ضغط من نوع خاص لكي ينجح؛ لأنه إن فشل في إيجاد أي لُقى، "لا تنفع همةٌ ولا مثابرة ولا جدٌّ في حماية هذا المنقِّب من لومٍ لا يستحقه، اللهم إلا لكونه أجنبيًا يحتل موقعًا ألْيَق بإنجليزي(٢)"، ومع أن رَسّام يُورِد هذا القول في مذكراته، فإنه لا يعلق على هذا الوصف الغريب الذي يجعل منه "أجنبيًّا يحتل موقعًا ألْيَق بإنجليزي"، مع أنه كان ينقب في التلال القريبة من مسقط رأسه، بيد أن صديق عُمره هنري لايَرْد لم يتردد في إعطاء تفسير صريح للمعاملة الجائرة التي لقيها رَسّام من زملائه ومن الصحافة على حدٍّ سواء، فقد صرح لايَرْد أن رَسّام كان "واحدًا من أكثر الناس الذين عرفتهم نزاهةً واستقامةً، لكن لم يُعترف بخدماته الجليلة؛ لأنه 'زنجي' ولأن رولنسون كدأبه ادّعى لنفسه فضل اكتشافات رَسّام(٣)"، فهل كان رَسّام عالِمَ آثار أم مجرد "منقب،" سيدًا أم "زنجيًا"؟٤ إن هذه الالتباسات التي لازمت هوية رَسّام ستلقي بظلالها على كل إنجازاته، بما في ذلك نجاحه - أو فشله - العظيم في مهنته الدبلوماسية التي تحوّل إليها تاليًا.

---

(1) Ibid., 40.
(2) Ibid., 41.
(3) Layrad to Sir William Gregory, 8 December 1888, BL 38,950, f. 162.
(٤) كلمة 'زنجي' في هذا السياق هي تعبيرُ قدحٍ وذمٍّ عام، وليس لها أي مدلول عرقي أو لوني خاص. [حاشية المترجم].

القلعة والمتحف



الثور ورُوّاد المتحف

كان رَسّام بعيدًا عن إنجلترا حين بدأت مقالات وكتبٌ تظهر وتنسب عمله لغيره، ولما كان رَسّام بحاجة إلى وظيفة بعد عودته من العراق، فقد نجح في الحصول على وظيفة سياسية كما كان يأمل، كان لايَرْد حينها عضوًا في البرلمان، فاستطاع أن يتوسط لدى وزارة الخارجية لمنح صديقه منصبًا في القنصلية البريطانية في عدن، وهي قاعدة استعمارية متقدمة في اليمن في أقصى جنوب الجزيرة العربية، كانت عدن المنكوبة بالحرارة والعواصف

الرملية التي تعمي الأبصار بلدة خاملة تتوقف فيها السفن الخارجة من البحر الأحمر في طريقها إلى الهند، ورغم أن هذه الوظيفة لم تكن ما سعى إليه رسّام، فإنها تتطلب منه التفرغ الكامل كما كانت خطوة أولى في سلم الدبلوماسية، فقبلها رسّام بسرور، وسرعان ما استهلكته مسؤولياته الجديدة، فلم تترك له مجالاً للتفكير في علم الآثار، تنقل رسّام بين عدة وظائف في عدن، من مدير للبريد ورئيسٍ للشرطة إلى قاضٍ وملحقٍ سياسي، وأخيرًا أصبح نائبًا لرئيس البعثة.

لقد جاهد رسّام في عمله في السياسة كما في الآثار أن يلطف من الاستبداد الذي غالبًا ما مارسه البريطانيون في الشرق، حتى وهو يعمل على جلب فوائد الحضارة الغربية للمجتمعات القبلية التي عايشها في الجزيرة العربية، كان يفتخر أنه خلال توليه القضاء لم يستأنف أحدٌ قط حكمًا أصدره في آلاف القضايا، وفي عام ١٨٦٠، ذهب في مهمة دبلوماسية للمساعدة في حل خلاف حدودي مع إمارة مسقط، ونجح في إقناع إمام مسقط لإجراء إصلاحات مهمة، وكما كتب إلى لايرد: "إن سموه يفعل كل ما أنصحه به، ويسود في الحقيقة بيني وبينه تفاهم ممتاز إلى درجة أنني أظن أنه سيفعل كل ما أطلبه منه[(١)]"، امتعض رسّام حين وجد أن اللصوص في مسقط يعاقَبون بقطع أيديهم، لكن ما أن شرح للإمام أن "هذه العقوبة يُنظَر إليها في العالم المتحضِّر على أنها شيءٌ مرعب وأخبرته أن الحكومة البريطانية سيسرها سرورًا عظيمًا إن أُلغيت هذه العقوبة تمامًا، فاتّبع نصيحتي فورًا وهو مسرور الخاطر".

وعندما تمت تسوية النـــزاع الحدودي وعاد رسّام إلى عدن، كتب الإمام إلى رؤساء رسّام بنبرةٍ صادقة الحزن: "إن فراقه يُحزننا بما يعجز عنه الوصف؛ إذ لم نرَ منه منذ إقامته بيننا إلا كل اهتمامٍ ولباقة، وكان دائمًا يتشوق

(1) Rassam to Layard, 24 December 1860. British Library. Add. Mss. 38, 987, folio 15.

لخدمتنا؛ لأجل هذا يحزن القلب ويأسى أيما أسى، ولكن أوامركم فوق كل اعتبار ويجب أن تُطاع[١]".

وبعد بضع سنوات من هذا النجاح، وَضعت مهارات رَسّام الدبلوماسية تحت الاختبار في أخطر مهمة توكَل إليه في حياته، كانت هناك حربٌ أهلية يزداد أُوارها في الحبشة (التي تُسمى اليوم إثيوبيا) في القرن الإفريقي، على الضفة الأخرى للبحر الأحمر مقابل عدن، كان ثيودور ملك البلاد قد توصل إلى قناعة أن شرذِمة المبشرين والتجار الأوربيين في بلاده كانوا متواطئين مع أعدائه، فاعتقلهم سنة ١٨٦٤ مع أطفالهم ونسائهم، وكان عداؤه موجهًا بشكل خاص نحو القنصل البريطاني، النقيب تشارلز دَنكَن كاميرون، الذي تصادق مع أسقُف مصري يراه ثيودور عدوًّا لدودًا له، ومما زاد في الطين بلةً أن المبشرين الإنجليز، الذين أرسلتهم الجمعية اللندنية لهداية اليهود، قد كتبوا أشياء حمقاء عن ثيودور في كتابٍ ورسائل بعثوا بها إلى أهلهم في إنكلترا، ففي إحدى الرسائل يُشار إلى الملك بعبارة "صاحب الجلالة المتوحش[٢]"،ولدى ترجمتها – إما جهلاً أو خبثًا – للملك بعبارة: "مَلك الوحوش البرية" كان وقعها أسوأ من العبارة الأصلية، وأغلب الظن أنها تُرجمت هكذا بخبث؛ إذ كان هناك مغامر فرنسي يُدعى باردل، ويعمل لدى الملك فاستخرج الرسالة التي تُجرِّم كاتبها، وهذا مثال صغير آخر على التنافس الأوربي المشين في بلاد نائية، أمر ثيودور باعتقال كاميرون مع عدد من المبشرين الإنجليز والألمان، تم وضعهم في

(1) Quoted by Rassam in a letter to Layard, 5 September 1892, BL 39,099, f. 87.
يبدو أن هناك تصحيفا قد وقع على تاريخ الرسالة المذكورة في هذه الحاشية، فلعل التاريخ هو سنة ١٨٦٢، وليس ١٨٩٢، فإذا كان رسام قد ذهب سنة ١٨٦٠ لحل الصراع الحدودي، فهل يُعقل أن يكتب رسالة إلى لايرد عن هذا الموضوع بعد اثنتين وثلاثين سنة من حل الخلاف؟ [حاشية المترجم].

(2) Quoted in Rassam, *Narrative of the British Mission to Theodore, King of Abyssinia* (John Murray, 2 vols., 1869), 1:301-2.

السلاسل، وتعرض كاميرون للتعذيب، وقد كتب لاحقًا: "لقد كوَّروني حتى برز رأسي من بين فخذيَّ، وظلوا يجلدون ظهري العاري، وأنا في هذه الوضعية المؤلمة، بسوط مصنوع من جلد فرس النهر حتى تقرَّح ظهري كله، وبينما كان الدم يسيل من ظهري المُضرَّج كانوا يدحرجونني في الرمال(١)".

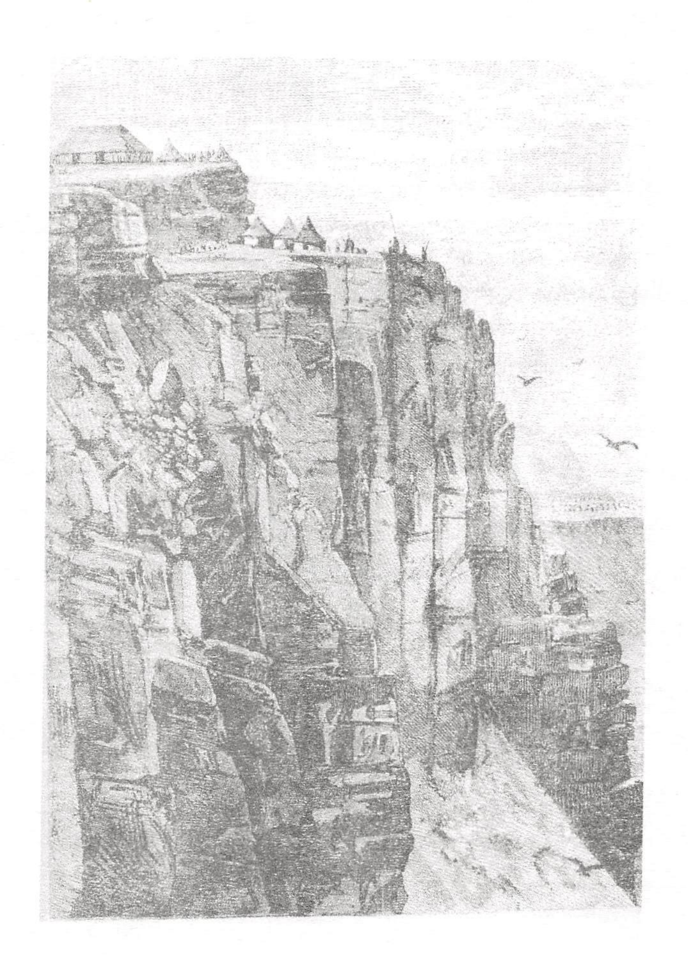
وجدت الحكومة البريطانية نفسها في مأزق؛ إذ لم يكن لدى إنجلترا أية قوة عسكرية قريبة من الحبشة، كما أن إرسال جيش من الهند آلافَ الأميال أمر مكلف، فحين يصل الجيش إلى الحبشة، فعليه أن يشق طريقه عبر جبالٍ وعرة مسافة أربعمئة ميل لكي يقتحم حصن ثيودور في مجدالا، وهي نَجْدٌ محصن يرتفع ألف قدمٍ عن الأراضي المحيطة به، كل هذا من أجل إنقاذ حفنة من السجناء، وعلى فرض ألا يكون المدافعون قد أجهزوا عليهم في هذه الأثناء.

إلا أن "التمرد" الهندي (كما سمّاه الإنجليز) كان قد حدث قبل سبع سنوات فقط، وكاد أن يقضي على الحكم البريطاني؛ لذلك لا يمكن تجاهل التحدي المباشر الذي شكله ثيودور لمكانة البريطانيين؛ لذلك اختارت الحكومة الحل الدبلوماسي. في هذه الأثناء كان هنري لايَرْد قد صار نائبًا لوزير الخارجية، فارتأى أن صديقه هُرْمُزْد هو خير من يرسله؛ نظرًا لريبة الملك في الأوربيين، وهكذا أبحر رَسّام من عدن بالباخرة مجتازًا البحر الأحمر في شهر تموز/ يوليو سنة ١٨٦٤ وحاملاً رسالة من الملكة فكتوريا توبخ فيها الملك بلباقة على فعلته غير السديدة، لكنه تعده بإقامة علاقات صداقة إن أُطلق سراح الرهائن.

غير أن إستراتيجية الدبلوماسية الهادئة كانت تعترضها مشكلة واحدة فقط، لقد كان الملك ثيودور مجنونًا، كان اسمه لدى مولده كاسا، وهو ابن واحد من صغار الزعماء، وقد حقق منذ سن مبكرة نجاحاتٍ في كسب السيطرة على زملائه من

(1) Quoted in Henry Morton Stanley, *Coomassie and Magdala: The Story of Two British Campaigns in Africa* (Harper & Brothers, 1874), 281.

سادات الحرب، كما أن صعوده السريع ولَّد قناعةً أن الله اجتباه لتحقيق إرادته على هذه الأرض؛ لهذا سمى نفسه الإمبراطور تِوُودروس، وهذا الاسم هو النسخة الإثيوبية للاسم الإغريقي ثيودوروس الذي يعني "هبة الله" كان يحلم في غزو عدوَّيْه في الشمال: مصر والسودان، ومن هناك كان ينوي طرد الإسلام من الأرض المقدسة ويغزو الهند، سائرًا على خطى جده المفترض الإسكندر الأكبر.



قلعة الملك ثيودور في مجدالا

وقد سار الجزء الأول من برنامجه الإلهي هذا سيرًا حسنًا، وأفلح ثيودور في توحيد الحبشة، كان إستراتيجيًا داهية، وفارسًا استثنائيًا ماهرًا، ورجلاً ذا سحر وجاذبية هائلة، وقد قام بإصلاحات متعددة في بلاده، بما في ذلك إلغاء الرّق وبناء هيئة وطنية أولية للحكم، إلا أن زعماء القبائل في البلاد قاوموا محاولاته لإخضاعهم وتحويلهم إلى مرؤوسين مأجورين، وفي نهاية المطاف تحول الغليان المعارض إلى حرب أهلية شاملة، في بداية الستينيات من القرن التاسع عشر، كان ثيودور يلجأ إلى إجراءات متزايدة القسوة ضد المتمردين، وكانت إحدى وسائله المفضلة إذا تمردت عليه إحدى القرى أن يحشر جميع سكانها في بناية معينة، ثم يحيطها بالحطب، ويحرق الجميع وهم أحياء، أما الأفراد، فكانوا يخضعون للموت البطيء؛ حيث كانت تقطع أطراف الشخص بكل عناية وذلك عن طريق ليِّ هذه الأطراف بغية الحد من فقدان الدم، ثم يُترك الضحية المُشوه الجسد في العراء تحت رحمة الألم؛ ليموت من الجوع والعطش.

وبعد أن ماتت زوجته المحبوبة، راح الملك يواسي نفسه بالإكثار من الشراب والعشيقات بشكل شبه يومي، صار يرى مؤامرة في كل مكان وتحولت مخاوفه إلى نوع من الوسواس؛ يقول رَسّام: "إذا عكف على الشراب، فيكفي عارضٌ من شك أو تقرير خبيث أن يجعله يأمر بقتل مئات من الرجال ربما لم يكن يُكِنّ لهم قبل بضع دقائق إلا كل مودة[١]"، وبحسب رأي د. هنري بلانك، وهو أحد رفاق رَسّام: "كان تعبير عينيه الداكنتين الغائرتين قليلاً غريبًا، فإن راق مزاجُه، رقّتا كأن فيهما من خوف الغزال ما يجعلك تحبه، وإن غضب فإنهما تَحْمَرّان وكأنهما تقدحان شررًا[٢]"، ومع أن ثيودور كانت تنتابه نوباتٌ

(1) Rassam, *A Narrative*, 2:97.
(2) Dr. Henry Blanc, *A Narrative of Captivity in Abyssinia: With Some Account of the Late Emperor Theodore, His Country and People* (Smith, Elder, & Co, 1868, repr. Frank Cass & Co., 1970), 10.

من الغضب المتوحش، فإنه بحسب رأي بلانك "حتى حين التقيناه قبل بضعة أيام من موته ظل يحتفظ بكل ما للسلاطين من هيبة، وبما لأشد الأسياد تهذيبًا من كياسة وحسن خلق، كانت ابتسامته في غاية الجاذبية، وكلماته في غاية العذوبة واللباقة إلى درجة تجعل المرء لا يصدق أن هذا العاهل الدمث ليس إلا مُرائيًا صرِفًا".

لم يلتقِ ثيودور إلا قلةً من الأجانب، فكان رَسام متفائلاً وهو يعبر البحر الأحمر ويتباهى بأنه يحمل لقب "مبعوث فوق العادة" وفي مهمة حساسة، فقد نزل هو والدكتور بلانك في ميناء مُصَوَّع الشديد الحرارة الواقع على أطراف الحبشة، فأرسل رُسلاً إلى الداخل طالبًا الإذن لجلب رسالة الملكة، ثم بدأ الانتظار، لكن ثيودور إما أنه لم يكن يكترث لاستقبال سِفارة رَسّام أو لم يكن لديه سبيلٌ لضمان مرورٍ آمن للدبلوماسيين عبر بلاده الثائرة، ولمدة سنة ونصف تقريبًا جعل رَسّام ينتظر وهو يعد الساعات في مُصَوَّع، وهي بلدة مليئة بالذباب ومعرضة للكوليرا وتشتهر بحرارتها الشديدة التي قد تبلغ ١٢٠ درجة [فهرنهايت] في الظل الضئيل، وبينما كان رَسّام ينتظر هناك، نزل مبشر ألماني لتوه من السفينة ومات من ضربة شمس بعد مسيرٍ واحد حاسرَ الرأس، كان رَسّام يلجأ في الأيام الحارة إلى لف رأسه بمنشفة مُرطَّبة بالماء، كان الطعام في غالب الأحيان شحيحًا، وقد عاش رَسّام وبلانك طيلة شهر كامل على الأرز ومشروب البراندي (ماركة هِنِسي).

قضى رَسّام وقته يُغربل شائعاتٍ لا تنتهي عن موعد السماح له بلقاء الملك والطريقة التي سيتم بها هذا اللقاء، وفي الكتاب الذي كتبه عن هذه الفترة، «حكاية البعثة البريطانية إلى ثيودور ملك الحبشة»، وصف رَسّام الضجر الشديد الذي عاناه جراء الانتظار الطويل الذي لم يكن يقطعه سوى تقارير مشؤومة عن المجازر التي تُرتكب في الحرب الأهلية الدائرة في الداخل، فكل

شخص تحدث إليه نصحه بالتخلي عن مهمته، وحتى القنصل الأسير كاميرون كان غير متفائل؛ حيث قال لرَسّام في رسالة هُرِّبت إليه: "أناشدك الله ألا تفكر في المجيء سواء أأعطاك الأمان أم لم يُعطه. فلن تُكلَّل مساعيك إلا بالأصفاد[1]".

وعندما طال الانتظار، قررت الحكومة البريطانية أن تضفي على بعثة رَسّام ثقلاً عسكريًا، وهكذا أُرسل ملازمٌ يُدعى بريدو من عَدن للانضمام إلى رَسّام والدكتور بلانك، وفي تشرين الأول/ أكتوبر من سنة ١٨٦٥ حصلوا أخيرًا على الإذن بالمسير نحو الداخل، في البداية جرى استقبالهم، لكن ثيودور قرر بعد ذلك أن رَسّام وحاشيته متواطئون مع أعدائه فحبسهم جميعًا أيضًا، ولمدة سنتين تقريبًا وُضِع رَسّام وبلانك وبريدو في الأصفاد في مجدالا مع كاميرون والمبشرين الذين كان ثيودور يكن لهم أشد العداء، بينما أُبقي على بقية الأوربيين وأُسَرهم البالغ عددهم حوالي العشرين رهن الإقامة الجبرية.

وحتى قبل هذه الكارثة أُثيرت بعض الشكوك في بريطانيا خلال فترة انتظار القط والفأر الطويلة التي سبقت اعتقال رَسّام حول ما إذا كان رَسّام هو الشخص المناسب للمهمة، وتكهن بعضهم (وبلا دليل) أن ثيودور امتعض؛ لأن بريطانيا لم ترسل له إنجليزيًا حقيقيًا للتفاوض معه، كان رَسّام قد أصبح مواطنًا بريطانيًا، لكن بعض أعضاء البرلمان العدائيين ظلوا يطلقون على رَسّام أوصافًا مثل "آسيوي"، "سيد شرقي"، "عُثماني"، بل حتى "أرمني[2]"، وهذا الوصف الأخير مُجاف للحقيقة تمامًا، ومن اللافت للانتباه أن لا أحد انتقد الملازم بريدو، الذي أُلْحِق بالبعثة لإعطائها وزنًا بريطانيًا؛ لأنه فشل في إجبار الملك الممْسوس على رؤية المنطق.

---

(1) Rassam, *Narrative*, 1:76.
(2) Percy Arnold, *Prelude to Magdala: Emperor Theodore of Ethiopia and British Diplomacy* (Bellew, 1992), 175-76, 221-23.

وبعضهم الآخر شكك في شخصية رَسّام لا أصله الإثني؛ حيث قالوا: لعله من اللطف والتردد بمكان يعوق إطلاق سراح الرهائن، أو تساءلوا: هل فيه من الرجولة ما يؤهله للقيام بالمهمة؟ وقد قارن صحفي في وقت لاحق بين منهج رَسّام "الانبطاحي" وبين الرسائل "المفعمة بالهمة والرجولة[1]" التي كتبها زميله في الأسر د. بلانك، ناسيًا أنه يقارن بين رسائل كتبها رَسّام للملك ثيودور ورسائل كان بلانك يُهرِّبها إلى أصدقائه في إنجلترا، بالمقابل: كتب أحد المبشِّرين الأسرى فيما بعد أن رَسّام كان دائمًا يسلك سلوك "المسيحي والجنتلمان[2]" وقد رفض أن تُرهبه تهديدات ثيودور، قال المبشر: إن رَسّام ساعد قضيتهم وذلك بإتقانه فن البلاغة الحبشي المتأنق الذي استخدمه لغايات إستراتيجية ناجعة، "كانت رسائله مفعمة بلباقة وبراعة نالت إعجاب كل من التقاه"، ولكن حين نُشرت رسائل رَسّام، بدت لكثير من قرائه كأنها مُداهنات جبان، وبعد ست سنوات من إنقاذ الرهائن نهائيًّا، نشر هنري مورتن ستانلي كتابًا عن الحملة على إثيوبيا، وقد سلط ستانلي، الذي لم يأل جهدًا للانتقاص من رَسّام، سلط الضوء على خنوع رَسّام العبودي أمام ثيودور: "كانت تحيته ذليلة. ... كان رَسّام يشرب الأنخاب بصحة الإمبراطور بدماثة مذهلة وحماسة عجيبة. ... وكانا قبل أن يفترقا ليلاً يتبادلان أرق عبارات المحبة[3]".

وبعد مرور قرن على هذه الصورة النمطية التي رسمها ستانلي لرَسّام التي تجعل منه شرقيًّا مخنثًا سلبيًّا، لا زلنا نسمع أصداء لهذه الصورة في توصيف ألَن مورهد الكلاسيكي عن الحملة إلى الحبشة، ففي كتاب «النيل الأزرق» يبدأ مورهد بقوله: إن رَسّام "كان كفوءًا حقًا .... فهو رجل مطواع

(1) G. A. Henly, *The March to Magdala* (Tinsley Brothers, 1868), 182-83.
(2) Henry Stern, *The Captive Missionary: Being an Account of the Country and the People of Abyssinia, Embracing a Narrative of King Theodore's Life, and His Treatment of Political and Religious Missions* (Cassell, Peter, and Galpin, 1869), 360.
(3) H. M. Stanley, *Coomassie and Magdala*, 431.

ومثابر، ولا تنقصه الشجاعة إطلاقًا[١]"، ولكن مورهد في النهاية يتكئ على التفسير التقليدي القائل: إن رسّام كان مخنثًا لا يصلح للمهمة، ويدّعي مورهد أن "هناك شيئًا محيرًا حول رَسّام، فرغم أنهم كانوا جميعًا عاجزين في مجدالا، فإنه يبدو أحيانًا رقيقًا جدًّا ومطواعًا جدًّا ومستسلمًا جدًّا إلى درجة تضر به، فعلاقته الحميمة مع ثيودور لم تكن من صنعه هو لوحده، ولكنه نوعٌ خاص من الحميمية، فهو يستسلم بسلبية الأنثى ... ولا يوجد كبيرُ شكٍّ أنه كان منجذبًا بقوة إلى ثيودور كما كان ثيودور منجذبًا إليه." وفي رأي مورهد لم يكن رَسّام دبلوماسيًّا مُحاصرًا بقدر ما كان زوجةً مُعَنَّفة كلما ضُرِبت قالت: هل من مزيد.

لكن ماذا عسى رَسّام أن يفعل؟ ففي فترة الانتظار الطويلة في مُصوع ثابر في محاولته الوصول إلى الحبشة، ومن غير المعقول أن تغزو بعثته البلاد وهي تتألف من ثلاثة رجال، وكانت الحكومة البريطانية تُفضل أن تستنفد كل الوسائل الدبلوماسية قبل أن تفكر في إرسال جيش، لما في ذلك من مخاطرة وتكلفة هائلة، وحين حصل رَسّام على إذن ثيودور للقائه، تطلب الأمر شجاعة بالغة للقيام بالرحلة؛ إذ كان يعرف تمام المعرفة أنه يخاطر بحياته، وخلال فترة حبسه التي تلت ذلك، كان رَسّام يعرف أن مصيره "رهنٌ بنزوة صاحب الجلالة المقامر[٢]"، وكان مضطرًّا للدخول مع ثيودور في مبارزة فكرية، وكان يسعى إلى استخدام مزيجٍ من الإطراء والمرافعة الأخلاقية والضغط السياسي لينقذ نفسه وزملاءه السجناء.

بيد أن ثيودور كان لا يهتز له ساكن جرّاء الحجاج السياسي، فحين حذره رَسّام قائلًا: إن أفعاله تُغضب الحكومة البريطانية وتُقوي أعداءه، رده عليه الملك: "دعك من حكومتك ومن أعدائي، يا صديقي، لقد حسم أسيادك أمرَ

---

(1) Alan Moorhead, *The Blue Nile* (Harper Perennial, 1962), 237, 280.
(2) Rassam, *Narrative*, 2:41.

التعامل معي، أما أعدائي فسيبثون إشاعاتهم الشريرة عني حتى لو وضعتك على رأسي[١]"، كان ثيودور يعرف أن الحكومة البريطانية تقيم وزنا لتحالفها مع عدوته الإسلامية مصر أكبر من تحالفها مع الحبشة المسيحية، وقد سَجَن ثيودور القنصل كاميرون بعد أن فشل هذا في الحصول على جوابٍ على اقتراحه أن يُرسل وفدًا إلى إنجلترا للتباحث في إقامة تحالف معها، نظر ثيودور إلى عدم الرد على أنه إهانةٌ له، وإشارةُ دعمٍ لمصر التي راحت تزود محالج إنجلترا بكميات متزايدة من القطن، وكما قال أحد المراقبين البريطانيين: قرر وزير الخارجية بهدوء "أن يسحب ما يستطيع من التحالفات مع الحبشة، وكانت سياسته قائمة كليًا على رغبته في تعزيز التجارة[٢]"، ربما لم يكن ثيودور أول زعيم حرب (وبكل تأكيد ليس آخرهم) يحاول أن يستميل قوةً إمبريالية عن طريق أخذ الرهائن حين فشلت مساعيه الدبلوماسية العادية.

حُبِس رَسّام وكاميرون وعدةٌ آخرون في كوخ مستدير يبلغ قُطره خمس عشرة قدمًا، وكانوا غالبًا ما يُصفَّدون بالسلاسل، وكان موقف ثيودور تجاه الأوربيين يتغير طبقًا لمزاجه المتقلب، فحين طلب منه مُتسوِّل أن يتصدَّق عليه بمثل ما تصدق عليه "السادة الإنجليز[٣]"، أعلن ثيودور أنه هو السيد وأن الإنجليز هم عبيده، وبرهانا على ذلك أمر ثيودور أن يُضرب المتسول حتى الموت في الحال، ولكنه أيضًا كان يُرسل إلى رَسّام رسائل تعبر عن صداقته الأبدية، "يا حبيبي، ابعث إلي بكل احتياجاتك، وسألبيها جميعًا، لا تخشَ شيئًا[٤]". كان في غالب زياراته إلى السجناء يُقرِّعهم على سيئات أعمالهم الكثيرة، وفي

(1) Ibid., 2:154.
(2) Clements R. Markham, *A History of the Abyssinian Expedition* (Macmillan, 1869), 78.
(3) Rassam, *Narrative*, 2:157.
(4) Ibid., 2:240.

آخر النهار قد يأتي لهم بالشموع والبيرة، ويسكب لهم الشراب بيده، وفي يوم من الأيام قال لرسّام وهو يبتسم: "كنت أسمع أن قومي ينعتوني بالجنون لأفعالي، ولكني لم أصدِّقهم قط، أما الآن، وبعد سلوكي معكم عصر هذا اليوم، فقد توصلت إلى قناعةٍ أنني فعلاً كذلك[١]".

¤ ¤ ¤

ولما دخلت الأزمة سنتها الثانية من ١٨٦٦ حتى ١٨٦٧، بدأت المعارضة في البرلمان تتهم الحكومة بالضعف والتخاذل، وراحت الصحف تنشر تقارير فظيعة عن معاناة الأسرى، فلا بد من فعل، وهذا ما حصل أخيرًا، تلقى الجنرال السير روبرت نابيير أمر تشكيل قوة غازية في الهند، وبعد عدة أسابيع من الاستعدادات المحمومة وصلت القوة في شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٦٨ إلى خليج آنسلي، وهو ميناء على البحر الأحمر في أطراف الحبشة، كان نابيير على رأس قوة تتألف من حوالي خمسة آلاف جندي إنجليزي وعشرة آلاف جندي هندي، وقد بلغ عدد السرايا مع عناصر الدعم اللوجستي أكثر من أربعين ألف رجل، بالإضافة إلى ٢٥٣٨ حصانًا، و١٦٠٢٢ بغلاً، و٤٧٠٠ جمَل، و١٧٠٩ حمير، وأطرف ما في الأمر، ٤٤ فيلاً هنديًا كانت مزودة بهوادج خاصة لحمل قطع المدفعية عبر الأرض الجبلية[٢].

(1) Ibid., 2:156.
(2) Statistics from Stanley, *Coomassie and Magdala*, 507-10.



الميجر جنرال تشارلز ستافلي، أحد أقرب أعوان نابيير

ضم جيش نابيير أفرادًا من السيخ المُعمَّمين، وقنّاصةً بنجابيين، وجناح البَلوش السابع والعشرين، وخبراء متفجرات من بومباي ومَدراس، وفوجًا من خَيّالة السند، أما قواته الإنجليزية فقد ضمت حرس الفُرسان الثالث، فوج دوق ولنغتُن، ومُشاة شيروود، كانت السرايا يقودها ضباط بريطانيون متمرسون، كان كثير منهم يطلقون لحاهم حتى لَتبدو كأنها تحصينات مُرعبة، بل إن جيش نابيير ضم سرية من رجال المدفعية البحرية الذين جيء بهم لتشغيل مدافع الهاون المبتكَرة حديثًا، وقد كان هؤلاء يسلون رفاقهم من القوى البرية بتسمية بِغالهم سُفنًا "تستدير عن مَهبِّ الريح" أو "تمخُر عُباب الحشود(1)"، ونشأت

(1) Henty, *The March to Magdala*, 356.

صداقات عظيمة بين البحّارة والبنجابيين، فكانوا يرقصون في الأماسي على أنغام فرقة موسيقى الجيش البنجابية التي كانت تقوم مقام اللغة المفقودة بينهم.

قد يبدو جلب فرقة موسيقى الجيش البنجابية ضربًا من الإسراف، ولكن السير روبرت لم يكن يفوته شيء، فلم يدخر ثمنًا - بل بذّر الكثير - في الهبّة لتجهيز قوة غازية، وقد بلغت الكلفة النهائية للحملة عشرة ملايين جنيه إسترليني، أي ما يُعادل مليار دولار تقريبًا في أيامنا، وهي ثلاثة أضعاف ما توقعته الحكومة، استأجر نابيير حوالي سبعمئة سفينة لنقل رجاله، ودوابّه، ومؤوناته، بما في ذلك ٢٨٠٠٠ طن من الفحم، وكميات هائلة من الرّم للرجال، والنبيذ للضباط، وصندوق شامبانيا للاحتفال بالنصر المتوقع، بل إنه جلب قاطرتين وسكة حديد بطول عشرة أميال، وذلك لنقل كل شيء من الشاطئ إلى معسكره في الداخل، ولتأمين الاتصالات من الشاطئ إلى مجدالا، فقد جلب معه أسلاك تلغراف بطول أربعمئة ميل مع العدد اللازم من الأعمدة لرفعها، غير أن هذا الجهاز لم يعمل إلا بشكل متقطع؛ حيث كانت السعادين تتسلق الأعمدة ثم تلف ذيولها حول الأسلاك وتبدأ تتأرجح حتى تقطعها(١).

شق جيش نابيير طريقه إلى مجدالا ببطء عبر الجبال، فكان يتأخر عدة أيام متوالية بينما يقوم المهندسون بشق طرق صالحة للاستعمال، كانت المعابر الجبلية الشاهقة تشكل صعوبة خاصة للفِيَلة، "كان صعود ١٥٠٠ قدم يُنْبئ بالمشقة التي واجهتها، وكان زفيرها المكدود وبُواقها العالي يَشِيان بمعاناتها"(٢)، أصبح الطعام والشراب شَحيحَيْن إلى درجة مؤلمة، وصارت نوعية كلٍّ منهما تنحدر تدريجيًا كلما أوغل الجيش في الداخل، وكتب أحد الصحفيين بنبرة حزينة: "لقد رأيتُ الرّم يُشرب وقد انتحرت فيه الصراصير. ... أما عن الطبخ

---

(1) Ibid., 296.
(2) Stanley, *Coomassie and Magdala*, 367.

فأعترف أني لا أقترب من نيرانه، لقد رأيتُ مناظر امتحنت فلسفتي إلى أبعد الحدود[1]".

كان الشك يأكل قلوب الجند؛ مما ضاعف من معاناتهم الجسدية، لم يكن أحدٌ يعرف كم من عشرات الآلاف من قوات ثيودور ظلت موالية له، هل سيتمكن البريطانيون من القتال في العراء أو سيتعرضون لكمين في وهاد الجبال؟ هل سيلتجئ ثيودور في حصنه في مجدالا أو سيختفي ببساطة مع رهائنه في البرية؟ فكما اكتشف رَسّام من قبل خلال فترة الانتظار الطويلة في مُصَوَّع، كان يستحيل على نابيير الحصول على معلومات واضحة فيما يتعلق بمقاصد ثيودور أو حتى مكان وجوده، يقول هنري مورتن ستانلي الذي رافق القوات بصفة صحفي: "لا أحد في الحبشة يقول لك الحقيقة بحذافيرها قط، فالإثيوبيون جميعًا أكذب خلق الله، وكل ما نسمعه من أخبار عن البلاد الواقعة أمامنا يتبين لنا حين نصلها أنها كاذبة. ... إنه أمر يفوق الغرابة: فكيف لامرئ، في أجواء الخداع والتضليل هذه، أن يقول كلمة حق مرة أخرى؟[2]".

أخيرًا وصل جيش نابيير إلى مجدالا في يوم الجمعة العظيمة في العاشر من نيسان/ أبريل ١٨٦٨، أي بعد ثلاثة أشهر كاملة من المسير الشاق عبر الجبال، تقدم نابيير على رأس فريق استطلاع، فوجد أن القلعة تدعو إلى التروّي، كانت منحدراتها الشاهقة ترتفع فوق نَجْد سامِق لا يصل إليه إلا طريق واحد، وللقلعة بواباتٌ متينة مجهزة بقطع مدفعية جاهزة لقصف أي غازٍ يحاول الصعود، كان معظم جيش ثيودور قد تخلى عنه خلال السنين السابقة من الحرب الأهلية، ولم يبق مواليا له إلا حوالي أربعة آلاف مقاتل مسلحين بالبنادق والرماح والقوس والنشاب، وإن استُولِيَ على مجدالا، فلن يكون هذا إلا بعد

(1) Henty, *The March to Magdala*, 283.
(2) Stanley, *Coomassie and Magdala*, 357-58.

تكبد خسائر فادحة. بدت الحبشة لبعض قدامى المحاربين في الهند شبيهة جدًا بأفغانستان؛ حيث هُزم ٤٥٠٠ مقاتل بريطاني سنة ١٨٤٢ على أيدي مقاتلين أفغان استغلوا خصائص الأرض خير استغلال ونجحوا في ذبح كامل القوة تقريبًا.

ومن المفارقة أن خطأ بريطانيًا كبيرًا هو الذي أنقذ السير روبرت وجيشه[١]، فبينما كانت قواته المنهكة المتسخة تشق طريقها عبر آخر واد يؤدي إلى المرتفع حول مجدالا، تأخرت سريةٌ مؤلفة من ثمانمئة جندي كان من المفروض أن تسبق الدواب المحمَّلة بالأمتعة والعتاد، وكما كتب أحد الصحفيين معلقًا: "وهكذا صارت الأمتعة برمتها عُرضة لهجوم من مجدالا، ولم يرتكب أحدٌ من قبل مثل هذا الخطأ الفادح، ولو أننا تقاتلنا مع أتفه قوة أوربية لا مع الهمَج، لَتكبدنا هزيمة ساحقة[٢]". انتشى ثيودور بفرصة تدمير مُؤن الغزاة وسلب كميات هائلة من الغنائم، فأرسل رجاله للانقضاض على القافلة التي بدت من مسافة ميلين كأنها بلا حول ولا قوة. لكنه لم ينتبه إلى أن نابيير كان يكمن في الجوار على سفح تلٍّ مع عدد لا يُستهان به من الجند، بينما كانت القوة الرئيسة تصعد الوهدة بخطى حثيثة خلف قافلة المؤن، كان الإنجليز قد نجحوا

---

(١) من الجدير ذكره في هذا المقام أن رواية *Flashman on the March* «فلاشمن زاحفا» (٢٠٠٥) تتخذ من حملة نابيير خلفيةً لها، وهي الرواية الثانية عشرة في سلسلة روايات فلاشمن للكاتب السكوتلندي جورج مكدونالد فريزر الذي يستقي موضوعات رواياته من الكوارث العسكرية الفكتورية. فبطل الرواية فلاشمن، المتبجح الرعديد الجبان، دائما يحاول تفادي المخاطر، ولكنه دائمًا يجد نفسه صاحب الدور الأساسي في أي إخفاق إمبريالي. لكن فلاشمن لا يخرج دائما سالما فحسب، بل يكتسب سمعة بطولية لا يستحقها إطلاقا. ويظهر هُرمُزد رسام في دور صغير في رواية «فلاشمن زاحفا». وهو مغمور حتى أذنيه بالمصائب لكنه يكافح ليفعل ما بوسعه. في حين أن فلاشمن يدخل مع ثيودور في مبارزات فكرية يائسة. وفي الحقيقة، أفضل أقوال فلاشمن مأخوذة من رسام. [حاشية المؤلف].

(2) Henty, *The March to Magdala*, 375.

في اتخاذ مواقعهم على سفوح الوادي حين أصبح الإثيوبيون ضمن المدى المجدي لنيرانهم.

ما حدث بعد ذلك كان إما نصرًا مجيدًا أو مذبحةً وحشية، وقد قال هنري مورتن ستانلي، وهو يُطِل من موقعه على سفح التل مع نابيير، واصفًا المعركة بتلك النبرة التي تحبس الأنفاس في قصص مغامرات الصبيان، "حثيثًا، حثيثًا كانوا يتقدمون، فرسانًا ومشاة، يتبارون فيما بينهم، نَضَوا عن أنفسهم ثيابهم الفضفاضة وملابسهم القطنية البنغالية، وكثيرٌ منهم تخلص من الخِرَق التي تستر عوراتهم، واندفعوا أسفل التل برماحٍ وتروسٍ في مَسانِدها، فوصلوا المرتفع، وغمروه بأجسادهم السمراء، كان يمتد أمامهم سهلٌ مفتوح راحوا يتدحرجون عليه مثل موجةٍ هائلة. ... جاء السيخ المندفعون ودماؤهم تغلي كأنها نارٌ موقَدة فالتحموا بالسلاح الأبيض مع سكان الجبال الإثيوبيين الذين يضاهونهم في الشراسة والاندفاع، حينئذٍ بدأت المعركة الحقيقية[1]".

أما جي أي هِنتي، وهو أيضًا صحفي آخر شهد المعركة، فقد وصف معركة الجمعة الحزينة بنبرة أكثر رزانةً:

> كان بإمكاني أن أرى بوساطة منظاري كل مَعْلَم مميز، وبينما كنا ننظر إليهم وهم يتراكضون إلى الأمام، وثيابهم البرّاقة تُطوِّح في الهواء، وإيماءاتهم مفعمة بالحيوية، مدججين بالتروس والحِراب، لا يسع المرء إلا أن يشفق عليهم من المصير الرهيب الذي يُقبِلون عليه، رغم أن معظمهم كانوا بلا شك متوحشين وسفاكي دماء، ولما

(1) Stanley, *Coomassie and Magdala*, 415, 421.

انحدر العدو في الوهدة استقبلتهم نيران بنادق سنايْدَر التي تحرق الأخضر واليابس، هبط جزءٌ من البنجابيين الوهدة، وهاجموهم من الخاصرة، وكانت بعضُ رشاشات مدفعيةِ بنْ، المتمركزة على حرفٍ جبلي ناتئ، تنشر الموت في كل مكان بين صفوف العدو، كانت مذبحة رهيبة لا يجدر بنا أن نسميها معركة(١).

طارد البريطانيون الإثيوبيين على المرتفع، بينما كانت العواصف الرعدية تُدَوِّي فوق رؤوسهم، كانت بنادق سنايدر التي تُلَقَّم من مؤخرتها تُطلق عشر طلقات لكل طلقة تطلقها بنادقِ الإثيوبيين الأقدم، وخلال ثلاث ساعات كان حوالي ألفي مقاتل إثيوبي إما قُتِلوا أو جُرِحُوا، أما الجيش البريطاني فلم يفقد إلا رجلين، وبعد حلول الغسق ووصل مَن بقي من الإثيوبيين على قيد الحياة إلى مجدالا حيث الأمان، ذهب هِنتي إلى الميدان حيث شدَّت انتباهه حوالي عشرين جثة في أُخدودٍ صغير، "كان بعضهم قد مات في الحال، وبعضهم جُرِح جراحًا مميتة، وكثيرٌ من هؤلاء كانوا قد سحبوا ثيابهم فوق وجوههم وماتوا صابرين مُحتسبين"، لم تكن الجثث أسوأ ما شاهده هِنتي، "كان بعضهم قد أصابته جراحٌ خطرة، فجاهد هؤلاء للزحف داخل الأدغال، واستلقوا هناك وهم يطلقون أنّاتٍ خافتة، أما صَداريهم الحريرية المُزوَّقة وثيابهم البيضاء المطرزة بأطراف قرمزية التي كانت تُرفرف بفرحٍ قبل ساعتين فقط، فقد تضرجت بالدماء وتبللت بالأمطار الغزيرة التي ظلت تهطل بلا رحمة لمدة ساعة(٢)".

(1) Henty, *The March to Magdala*, 379-81.
(2) Ibid., 382-83.

حاولِ ثيودور الانتحار تلك الليلة ولكن مسدسه ما كان يُطلق، انتزع مستشاروه المسدس منه وبعد سجال طويل حول وجوب مقتل الرهائن، كما كانت تطالب الأغلبية، قرر ثيودور أن يسلك سبيل السلام، فأطلق سراح الأسرى في اليوم التالي كبادرة حُسن نية، لكن نابيير طالبه بأن يستسلم بلا قيد أو شرط، وبعد يومٍ من التردد رفض ثيودور. حينئذ هجره كثيرٌ من رجاله وانحدروا على الطريق من مجدالا. عندئذ اقتحم نابيير الممر يوم الاثنين التالي لعيد الفصح؛ حيث كان المشاة يوفرون غطاءً ناريًا لخبراء الألغام الذين سيلغمون البوابات، كان هناك تأخيرٌ مُحرج حين وصل البريطانيون إلى البوابات، ففي لحظةٍ تليق بمونتي پايثون اكتشف خبراء الألغام أنهم نسوا أن يجلبوا معهم أي بارود، فاضطروا للعودة إلى السهل المرتفع لجلبه[1]، في هذه الأثناء قُتل مدافعو البوابات القليلون أو دُحِروا، وتمكن البريطانيون من تسلق الأسوار قبل أن يعود الخبراء البؤساء، وفي الداخل سرعان ما حوصر ثيودور ومن تبقى معه من مؤيديه في مسكن الملك، هذه المرة نفَّذ المسدس الذي وضعه ثيودور في فمه مهمته، كان هذا المسدس قد أهدته إياه الملكة فكتوريا قبل أربعة عشر عامًا بعد أن ألقى القبض على عصابة من اللصوص قتلت سلف كاميرون في القنصلية، وكان المسدس يحمل لوحة نُقشت عليها العبارة التالية:

إهداء

من

فكتوريا

ملكة بريطانيا العُظمى وإيرلندا

---

(١) مونتي پايثون شركة إنتاج سينمائي بريطانية متخصصة بإنتاج الأفلام الكوميدية والهزلية. [حاشية المترجم].

إلى

ثيودوروس

إمبراطور الحبشة

تعبيرًا بسيطًا عن امتنانها

لمعروفه تجاه خادمها بلاوْدِن

١٨٥٤[1]

استغرق إنقاذ الرهائن أربع سنوات، أما مغادرة البريطانيين مجدالا، فلم يستغرق سوى بضعة أيام، ولكنهم أقاموا أولاً مزادًا للأشياء الثمينة التي جمعوها من مسكن ثيودور، وقد وُزِّع ريعُها على المجندين، واشترى مندوبٌ عن المتحف البريطاني مجموعة كبيرة من المخطوطات الإثيوبية المزخرفة بماء الذهب، وبعد ذلك أضرموا النيران في مباني القصر، وانطلقوا من مجدالا مباشرة إلى خليج آنسلي، فحزموا القاطرتين، وأركبوا الفِيلة التسعة والثلاثين التي بقيت على قيد الحياة، وأبحروا عائدين إلى الهند.

وبعد يومٍ من محاولته الفاشلة للانتحار كتب ثيودور رسالة جليلةً إلى السير روبرت نابيير يرفض فيها الاستسلام، لكنه يحضه على البقاء طويلاً في إثيوبيا ليجلب إليها النظام، "لقد أعطاك الله الغَلَبة، لا تتخلَّ عن هذا الشعب. ... لقد أدار لي قومي ظهورهم وكرهوني؛ لأنني فرضت عليهم الجزْية، وحاولت أن أُخضعهم للانضباط العسكري، وأنت لم تتغلب عليَّ إلا بقوة أناسٍ أُخضِعوا

(1) Quoted in Stanley, *Coomassie and Magdala*, 449.

للانضباط." ثم اختتم ثيودور رسالته بوداع حزين. "أيها الناس، يا منْ أمضيتم ليلتكم تبتهجون، لا أراكم الله مكروهًا كما أراني[1]".

لم تحرك رسالة ثيودور ساكنا في نابيير؛ إذ لم يكن ينوي أن يظل لحظة واحدة أكثر من اللازم، أحد أصدقاء رسّام الإثيوبيين - كعادته صادق رسّام الكثيرين خلال أسْره - سأله عن صحة الإشاعة القائلة: إن الإنجليز سينسحبون من دون تنصيب حكومة تحل محل ثيودور، "ولما قلت لهم نعم وأن عليهم أن يتعلموا كيف يحكمون أنفسهم، ردوا عليَّ: 'تقصد أنه يجب علينا أن نذبح بعضنا بعضًا'[2]".

كان للحملة على الحبشة نتائج متباينة؛ إذ نصّب اثنان من زعماء الحرب نفسيهما لتقاسم الهيمنة على البلاد: واحدٌ في الشمال وواحد في الجنوب، فعاد شيءٌ من السلام بحلول ١٨٧٢، وحين مات أحد الزعيمين بعد عدة سنوات، سيطر الزعيم الآخر منلك الثاني على كل البلاد، واستمر حكمه حتى سنة ١٩١٣، وحقق الحكم المركزي الذي حاول أن يقيمه ثيودور، وقد نجح عمومًا في صد التدخلات المستمرة من مصر وتركيا وإنجلترا وفرنسا ثم إيطاليا، أما بالنسبة إلى البريطانيين، فقد عاد السير روبرت نابيير مع قواته إلى الهند، ومن هناك انطلق إلى بريطانيا؛ حيث استقبل استقبال الفاتحين، وقد أسبغت عليه الملكة فكتوريا لقبًا رفيعًا هو نابيير، لورد مجدالا، وكتبت عنه كتب سير زاهية، وانهالت العروض على الرهائن السابقين من دور النشر، وقد كتب عدد منهم مذكراته.

---

(1) Quoted in Captain Henry M. Hozier, *The British Expedition to Abyssinia: Compiled from Authentic Documents* (Macmillan, 1869), 206-7; also quoted, with typos, in Rassam, Narrative, 2:320-21.
(2) Rassam, *Narrative*, 2:250.

استقبل هُرمُزد رَسّام في بريطانيا من قبل أصدقائه الكُثُر، ومنحته الحكومة جائزة نقدية وقدرها ٥٠٠٠ جنيه اعترافًا منها بخدماته الشاقة، كان واثقًا أنه بذل قُصارى جهده في ظل القلق والخوف الدائمين خلال محنته التي دامت أربع سنوات، لكنه صُعِق حين وجد أن الصحافة عُمومًا قد صورته على أنه غير مؤهل، بل الأنكى من ذلك أنها جعلته مستسلمًا لمكائد الملك الشرير أو مرتشيًا، أو حاز لنفسه امتيازات على حساب الأسرى الآخرين، استقر في توكِنهام، إحدى ضواحي لندن، وشيئًا فشيئًا استعاد صحته وراح يكتب كتابه ليعرض القصة من وجهة نظره هو، وفي ختام روايته، أورد شهادة وزير الخارجية الذي أثنى على "حكمتي وتعقُّلي وحُسن إدارتي"، ثم أضاف: "إنني إذ أعتز بهذه الشهادة من حكومة جلالتها، فإني سأعتز أكثر برضا الجمهور البريطاني الذي أضع بين يديه هاهنا هذه الرواية عن البعثة إلى الملك ثيودور ليحكم عليها، ورغم أنني كلداني المولد، فإن بريطانيا العظمى هي موطني بالتبني، ورغم أنني لا أستطيع أن أدعّي أنني إنجليزي، فإنني أعتز بأنني جاهدت قَدْر مُستَطاعي لعلّي أُضاهي وفاءَ أوفى أبنائها[1]".

(1) Ibid., 2:350.



صورة المُواجِهة من كتاب هنري ستيرن «المُبشِّر الأسير»، تبدو هذه الصورة كأنها رسمُ شاهدِ عيان من زمن الأَسْر، ولكنها في الحقيقة تَخيُّل فني بعد تحرر الأسرى، يَلوح هنري ستيرن واقفًا وراء رسام (الجالس في الصف الثاني من اليسار)، وهو يُواسي زوجة المُبشِّر التي تُشبه العذراء وتتوسط المجموعة.

نشر رَسّام كتابه «قصة البعثة البريطانية إلى ثيودور، ملك الحبشة» البالغ ٧٠٠ صفحة سنة ١٨٦٩ لدى جون مَري، وهو أبرز ناشري كتب الرحلات في العهد الإمبريالي، لكنه لم يترك أثرًا كبيرًا، لم يَرُق كتابه للقارئ العام؛ لأنه كان مغرقًا في وصف الانتظار الطويل في مُصوَّع والمناورات غير المثمرة خلال الأسْر. خرج نابيير، لورد مجدالا هو بطل القصة الحقيقي، بينما لم يتمتع رَسّام حتى بدور الضحية المثالي، فهذا الدور اختُص به المبشِّرون الذين عانوا الأمرَّين من أجل دينهم، وتحملوا عذابهم بشهامة، يقول الكاهن

هنري ستيرن، "لقد كانِ المُخلِّص معي حقًا، وقد أشاع وجوده الطمأنينة والعزاء حول بيت الأسْر للمبشِّر المسحوق[١]".

لم يكن متوقعًا أن دفاع رَسّام عن نفسه في هذا الوقت المتأخر سيجعل الناس تغير رأيها السلبي الراسخ عنه منذ فترة طويلة، فعلى سبيل المثال، لا يبدو أن هنري مورتن ستانلي قد كلف نفسه عناء قراءة كتاب رَسّام قبل أن ينشر كتابه «كوماسي ومجدالا» سنة ١٨٧٤ الذي يصور فيه رَسّام تصويرًا مُهينًا، ومع أن الحكومة أشادت بعمل رَسّام، فإن بعثته لا يمكن أن تُسمى انتصارًا دبلوماسيًّا، أما وزارة الخارجية فلم تُرَقِّه إلى مناصب جديدة ذات مسؤوليات أكبر، وبدلاً من أن يعود إلى وظيفة دُنيا في مكان مغمور من العالم، قرر رَسّام أن يقبل بنصف تقاعدٍ ويستقر في إنجلترا؛ حيث راح يحضر اجتماعات جمعيات الآثار ويكتب المقالات عن قضايا دينية، وفي سن الثانية والأربعين تزوج من آن إلايزا پرايس، ابنة نقيب من الفوج السابع والسبعين من القوات السكوتلندية، وقد أنجبا ست بنات وابنًا واحدًا.

وجد رَسّام أن تجربته الحبشية "تتلاشى سريعًا كأنها حلم لا معقول[٢]"، كما يقول في ختام كتابه، لكنها تركت آثارًا عميقة في حياته، فلو أن بعثته لاقت نجاحًا أكبر، لَتَرقّى في السلك الدبلوماسي إلى مناصب ذات مسؤوليات حقيقية، كمعلمه لايَرْد، ولَمّا عاد إلى سيرته الأولى في أعمال التنقيب، ولكن احتراق مسيرة رَسّام الدبلوماسية سريعًا تركته طليقًا وعُرضةً لتجديد اهتماماته الأثرية واتصالاته مع المتحف البريطاني، وكان من نتيجة النهاية المُلتبسة للبعثة إلى الملك ثيودور أنها مهدت الطريق لما سيصبح المرحلة الكبرى في مسيرة رَسّام الأثرية.

---

(1) Henry Stern, *The Captive Missionary*, 87.
(2) Rassam, *Narrative*, 2:349.

والأنكى من هذا هو أن حساسية رَسّام لمحاولات الانتقاص والإهانات والاتهامات بعدم النزاهة فاقَمها استقبالُ الإنجليز العدائي لجهوده الدبلوماسية، فكان لذلك نتائج كارثية على تعاملاته اللاحقة مع المتحف، بدا رَسّام لعدة سنوات بعد تحريره من الأسر وكأنه في مأمنٍ من أي جدلٍ آخر، كما بدا أن حياته المهنية قد انتهت، لكن الوضع انقلب فجأة حين لاقى جورج سمث حتفه المبكر سنة ١٨٧٦، وقرر المتحف أن يواصل العمل الذي خلَّفه سمث وراءه على نحوٍ مأساوي ويُوسِّعه، أدرك أمناء المتحف قيمة معرفة الأوضاع المحلية التي كان يفتقر إليها سمث – أو لعلهم ترددوا في المخاطرة بحياة موظف آخر من موظفي المتحف بُعَيْد موت الأول – فالتفتوا إلى رَسّام مرة أخرى، وقد أرادوا منه هذه المرة أن يقوم بسلسلة من التنقيبات في عدة مواقع في العراق، من بابل في الجنوب إلى نينوى في الشمال، قام رَسّام بحملات سنوية من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢، وقام بتنقيبات في ثلاثين موقعًا أو أكثر، أسفرت بعضها عن لُقى مهمة.

لقد اشتهر معظم منقبي الآثار من خلال اكتشافاتهم في موقع أو موقعين – لايَرْد في نينوى، شليمان في طروادة وميكناي، هَوارد كارتر في قبر توت عنخ آمون – أما رَسّام فقد كانت نجاحاته متعددة، كان العراق يضم مئاتٍ من التلال الأثرية، جميعها لم يُمَس تقريبًا، وكثير منها في مناطق مهجورة لم يُبْنَ فوقها قط، كان رَسّام يتمتع بمهارة استثنائية في معرفة ما يجب تنقيبه، وكان لا يَكِلُّ أبدًا من تتبع أي رأس خيط يعطيه إياه أحدٌ من معارفه المحليين الكثر، ولكنه أيضًا كان يعمل بتوجيهات من المتحف البريطاني لإيجاد ما يستطيع من ألواحٍ ومنحوتات؛ لذلك لم يمكث طويلاً في موقع واحدٍ معين، كان علم الآثار الحديث لا يزال في مهده، وقد بدأ لتوه يطور مناهجه الشاملة التي تجعل من الغربلة المتأنية لموقع ما على مدى سنوات لنبش قرون من التاريخ طبقةً طبقة

أمرًا مُجزيًا، كان رَسّام يأسف لأنه لم يكن لديه قط الوقت الكافي لعمل أساسي مثل تتبع الأبعاد الكاملة لأسوار بابل، ولكن إن لم يعثر على أشياء يريدها المتحف، كان عليه أن ينتقل إلى مكان آخر(١).

كانت همة رَسّام تُعجب كل من يلتقيه، وقد كتب أحد أصدقاء لايَرْد البغداديين القدامى سنة ١٨٨٠: "إن رَسّام هذا ثعلب من ثعالب الصحراء في سيره من حفرة إلى حفرة ومن مكان إلى مكان، إنه يُقاسي الشدائد ويقوم بأعمال عظيمة ولكنه لا يلقى الجزاء المناسب على أتعابه، إنه يقضي حياته مثل موج البصرة في ذهابه إلى إنجلترا ليعود إلى عربستان"(٢)، وقد تركت ابنة رَسّام تيريزا البالغة من العمر تسع سنوات ذات الانطباع على هذا الكاتب، "ابنة رَسّام الكبرى تثبت أنها نمطٌ شرقي نادر واستثنائي بين جميلات جنسها في إنجلترا"، ولعل الكاتب كان يتأمل زوال الشباب حين التفت بشكل مفاجئ للحديث عن زوجة روانسون، "كانت السيدة روانسون قبل زواجها مثل غزال برّي، أما الآن فقد أصبحت كالفيل الحديدي"، واصلت تيريزا نجاحاتها وهي تكبر، فسحرت والديها بمواهبها الغنائية.

خلال أعوام التنقيب هذه، كان لدى رَسّام فِرَقٌ من المنقبين العاملين في أكثر من عشرة مواقع في آن واحد، وكان يزورهم دوريًّا، وكان ينفق جُلّ وقته على المواقع التي تكتشف فيها أفضل الاكتشافات، سفرت تنقيباته المتعددة نفائس كثيرة، بما في ذلك سبعون ألف لوح من مدينة سِبّار البابلية القديمة وبوابتان هائلتان من البرونز من بَلاوات الآشورية اللتين تحملان أرتالاً من الشخصيات الجميلة وهي تسير في موكب، هذه اللقى وغيرها جعلت أكاديمية العلوم الملَكية في تورين تمنح رَسّام جائزة كبرى سنة ١٨٨٢.

---

(1) Rassam, *Asshur and the Land of Nimrod* (Eaton and Mains, 1987), 363.
(2) Akbal al Ozalik (?)—the signature is unclear—to Henry Layard, 23 June 1880, BL39,036, f. 108.

صارت لرَسّام في هذه الأثناء مكانة عظيمة بين رواد علم الآثار، إلا أن العدد الهائل للتنقيبات يعني أنه لا يمكن أن يشرف عليها شخصيًّا لا يوميًّا ولا حتى شهريًّا؛ لذلك كان عليه أن يعتمد على رؤساء العمال للإشراف على العمل ولمنع سرقة الآثار من المواقع، ومما زاد الوضع صعوبة أن رَسّام كان يغيب لعدة أشهر سنويًّا ويعود إلى بريطانيا، ولم يكن من الممكن منع العمال من مواصلة التنقيب لوحدهم أو بيع اللقى الجديدة إلى تُجار الآثار في بغداد، ومن سنة ١٨٨٣ فصاعدًا تفاقم الوضع أكثر حين قرر رَسّام البقاء في إنجلترا، بينما كان رؤساء العمال يواصلون تنقيباتهم لصالح المتحف، وتفضل رَسّام على المتحف بموافقته على مواصلة تنسيق التنقيبات من إنجلترا على خير ما يستطيع ومن دون أجر، لكنه كان بعيدًا من المشهد.

سرت شائعاتٌ أن بعضًا من رؤساء العمال المؤتَمَنين لدى رَسّام كانوا متواطئين في عمليات نهب منحوتات من مواقع عائدة للمتحف البريطاني، بل الأنكى من ذلك أن بعض الناس كانوا يَشُكّون أن رَسّام نفسه له ضلعٌ في عمليات التجارة السرية، ربما لأنه عيَّن ابن أخيه (أو ابن أخته) نمرود[1] واحدًا من رؤساء العمال، دب القلق في نفوس أمناء المتحف، فأرسلوا والِس بَدج، وهو مساعد قَيِّم؛ ليتحقق من الأمر سنة ١٨٨٧، كان بَدج في الثلاثين من عمره في ذلك الوقت ويطمح لأن يصبح هو من يرعى مصالح المتحف الآشورية بدلاً من رَسّام الذي قد يعرف المواقع لكنه لا يستطيع قراءة المسمارية، قضى بدج شتاء ١٨٨٧–٨٨ في العراق، وقد اكتشف فعلاً أن هناك متاجرة مستمرة بالآثار المنقبة بطرق غير شرعية في مواقع تابعة للمتحف، فاستنتج أن رَسّام لا بد أن يكون متورطًا تورطًا مباشرًا، إما لأن معرفته بالعربية لم تكن

---

(١) في الحقيقة لا نعرف إن كان نمرود هو ابن أخي رسام أو ابن أخته؛ حيث إن كلمة nephew تعني الاثنين معًا. [حاشية المترجم].

بالمستوى المطلوب أو لأنه سمع ما أراد أن يسمعه، خرج بدج بانطباع أن جميع رؤساء العمال من أقارب رَسّام وأنهم يأخذون توجيهاتهم منه، ومع أن بدج لم يستطع أن يثبت شيئًا، فإنه أشاع في المتحف أن رَسّام لا يُؤمَن جانبه.

عندما بدأت هذه الاتهامات تتناهى إلى سَمع رَسّام، كان ارتباطه مع المتحف قد انتهى رسميًّا، كان قد بلغ الثانية والستين في ١٨٨٨، وقد تقاعد في مدينة برايتن؛ حيث عاش هو وزوجته في بيت عائلي شبه منعزل له مَشْربيات أمامية أنيقة، كانت مسيرته الدبلوماسية قد تعرضت للتشويه نتيجة اتهامات زائفة بالارتشاء في الحبشة، وكان يخشى أن تتلطخ منجزاته في حقل الآثار الذي عاد إليه مجددًا باتهامات مماثلة، وما زاد الطين بِلَّةً سنة ١٨٩٠ هو أن بَدج حين عُيِّن لتنقيح سجل الزوار في قسم الشرق الأدنى في المتحف البريطاني، قام بطمس عدد من إسهامات رَسّام قبل خمس وثلاثين سنة نسب فضل لُقاه الأولية عمومًا إلى رولنسون ولوفتوس، فرأى رَسّام الآن أن التاريخ يعيد نفسه بطريقة مزعجة.

ورغم انزعاجه الشديد، لم يكن بيد رَسّام من حيلة إلى أن ارتكب بدج خطأ الحديث عنه باحتقار خلال زيارةٍ قام بها أوستن هنري لايَرْد إلى المتحف البريطاني في شهر تموز/ يوليو سنة ١٨٩١، كان لايَرْد بفضل اكتشافاته المبكرة لا يزال أشهر عالم آثار بريطاني، أما الآن فهو سفير متقاعد وعضو برلمان سابق، كان لايَرْد حليفًا لا يستهان به لصديقه القديم، فصُعِق حين سمع بدج يفتري على رَسّام في صالات المتحف العمومية، بل ذهب بدج إلى حد الزعم بأن رَسّام لم يرسل للمتحف سوى كِسَر ألواح لا قيمة لها، بينما بيعت أفضل الألواح سرًّا لخاصّةِ التجار، كتب لايَرْد كل هذا إلى رَسّام، فأعطاه الدليل المطلوب لمحاسبة بدج، عندئذ كتب رَسّام إلى موند تومسن، كبير أمناء مكتبة المتحف البريطاني أو المدير التنفيذي للمتحف، طالبًا منه تحقيقًا واعتذارًا، لكن

تومسن، وهو أحد أنصار بدج، رد مدافعًا عنه، أما التحقيق الذي أجراه فلم يتعدَّ أكثر من حديث مع بدج الذي أنكر أنه صرّح بأي شيء "أمام العموم" عن رَسّام، كان بدج يأمل فيما يبدو أن يُشطَب حديثه مع لايَرْد على أنه لا يخص المتحف، صدَّق تومسن كلام بدج وأخبر رَسّام بأن القضية قد أُقفلت.

شعر رَسّام بظلم شديد، فأرسل إلى تومسن شكوى من ثمانٍ وأربعين صفحة يلخص فيها تاريخ عمله الطويل لصالح المتحف ويصر على أنه كان دائمًا يتبع أدق تدابير النزاهة، وضع لايَرْد وآخرون ثقلهم في صالحِ رَسّام، فاضطر موند تومسن أخيرًا لجعل بدج يكتب رسالة مشاكسة يقدم فيها شبه اعتذار في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١، ادّعى بدج في هذه الرسالة أنه لم يقصد أن يُفهَم كلامُه حرفيًا حين قال: "حصلنا على كل الأشياء التافهة وغيرنا حصل على كل الألواح[1]"، ثم اعتذر لقوله: إن رَسّام تربطه أواصر القربى بلصوص الآثار، ولكنه من خلال هذا أكد الادعاء القائل: إن قلة الأمانة المتفشية قد مُورست تحت حراسته.

وبدلاً من توبيخ بدج توبيخًا فعليًّا، رقّاه موند تومسن إلى منصب مدير قسم الشرق الأدنى بالنيابة، متجاوزًا بذلك عالمَ آشوريات أكثر قِدَمًا، وذلك فقط لأن هذا ضايقه بمساندة لايَرْد ورَسّام ضد بدج، كان تومسن يرى أن رَسّام كان "حساسًا بلا موجب[2]" ولم يعترف للايَرْد إلا بأن "بدج كان متهورًا فعلاً"، وهذه الإجابة يبدو أنها لا تعترض على فِرْية بدج من حيث المبدأ، بل تكتفي فقط بانتقاده لأنه عبّر عن شكوكه علنًا، كان تومسن يأمل أن تنتهي القضية برمتها

(1) In Rassam to Layard, 9 December 1891, BL 38,098, f. 130.
(2) Thompson to Layard, 26 November 1891, British Museum Central Archive, "Rassam vs. Budge, 1893," f. 20.

عند هذا الحد، كما كتب إلى لايَرْد، "أعتقد أننا لسنا بحاجة إلى مزيد من هذه العواصف[١]".

استشاط لايَرْد غضبًا، فقرر ألا يسكت، كتب رسالة إلى جريدة التايمز اللندنية ينتقد فيها بدج لمحاولته تشويه سمعة منافسه رَسّام ويتهم المتحف البريطاني بالتستر على ذلك، وبرهانًا على قوله أشار لايَرْد إلى طمس بدج لأبرز ذِكرٍ لرَسّام من دليل المتحف، وردًا على ذلك، زعم تومسن زعمًا هزيلاً، قائلاً: "صحيحٌ أن النص المُشار إليه لا يذكر رَسّام بالاسم، ولكن في دليل عمومي لصالاتِ متحفٍ عظيم يستحيل الخوض في التفاصيل الدقيقة. ... إن إغفال ذكر السيد رَسّام وإدراجه تحت عبارة 'وآخرون' لا يُقصد منها إهانته[٢]".

ردَّ رَسّام بأن رفع قضية تشهير ضد بدج، ففي شهادة خطية من سبع وعشرين صفحة قدمها لدعم شكواه، أشار رَسّام بإباءٍ جريح إلى السنوات التي اعتمد فيها المتحف عليه اعتمادًا له ما يسوغه، "إن أول مرة يساورني فيها شكٌّ أن هناك مكيدةً خفيةً تُحاك ضدي لتأليب الأمناء عليَّ كانت بعد بعثة السيد بدج الأولى إلى بغداد في بداية عام ١٨٨٨، والحقيقة أنه لم يخطر ببالي قط أنني سأُعامَل فجأةً بهذه الفظاظة التي لا أستحقها وقد أفنيتُ عمرًا في خدمة المتحف بإخلاص[٣]"، وقد اكتشف رَسّام فجأة أن "كل شيء فعلتُه لا قيمة له." ومما أثار غضب رَسّام أن يُتّهم بالسرقة بعد أن قدم خدماته الاستشارية مجانًا، وكان يزور المتحف ويكتب من برايتن على مدى سنين، "من دون أن أطالب حتى بتكاليف السفر والبريد." لذلك طلب من المحكمة أن تبرئ ساحته وطلب تعويضات قدرها ١٠٠٠ جنيه[٤].

(1) Quoted in a summary by Rassam of his complaints, BL 39,099, f. 97.
(2) Maunde Thompson, letter to the *Times* (London) 29 July 1892; ibid., f. 43.
(3) From Rassam's summary of his complaints, BL 38,980, ff. 91-92.
(4) Ibid., f. 91.

ارتكب رسّام خطأ فظيعًا في رفعه هذه القضية؛ لأن خصمه شخصٌ مراوغٌ وله معارف كُثر، كان إيرنست ألفرد تومسن والس بَدج مسلحًا بأسماء توحي بأنه من علية القوم رغم أن ظروف نشأته يلفها غموضٌ شديد، وُلد بدج سنة ١٨٥٧ في بلدة في منطقة كورنوول لأمٍّ شابة كان أبوها يعمل نادلاً في فندق محلي، ولكن هوية والد بدج غير معروفة، ترك بدج المدرسة في سن الثانية عشرة ليعمل موظفًا متعاقدًا في شركة محاماة لندنية يرأسها عضوٌ في البرلمان، نشأ لدى بدج وهو صبي حبٌّ جارف للغات التوراة وتاريخه، وفي سن الخامسة عشرة سنة ١٨٧٢ بدأ يتردد على غرفة المطالعة في قسم الشرق الأدنى في المتحف البريطاني، تمامًا في الوقت الذي كان جورج سمث بصدد اكتشاف اللوح المسماري الذي يحكي قصة الطوفان.

وقد أثبت بدج طوال حياته أنه شغوفٌ بجمع المخطوطات القديمة واجتذاب الأنصار الجُدد، أحبه صموئيل بيرتش، رئيس قسم الشرق الأدنى، فساعده على تلقي دروس باللغة الأكادية، وكذلك أعطاه جورج سمث دلائل يستهدي بها، ولا سيما أن سمث رأى في بدج نسخة شابة من نفسه، كان سمث يقضي ساعة غدائه في غالب الأحيان في كاتدرائية القديس بولص القريبة من الشركة التي يعمل فيها وذلك ليكون لديه مكان هادئ ليدرس اللغات التي كان يتعلمها، وهناك لفت انتباه عازف الأورغن في الكاتدرائية صاحب العلاقات الاجتماعية الواسعة، وقد أعجبه في هذا الشاب مثابرته وموهبته الواضحة، وقد أقنع عازف الأورغن ربَّ عمل بدج وصديقهما المشترك رئيس الوزراء غلادستون بإرسال بدج إلى كامبردج لدراسة العبرية.

ولدى تخرج بدج سنة ١٨٨٣، وظفه المتحف بصفة "مساعد للقيِّم" في قسم الشرق الأدنى، ومن هنا انطلقت مسيرته، عمد إلى اختصار اسمه الثقيل إلى إي آي والس بدج، بعد أن حذف تومسن تمامًا، وقد ظل يعمل في المتحف

حتى تقاعد سنة ١٩٢٤، وقد قام بعدة رحلات إلى الشرق الأوسط للحصول على مخطوطات قديمة، كان بدج متحدثًا بارعًا، فصار يُدعى إلى حفلات العشاء التي يقيمها الأثرياء من أنصار الفن القديم، وقد نجح في كتابة رسائل غزلية إلى سيدات المجتمع يجمع فيها بين المغامرة الأثرية واللباقة في طلب تمويلات للمزيد من الأعمال، كان غالبًا ما يوقع رسائله بلقبه الفكاهي "بَدجي" (وهو اختصارٌ للتعبير الأسترالي بدجيريغار، أو ببغاء)، وكان يشبه إلى حد كبير "البدجي" لولا طوله البالغ خمس أقدام ونصف وشاربه الكَث، ويمكنه أن يسحر الناس في الظروف المناسبة، لكن لا هو ولا أنصاره الأقوياء سيغفرون لرَسّام أنه أخرج الخلاف إلى العلن.

جرت المحاكمة في أواخر حزيران/ يونيو وأوائل تموز/ يوليو سنة ١٨٩٣، وتطلبت إفادات كثيرة من الشهود لصالح كلا الطرفين، لم يكن هناك مجال لإنكار أن الآثار المسروقة كانت متوفرة على نطاق واسع في بغداد، ومن المرجح أن بعض هذه الآثار كان يوفرها ثلاثة إخوة وظفهم رَسّام، وجميعهم أبناء مُشرف عجوز لا يوثَق به ويدعى توما السمين، وقد اكتسب لقبه هذا بعد أن انهار بغلٌ تحت ثقله، وإذا عدنا إلى الوراء إلى سنة ١٨٥١ نجد أن كرستيان رَسّام قد كتب إلى لايَرْد مؤكدًا: "لا أستطيع أن أضع أدني ثقتي بتوما السمين[١]"، وبعد عدة أشهر زعمت ماتلدا: "لو اتبعتُ ميولي لَصرفْتُ توما السمين فورًا[٢]"، ويبدو أن الأبناء ورثوا صفات أبيهم، لكن بدج اضطر للاعتراف بأنه لا يملك دليلاً على أن رَسّام تورط قط في تجارة الآثار غير المشروعة.

---

(1) Christian Rassam to Layard, 21 May 1851, BL 38,980, f. 56.
(2) Matilda Rassam to Layard, 24 November 1851, ibid., f 169.

قامت الصحافة بتغطية المحاكمة بنوع من الافتتان المنزعج، غيرَ مصدِّقة أن كل هذا الغضب يمكن أن تثيره تفاصيل عن كسر ألواحٍ طينية هنا وأختام أسطوانية مسروقة هناك، وكما قالت صحيفة ديلي نيوز اللندنية في إحدى افتتاحياتها: "كانت المحاكمة في بعض جوانبها مهرجانًا حافلاً بالآثار القديمة، فهؤلاء السادة اللامعون لم تذهب صحبتهم مع آشوربانيبال سُدى، وهم لا يقيسون الزمن بمقاييسنا. وإلا لَما استغرقت تسوية مثل هذه القضية أكثر من نصف أسبوع[1]"، أما صحيفة التايمز اللندنية، فقد عبرت عن أسفها بشيءٍ من التأمل الذاهل، قائلة: إنه رغم مظهر الأناقة الهادئة للمتحف البريطاني، " فإن المبنى العظيم في بلومزبيري لا يسوده دائمًا جوٌّ من السكينة الرهبانية، والحقيقة هي أن غريزة القتال عند الإنسان تبدو راسخة، إن لم تكن ناشطة تمامًا، في طبعه في زماننا كما في زمان أقدم الفراعنة حين كان يقود جيوشه إلى النصر أو الهزيمة[2]"، ويتابع الكاتب قائلاً: "ولطالما خضع العلماء بشكل خاص لسلطان هذه الغريزة، ومن بين طبقة العلماء كلها لم يكن جامعو الآثار ودارسوها أقلهم مشاكسة." واختتمت التايمز قائلة: إن رَسّام كان مُحقًّا، لكن ما كان ينبغي له أن يرفع قضية؛ إذ إن اعتذار بدج السابق يكفي.

لكن القاضي في هذه القضية السيد جستِس كيف، نظر إلى المسألة بجدية أكبر. في الملف الضخم المعنون "رَسّام ضد بَدج، ١٨٩٣"، يحتفظ الأرشيف المركزي في المتحف البريطاني بتلخيصه للقضية وتوجيهاته لهيئة المحلفين، يبلغ تلخيص القاضي، الذي استنسخ من ملاحظات مختزلة كتبها مراسل قضائي، ثلاثًا وثلاثين صفحة، يبدأ القاضي جستِس كيف قائلاً: "السادة هيئة المحلفين، هذه قضية على قدر كبير من الأهمية، وقليل من الصعوبة[3]"، ثم

(1) British Museum, "Rassam v. Budge, 1893," f. 5.
(2) *Times*, editorial, 4 July 1893, British Museum, "Rassam v. Budge, 1893," f. 4.
(3) Ibid., ff. 28-32.

راح يورد أدلة مفصلة على حدوث مخالفات، وعلى مزاعم بدج المبالَغ فيها، وعلى مساعي المتحف للتنصل من المسؤولية عن ملاحظاته، إن لب القضية في رأي السيد جستس كيف هي أن بدج شهَّر برَسّام، ثم رفض أن يعترف أنه مخطئ، كان القاضي كيف ممتعضًا جدًّا لدى مناقشة مذكرة الاعتذار التي كتبها بدج لرَسّام. "لا أستطيع إلا أن أقول: إن هذا أسخف اعتذار قرأته بحياتي، إنه اعتذار لا ينم على رجولة؛ فهو بدايةً لا يتراجع عن أي شيء قاله. ... ومن السخف والعبث أن نسمي ذلك اعتذارًا ينبغي أن يكتبه جنتلمانٌ لآخر[1]"، إن القضية الأساسية، كما أدرك السيد جستس كيف، هي الاعتراف الذي ناضل من أجله رَسّام طوال حياته: الحق في أن يُعامَل على أساس أنه جنتلمان.

كان أمثال موند تومسن، الذي اعتقد أن رَسّام حساسٌ بلا موجب، ينكرون ضمنًا أن عراقيًّا يستحق "اعتذارًا ينبغي أن يكتبه جنتلمان لآخر". ضمنًا، أو حتى علَنًا أحيانًا، وعندما اقترب موعد المحاكمة، كتب عالم آثار ألماني إلى تومسن ليعرب عن دهشته كيف اؤتُمِن رَسّام وأعطي مسؤولية، وكونه قد التقى رَسّام في الموصل سنة ١٨٨٠، كتب: "لقد ترك ذلك الرجل حسب ما سمعت ورأيت انطباعًا سيئًا جدًّا عندي. ... لم أفهم حينها، كما لا أفهم الآن، لماذا أوكلت الحكومة البريطانية أمر تنقيبات نينوى إلى شرقي من عامة الناس ليس لديه أدنى تعليم، وليس جنتلمانًا مثل القنصل رَسِل في تلك الأثناء. ... لا يسعني إلا أن أقول: إن إدارة عمل كهذا يتطلب ضميرًا واستقامةً

---

(١) هنا اختلف مع مورغنز ترولِه لارسن الذي يقول: إن رسام "كان بلا شك رجلاً ذكيًا وكفوءًا وعاش وفقًا لمتطلبات العصر الواجبة في مُنقِّب جيد، لكنه لم يكن جنتلمانًا ولم يكن له من سبيل إلى ذلك، كان خصومه يعلمون ذلك، وكان هو أيضًا يعلم ذلك، فقرر أن يحدد قواعد خاصة به" (*The Conquest of Assyria*, 330). فعلى العكس، لقد فهم رسام متطلبات العيش المتوقعة من الجنتلمان في العصر الفكتوري، وكان يطالب بالمعاملة على هذا الأساس. [حاشية المؤلف].

وتعليمًا أكبر مما هو موجود لدى واحد من عامة أبناء الشرق، ولا سيمـــا ممن لا يملك أدنى ثقافة أوربية[١]".

إن مثل هذه المواقف ستظل سائدة في الميدان إلى وقت طويل. فمن الغريب - على سبيل المثال - أن ترى عالم آثار في منتصف القرن العشرين يعلن تحامله ضد رَسّام في الوقت الذي يُنكر فيه مثل هذا التحامل، "هناك شيءٌ في سلوك رَسّام يدعو إلى النفور. ... ولكي لا يُتّهم المرء بالتحامل، فمن الجائز القول: إن صورة إنجليزي مثل لايَرْد (الذي استطاع بصبره وحسن طبعه أن يُبطل مفعول خبث الشرقيين وتعصبهم) تستهويه أكثر من صورة ڤكتور پلاس ... الذي دُهِي به من قبل مَصْلاوي من أهل البلاد فيما لا يمكن وصفه إلا بأنه تَدافعٌ مشين من أجل نهب الآثار[٢]".

في سنة ١٨٩٣ لم يكن بوسع هيئةٍ من المحلفين البريطانيين أن تأخذ التماسَ "مصلاوي من أهل البلاد" لتبرئة اسمه على محمل الجد كثيرًا، وفي النهاية ربح رَسّام القضية وخسرها، لقد وجدت هيئة المحلفين في القضية ما هو لصالحه، فأقرت أن بدج قد قَدَحَ فيه، ومع ذلك، لم تمنحه الهيئة إلا تعويضات رمزية بقيمة ٥٠ جنيهًا بدلاً من الألف التي طلبها، بعد أن قبلت ادعاء بدج بأنه بكل بساطة ردد ما سمعه في بغداد وأخذ ما سمعه على الثقة، عاد رَسّام إلى تقاعده في برايتن، منبوذًا من المتحف بعد أن أثقلت القضية كاهله بأعباء مالية، أما بدج، الذي حصل على ترقية مؤخرًا، فقد احتفظ بمنصبه في المتحف، وتبرع له عدد من الأصدقاء لدفع تكاليف القضية، وفي السنة التالية، رُقّي إلى

(1) Eduard Sachau to Maunde Thompson, 26 March 1893, "Rassam v. Budge, 1893," f. 54.
(2) Seton Lloyd, *Foundations in the Dust: A Story of the Mesopotamian Exploration* (Oxford University Press, 1947), 151.

منصب الرئيس الدائم لقسمه، وهو منصب احتفظ به حتى نهاية مسيرته المهنية، ثم صار لاحقًا محققًا غزير الإنتاج للنصوص المصرية (لا يزال كتابه «كتاب الأموات» يُطبَع إلى يومنا هذا) كما كتب كتبًا رائجة عن الديانة المصرية، كما نشأ لديه اهتمام بالروحانيات والأمور الخارقة للعادة، وغالبًا ما تُعاد طباعة كتبه هذه الأيام من قبل ناشري المعارف الخفية، ثم أُسبغ عليه لقب لورد سنة ١٩٢٠ اعترافًا بإسهاماته في حقل المصريات وخدمته الطويلة في المتحف البريطاني.

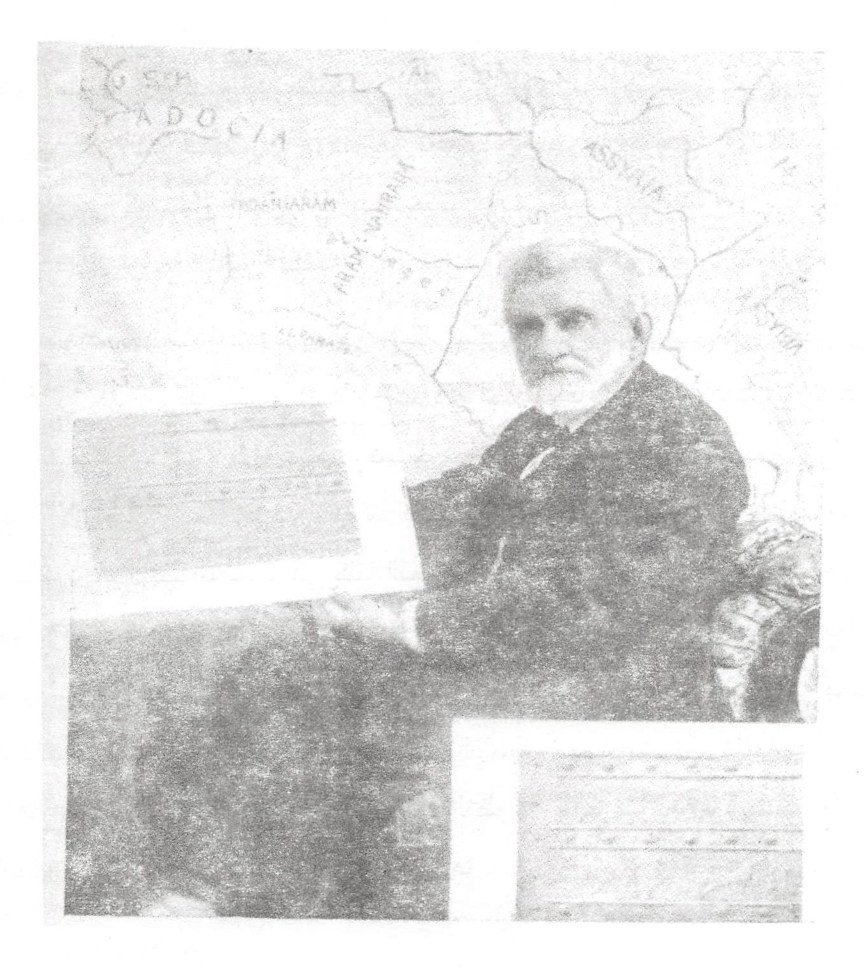
وفي محاولة أخيرة للدفاع عن نفسه، نشر رَسّام مذكراته الأثرية تحت عنوان «آشور وأرض النمرود»، وقد جعل له عنوانًا فرعيًّا دالاًّ هو عبارة عن قائمة طويلة بالأماكن التي شهدت أكثر نشاطاته: «وصفٌ للاكتشافات التي جرت في الخرائب القديمة في نينوى وآشور، ومدينتي تل حبة وأكّاد، وكالح، وبابل، وبورسيبا، وكوثاح، وفان، بما في ذلك قصة أسفارٍ في بلاد الرافدين، وآشور وآسيا الصغرى وكردستان»، ومع ذلك لم يجد ناشرًا بريطانيًّا واحدًا يقبل مخطوطته، وبعد تأخر طويل، تمكن أخيرًا من نشر الكتاب في نيويورك، وقد ظهر الكتاب سنة ١٨٩٧ مع صورة لرَسّام بعد صفحة الغلاف وهو يحمل صورًا لألواحٍ من البوابات البرونزية الرائعة التي اكتشفها في بَلاوات، وكأنها مستندات في قضية قانونية لا تنتهي.

كان استئناف رَسّام الأخير الذي وقعه بعبارة "المخلص لكم" صرخةً في وادٍ، فقِلةٌ من الناس انتبهت إلى الكتاب، كما ظل كثير من اكتشافاته تُنسب إلى لايريد ورولنسون ولوفتوس، بل حتى إلى جورج سمث الذي كان لا يزال طفلاً حين اكتشف رَسّام مكتبة آشوربانيبال ومات قبل أن يقوم رَسّام ببعثاته اللاحقة، وكان من دواعي سرور رَسّام أن يهدي كتابه إلى صديق عمره ومناصره

الأكبر هنري لايَرْد "رائد مستكشفي الآثار الآشورية، صديقي الصدوق منذ خمسين عامًا الذي صفَت لي مودته في شبابي ودامت في هَرَمي(١)"، ولكن حتى هذا السرور كان من النوع الكئيب؛ حيث مات لايَرْد سنة ١٨٩٤ بينما كان رَسّام يحاول أن يجد ناشرًا لكتابه.

ورغم خيبات أمله، لم يساور رَسّام شكٌّ أنه ليس سوى جنتلمان إنجليزي، وقد عاش حياته وفقًا لذلك، بل إنه زعم في إحدى مقالاته التي كتبها في تقاعده أن هناك صلة مباشرة بين عالمَيْه، فقد حاجج أن اللغة الإنجليزية مشتقة من لغته الأم، "الآرامية أو ما يُعرف عمومًا بالكلدانية." وتدليلاً على ذلك ساق بعض الكلمات ذات اللفظ المتشابه في كلتا اللغتين، ولاحظ أن "أطرفَ تشابه رأيته بين الإنجليزية واللغات السامية يكمن في عبارة 'تالي هُو'؛ لأن 'تالي' تعني 'ثعلب' بالكلدانية؛ لذلك عندما ينادي صياد الثعالب 'تالي هو' فإن قوله يعني بالكلدانية؛ 'الثعلب يا ...' إن كان هذا التشابه مجرد صدفة، فإنها بلا شك صدفة غريبة جدًا(٢)". وعلى أساس هذه النظرية هاجرت لغة الأرستقراطيين الإنجليز صائدي الثعالب تمامًا كما هاجر هو.

(1) Rassam, *Asshur and the Land of Nimrod,* iii.
(2) Rassam, *Babylonian Cities: Being a Paper Read Before the Victorian Institute, or the Philosophical Society of Great Britain* (E. Stanford, 1883), 18.



صورة فوتوغرافية لهُرمزد رسام وهو يحمل صورًا لألواحٍ من بوابتين برونزيتين اكتُشفتا في بَلاوات

كان رَسّام أبًا متفانيًا، فعمل على توفير فرص تعليم ممتازة لأطفاله السبعة، وكان يفخر بشكل خاص بابنته الكبرى تيريزا، التي أسماها على والدته التي ماتت خلال رحلته الأولى إلى إنجلترا، كانت تيريزا منذ طفولتها ذات حُسنٍ وصوتٍ غنائيٍ جميلٍ كذلك، ونظرًا لكفاح والدها الطويل من أجل

القبول في إنجلترا، فهناك شيءٌ من العدالة الشعرية في نجاح تيريزا في أكثر عوالم الموسيقى بريطانيةً: مسرح غِلبرت وسَليفَن، فمن ١٩٠٢ حتى ١٩٠٧، كانت تيريزا نجمة لامعة في فرقة دويلي كارته للأوبرا؛ حيث كانت تؤدي دور الكونترالتو الرئيسة في كل أوبريتا تقيمها فرقة غِلبرت وسَليفَن، وقد تفوقت تيريزا في كثير من الأدوار: من دور كاتيشا الشرقية في «الميكادو» إلى النبيلة ليدي بلانش في «الأميرة عايدة» إلى بَتَرْكَب [وردة الحوذان] الفاتنة الصغيرة في هـ. إم. إس. بينافور، ولا شك أن والدها يدرك المفارقة الكامنة في نجاحها.

تقدم العمر برَسّام حتى مرحلة ناضجة من الشيخوخة في برايتن، ومات سنة ١٩١٠ في الثامنة والثمانين، بعد أن نسيه الجميع، أو هكذا ظن، وربما لحسن حظه أنه لم يعلم إلى أي مدى سيظل والِس بدج يلاحقه حتى بعد موته، نشر بدج سنة ١٩٢٠ مذكراته في مجلدين تحت عنوان «على ضفاف النيل ودجلة» أعاد فيها نشر مقالات صحفية عن المحاكمة من غير أن يعلق عليها، وقد حرص على إدراج ما هو في صالحه فقط[1]، علاوةً على ذلك، دأب بدج في عشرات من الإشارات العابرة المنثورة في أثناء كتابه على رسم صورة تجعل من رَسّام رجلاً فاشلاً سمح لمرؤوسيه بارتكاب مخالفاتٍ كثيرة، ودعمًا لادعاءاته، أورد بدج إشاراتٍ وتقارير من مصادر ثانوية، بما في ذلك قول البروفيسور الألماني الذي يذم فيه رَسّام بوصفه "شرقيًا من عامة الناس"، أما اكتشاف مكتبة آشوربانيبال فينسبه بلا حياء إلى لايرد، ويصفه بأنه "الاكتشاف الأعظم للألواح سنة ١٨٥٤[2]"، رغم أن لايَرْد كان على بعد آلاف الأميال في إنجلترا طيلة تلك السنة المحورية التي قضاها رَسّام منقبًا.

---

(1) E. A. Wallis Budge, *By Nile and Tigris* (John Murray, 1920), 2:300-18.
(2) Ibid., 1:23.

وبعد أربع سنوات، انهمك بدج في عمل "بَلطجة" أخير حين تقاعد وكتب تاريخ الدراسات الآشورية، وقد حاول مرة أخرى أن يسلب بعضًا من اكتشافات رَسّام الكبرى، وينسب عددًا منها إلى رولنسون، ثم يصف أيضًا زيارته إلى الموقع الذي وجد فيه بوابتي البرونز الشهيرتين، وادّعى كاذبًا أنه لا يمكن لرَسّام أن يكتشفها في الموقع الذي زعمه، وما يلمح إليه هنا بدج هو: لا بد أن شخصًا ما قد اكتشفهما في مكان آخر[1]، في كتابه «نشأة الآشوريات وتطورها» ظل بدج يصر على أن رَسّام كان مساعدًا عديم النفع لكل من لايَرْد ورولنسون، وراح يتخبط حين صار يعمل لوحده، وظل هذا هو الرأي السائد في معظم القرن العشرين، فإذا كان التاريخ يكتبه عادة المنتصرون، فمن الواضح من الذي ربح قضية "رَسّام ضد بدج، ١٨٩٣".

(1) Budge, *The Rise and Progress of Assyriology*, 131-32.

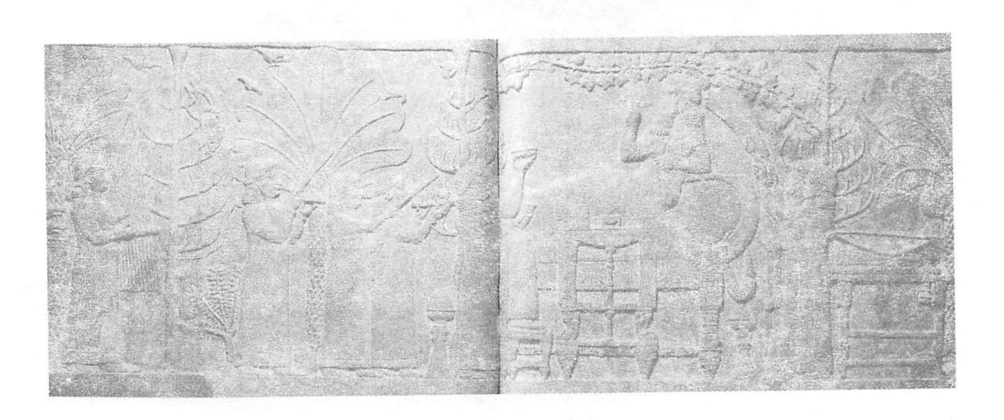
من بعد آشوربانيبال، لِيأت الطوفان



الموكب الملكي

من بين آلاف الآثار التي نبشها لايَرْد ورَسّام وسمث من خرائب نينوى، يمكننا أن ننتقي صورتين تصلحان لتقديم نبذة عن الحياة في الإمبراطورية الآشورية: نزهةٌ تحت رأسٍ مقطوع ونِمسٌ يندفع كالسهم من تحت عربة، يضم نقشٌ من قصر آشوربانيبال أولى هاتين الصورتين، وهي عبارة عن صورة لمقتل الملك العيلامي المنكود تيومّان الذي كان، قبل أن ينكث عهوده، حليفاً

للآشوريين، يتأرجح الرأس من أغصان شجرة في حديقة آشوربانيبال بينما الطيور تطير بسرعة، وامرأة تعزف على قيثارتها، والملك وملكته المفضلة يستمتعان بوليمة في فناء القصر، كان هُرْمُزْد رَسّام، الذي اكتشف هذا المشهد، قد سماه "حفلة الحديقة." كان الملوك الآشوريون يُصوَّرون عادة في وضعيات رسميةٍ من التُّقى والأُبّهة، لكن آشوربانيبال هنا يتكئ وهو يأكل، كأنه يريد أنْ يعبر عن خلو باله عما حوله: الرأس والقيثارة وكل شيء، وهذا هو الوجه العلني للإمبراطورية الذي أراد الآشوريون أن يظهروه للملأ؛ أي أنهم بمنتهى القسوة والأبهة والاعتداد بالنفس.



"حفلة الحديقة،" حوالي ٦٤٥ قبل الميلاد، يتدلى رأس الملك تيومّان من الشجرة على اليسار، وهو معلَّق من فَكِّه بحبلٍ، بينما عازفة قيثارة تعزف على مقربة من الملك، والخدم يحملون الطعام للملك والملكة، اللذين يَسْتَروِحان تحت دالية عنب.

أما النِّمْس، فتلك مسألة أخرى؛ إذ يرد ذكره سريعًا في رسالة إلى إسَرْحَدون، والد آشوربانيبال، في حوالي عام ٦٧٥ قبل الميلاد، وهذه الرسالة

هي واحدة من بين أكثر من ألفي رسالة مكتوبة على ألواح طينية وُجِدت في خرائب قصور نينوى، ورغم أن هذه الرسائل مُلْغزة ومتشظية وأقل إثارة من نقوش القصر العظيمة التي بهرت لايرْد ورَسّام، فإنها تعطينا صورة حميمية عن الحياة اليومية في البلاط الآشوري، في هذه الرسالة يَرُدُّ كبير كُتّاب إسرحدون على رسالة قلقة من الملك، ويبدو أن إسرحدون كان خارجًا من نينوى حين حدث شيء يُنذر بالشؤم.

كان من عادة الملك أن يمكث في قصره الشديد الحراسة، إما يتسلى بين حريمه أو يجلس للمُلْك في مقصورة العرش التي يزوره فيها رجال حاشيته أو السفراء الأجانب الذين لا بد أن تأسرهم مشاهد المذابح التي يرونها تزين الممرات المؤدية إلى حُجُراته. وحين كان إسرحدون يخرج من القصر للقيام برحلة خارج أسوار المدينة – وهي دائمًا مناسبة عامة للاحتفال – كان يحيط به أبناؤه وأوفى رجال حاشيته، بالإضافة إلى المتوسّلين والمتملقين الذين نالوا حُظوة الاقتراب من العربة الملكية، كانت العربة الملكية مركبة فخمة، منقوشة ومصبوغة بألوانٍ زاهية، ويجرها حصانان لكل منهما لجامٌ فاخر، كان الملك يقف بشموخ في وسط العربة، ولحيته المظفورة تتدلى على أثوابه المزركشة، وبيده قوسٌ مرصَّعٌ بالعاج حين يخرج ليمارس رياضته المفضلة، صيد الأُسْود كان يخرج من أحد الممرات المقنطرة العظيمة لبوابات قصره الثمانية عشرة التي تعلوها شرُفات للرماة ويحرسها عشراتٌ من النشّابة الذين لهم أعين كأعينِ النسور، وأمامه قائد عربته ومن خلفه خادم يحميه من الشمس بمظلة ذات شرّابات.

كان كل شيء في ذلك اليوم المشهود على ما يُحب ويشتهي حاكم العالم – إلى أن جرى ذلك النمس تحت عربته فجأة، فتطيَّر إسرحدون بهذة الرؤية: أهي نذيرٌ من الأرباب؟ ألم يكن هناك سطرٌ في نصوص النُذُر عن شؤم حيوانٍ

يجري بين ساقَيْك؟ كان الملك يخطط لسحق مجموعة من المشيخات العربية على أطراف إمبراطوريته، لكنه الآن صار مترددًا، فهل تعني رؤية النمس أن هذا ليس أفضل الأوقات لشن الحرب؟ ولكن - وكان إسرحدون غالبًا ما يتردد - نص النُذُر يتحدث عن حيوانٍ يجري بين ساقي الرجل، فإذا كان الأمر كذلك، فربما لا يمكن أن يُقال: إن النمس الذي جرى تحت العربة التي يقف فيها الملك قد جرى بين رِجلَيه؟ هذه هي الأسئلة التي طرحها على كبير كُتابه، الكاهن المدعو إسار شومو إريش.

ولكن إسار شُومو إريش ما كان ليرضى بمثل هذه السفاسف، فرد بما لا يقبل التأويل، "بخصوص ما كتبه إلي مولاي الملك، 'هل ينطبق النذير القائل: "إن مرَّ شيءٌ بين رِجلَي رجل" على شيءٍ يخرج من تحت عربة؟' فإن الجواب هو: نعم، ينطبق[1]". كانت النذر في الحقيقة في غاية الأهمية، "إن مرَّ نمسٌ بين رِجلَي رجلٍ، فإنه واقع لا محالة في قبضة الإله أو قبضة الملك." لكن ممَّن يأتي الخطر؟ وبما أن إسار شُومو إريش أحد مستشاري إسرحدون الموثوقين، فهو يستطيع أن يتحدث بصراحة، فرفض بفظاظة ترددَ الملك حول حملته المُزمعة: "هل نقول 'الرحمة' بالأنباط؟ لماذا؟ أليسوا ملوكًا مُعادين؟ إنهم لن يستسلموا تحت عربة مولاي الملك!" وكما فهم الكاهنُ النذيرَ، فإن الأنباط ليسوا إلا نُموسًا كثيرة أو نطائح تدهسها عربة الإمبراطورية في طريقها، أما الملك فلم يكن واثقًا ككاتبه.

كان إسرحدون وابنه آشوربانيبال يملكان كل أرض عايناها، فكانت تأتيهم الجزية من كل بلادٍ سمعا بها تقريبًا، بل من بعضٍ لم يسمعا بها، وقد سجل آشوربانيبال متبجحًا أنه تلقى هدايا والتماسات للمساعدة من جيجيس، ملك

(1) Simo Parpola, ed., *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, State Archives of Assyria 10 (University of Helsinki Press, 1993), letter no 33, 24-25.

ليديا، "وهي بلادٌ لم يسمع باسمها آبائي الملوك(١)"، كان ملوك الآشوريين قد بنوا أعظم إمبراطورية على وجه البسيطة؛ حيث امتدت من عيلام في غربي بلاد فارس وعلى امتداد بلاد الرافدين والجزيرة العربية إلى مصر ثم على طول ساحل المتوسط عبر فلسطين وسوريا إلى آسيا الصغرى، ولم يكن اللقب الملكي "ملك العالم وملك آشور" مجرد صورة بيانية بالنسبة إليهم، ومع ذلك، فقد كان هؤلاء الملوك الجبابرة الجشعون تحت رحمة كل نمس عابر أو، بالأحرى، إله أو إلهة وضعت لهم النمس في طريقهم، لقد أعطاهم الأرباب كل شيءٍ في الدنيا، وبإمكانهم أن يأخذوا منهم بسهولة كل ما أعطوهم – وهذا ما حدث بعد بضع سنواتٍ بعد موت آشوربانيبال حين بلغت الإمبراطورية الآشورية نهايتها المفاجئة المُدَوِّية سنة ٦١٢ قبل الميلاد، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك.

لقد استخدم الملوك الآشوريون كل وسيلة للحفاظ على سلطتهم المطلقة تحت قبضتهم المتراخية، لقد طوروا بيروقراطياتٍ متقنةً لإدارة التجارة والدبلوماسية والحرب، كما ابتكروا نماذج للتنظيم الإمبريالي سيصقلها على مدى قرون من بعدهم الفُرْس والرومان وأخيرًا العثمانيون، لم يكن الآشوريون مجتمعًا راكدًا يعيش على أمجاد الماضي، بل كانوا يعون معنى الحداثة، وكان ملوكهم يتبجحون في حولياتهم أنهم فعلوا ما لم يحلم به آباؤهم، من فتح بلاد جديدة إلى ابتكار مضخة ماء أفضل، وكانوا دائمًا يطورون جيوشهم، بإدخال الابتكار تلو الابتكار في الأسلحة والتكتيك، وكانوا ينفقون بسخاء على بناء المعابد، ويفوضون وُسطاء الوحي والكهنة لإرضاء الأرباب ومعرفة إرادتهم، لكنهم لم يعتمدوا على الأرباب لوحدهم من أجل اتباع سبيل الرشاد، بل وظفوا جواسيس وعملاء في الخارج وداخل قصورهم كي يضعوا أيديهم على نبض

(1) From the "Rassam Cylinder," in D. D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia* (University of Chicago, 1926-27, repr. 1989), 2:297.

المنطقة التي كانت تحالفاتها تتغير باستمرار وحاشيتهم لا تنتهي صراعاتهم، استخدم آشوربانيبال كل هذه الوسائل، وزيادةً في الخير، أضاف من عنده مبادرة تحمل بصمته الشخصية، وهي أنه ابتكر أعظم مكتبة في الدنيا.

كانت المكتبات ابتكارًا من ابتكارات بلاد الرافدين[١]، فأول من جمع النصوص ونظمها هم السومريون في جنوبي بلاد الرافدين حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وبحلول عصر آشوربانيبال صار بالإمكان العثور على المحفوظات في أماكن كثيرة متعددة، كان الكهنة يستشيرون النصوص الدينية، وكانت القصور تحتفظ بالحوليات والمراسلات الدبلوماسية، بينما احتفظت فروع الإدارة المختلفة بمحفوظات أكثر تخصصًا، كتلك المحفوظة في نينوى في "قسم الخيول" و"قسم الخمور[٢]"؛ ولم يكن الاحتفاظ بهذه السجلات حكرًا على القصور والمعابد، بل كانت عائلات التجار تحتفظ بسجلات عن العقود والمراسلات التجارية، كما كان الأفراد يجمعون مكتبات صغيرة مكونة من نصوص دينية وأدبية من أجل الفائدة والمتعة الشخصية.

لكن آشوربانيبال ذهب إلى أبعد من هذا، كانت نواة مجموعته هي الأرشيف المحفوظ في القصر الذي ورثه عن أبيه وجده، لكنه أضاف إليه كثيرًا، وحين بنى لنفسه قصرًا خاصًّا به، شمالَ قصر أبيه، ضمَّ إليه غرفة مكتبة كبيرة، كما أصبح معبد نبو، إله الكتابة، ثالث المخازن الكبرى؛ حيث شكل مع المخزنين الآخرين مجموعة آشوربانيبال التي كانت تنمو باستمرار، لم تكن مكتبته أكبر مكتبة ابتكرت فحسب، بل أشملها أيضًا حيث ضمت نصوصًا مهمة من كل أنحاء إمبراطوريته، وأفضلها تنظيمًا حيث كانت الألواح تُنسخ

(1) Samuel Noah Kramer, *History Begins at Sumer* (Doubleday, 1956).
(2) Klaas R. Veenhof, *Cuneiform Archives and Libraries* (Brill, 1986); especially useful are Veenhof's introductory essay and Simo Parpola's contribution, "The Royal Archives of Nineveh." 223-36.

بصيغٍ قياسية ثابتة، ثم تُرقَّم بعناية وتُعنْوَن وتُصنَّف؛ وأكثرها دِقةً؛ حيث كانت تُبذل جهودٌ عظيمة لضمان دقة نسخ النصوص الأقدم، ويعود الفضل في معرفتنا لأدب بلاد الرافدين اليوم إلى مُقتنيات آشوربانيبال بالدرجة الأولى.

ومع أنه تم اكتشاف قِطعٍ من ملحمة جلجامش في عشرة مواقع أخرى، فإن مكتبـــة آشوربانيبال هي الوحيدة التي احتفظت بالنص الكامل للملحمة تقريبًا، وقد كان فيها عدة نسخ منها، كانت الملحمة تُعرَف إما باسم "سلسلة جلجامش" أو بعبارتها الافتتاحية "شا نقْبا إمورو" (ذاك الذي رأى في الأعماق)، وهي عبارةٌ تشير إلى المياه العميقة وتدل مجازًا على الفهم العميق؛ حيث إن إيا، إله المياه في باطن الأرض، هو إله الحكمة، ومن المرجح أن آشوربانيبال قد ورث نسخًا من الملحمة، بينما استنسخ له كُتّابه نسخًا أخرى، كما يتبين من حواشي النسّاخ التي تُعرِّف باللوح ومحتوياته، "اللوح العاشر، سلسلة جلجامش 'ذاك الذي رأى في الأعماق '. قصر آشوربانيبال، ملك العالم، ملك آشور". وأحيانًا يستغل الناسخ الفرصة للثناء على الملك، "قصر آشوربانيبال، ملك العالم، ملك آشور، الذي يتوكل على آشور ونِنْليل، لا رأى عارًا مَن توكل عليك، يا آشور، يا ملك الأرباب!" وفي حاشية أخرى، دسَّ كاتب شاب طموح دعايةً لنفسه، "اللوح الخامس، سلسلة جلجامش 'ذاك الذي رأى في الأعماق '. نسخه وطابقه مع الأصل آشور راعيم نابِشتي، صبيٌّ تحت التدريب يُلقي بسمعه إلى الإلهين نَبو وتاشْميتو[1]". لم يكن كُتّاب البلاط مجرد كادحين مغمورين، بل كانوا، أو يتمنون أن يصبحوا، شخصيات اعتبارية قوية.

¤ ¤ ¤

(1) This and two dozen other surviving colophons to *Gilgamesh* tablests are given in A. R. George, *The Babylonian Gilgamesh Epic* (Oxford University Press, 2003), 1: 734-41.

نشأ آشوربانيبال في بلاطٍ عامر بالكتابات، وكان الكتابة هي الشغل الشاغل لموظفي البلاط، ولم يكن هناك قيد على ما كانوا يحسبونه ضروريًا لعرضه على إسرحدون، والد آشوربانيبال. "إلى مولاي الملك، ... إدري آحو جاء وجلب الحذاء في مساء السادس عشر[1]"، وكانت الخلافات تتفجر بين المسؤولين المتنافسين لأدنى سبب، فكان هؤلاء دائمًا يتقدمون بالتماساتهم للملك، فعندما وصلت شحنة جديدة من الخمر في وقت كانت فيه مستودعات الخمر ملأى، كتب مأمور الخمور إلى الملك بضرورة "فتح المخازن لكي نقوم بعملنا، هناك خمرٌ كثيرٌ للملك، فأين نضعه؟[2]" أو، لنأخذ مثلاً آخر: حين ينبغي على الملك أن يوافق على تصميم تمثال جديد له ("دعِ الملك ينتبه إلى اليدين والذقن والشعر")، وحتى لدى انتقاء لوحة شخصية له، لم يكن بمقدور الملك أن يتّبِع هواه، بل عليه أن يتبع آراء المصممين أو رأي النحات. "أما بخصوص التمثال الملكي الذي يصممونه، فإن الصولجان يتعامد على ذراع الملك، وذراع الملك تستند على فخذيه، أنا شخصيًا لا أوافق على هذا ولن أنفذه على هذا النحو[3]".

لم تكن رسائل التشكّي الهائلة من صنع الموظفين وحدهم، ويستطيع والد أي سائق مراهق طائش أن يتصور بسهولة مشاعر إسرحدون وهو يتلقى الالتماس أو الطلب التالي من واحد من أبنائه الكُثُر، "أمس وأنا قادمٌ خلف الملك، دخلت وسط نينوى، وكانت هناك أحجار من القرميد عند مَحْرس الملك، فارتطمت بها عجلة العربة فتكسرت فورًا، فلْيُعْطِ مولاي الملك أوامره لمن يلزم

(1) Mikko Luukko and Greta Van Buylaere, *The Political Correspondence of Esarhaddon*, SAA 16 (Helsinki, 2002), no. 140, 124.
(2) Ibid., no. 117, 102.
(3) Steven W. Cole and Peter Machinist, *Letters from Priests to the Kings Esarhaddon and Assurbanipal*, (Helsinki, 1998), no. 34, 36-37.

لإصلاحها[1]"، وربما لا يكون الأمير الشاب مخطئًا تمامًا، كانت نينوى واحدة من أكبر مدن الدنيا، يعيش فيها حوالي ١٢٠٠٠٠ نسمة يملؤون شوارعها الضيقة غالبًا، المغبرة دائمًا، وكانت هذه الظروف تؤدي في كثير من الأحيان إلى الاحتكاكاتِ التي ينبغي على الملك تسويتها، ففي إحدى الرسائل طالب مجموعة من تجار الحمير بتوفير حُرّاس لهم لحمايتهم من والي نينوى الذي منعهم من التجمهر في مكانهم المعهود بقرب القصر، "إن رأيتكم عند القصر، فسأحطم جماجمكم[2]".

كما كانت شوارع نينوى مكتظة، كذلك كانت قصورها ومعابدها يشغلها كُتابٌ وكهنةٌ ومسؤولون يَعْتَدّون بمناصبهم، وكان هؤلاء إما "مُلْتَحين" أو مَخْصِيين. (كان ملوك الآشوريين، كالعثمانيين من بعدهم، يفضلون أن يكون الموظفون من الخصيان، من منطلق أن ولاءهم للعرش لن تشوبه رغبة في جمع الثروة والنفود لأولادهم). كان التفاوت في الثروة والمكانة أمرًا محسوسًا في البلاط؛ لذلك كان الموظفون المهملون يطالبون بمعاملة أفضل، وقد اشتكى أحد العلماء المُهْمَلين أن علماء أصغر منه كانوا يمرون بجانب بيته على ظهورِ مطاياهم، بينما يضطر هو للذهاب مشيًا إلى القصر، بل إنه صار يسلك طرقًا التفافية؛ لكي لا يرى الناس أنه لا يملك وسيلة نقل، ونظرًا لخدماته الكثيرة للملك، كتب سائلاً إياه أن يمنحه حمارين، "عسى أن يرق [قلب ... الملك] ويرسل إلي على الأقل بهاتين الدابّتين ... وفضلةً من الملابس[3]"، ولكن إهداء

(1) Mikko Luukko and Greta Van Buylaere, *The Political Correspondence of Esarhaddon*, no. 25, 20.
(2) Ibid., no. 88, 82.
(3) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 294-234.

معظم الألواح الطينية المكتشفة في نينوى ليست بحالة سليمة؛ لذلك فإن الكلمات والمقاطع الموضوعة بين قوسين مربعين تمثل تخمينًا مدروسًا من لدنْ المحقق حول الترميمات المحتملة؛ أما علامات الحذف المرموز إليها بثلاث نقاط فتستخدم حين يستحيل اقتراح ترميم محدد. أما ترجمة المقتطفات من الرسائل فهي مأخوذة من سلسلة محفوظات الدولة الآشورية البالغة خمسة وعشرين مجلدًا التي يقوم بها حاليًا فريق دولي من الباحثين العاملين في هلسنكي، وقد عدلتُ في بعض الأحيان ترجماتهم بناءً على النصوص الأكادية الأصلية، كما استغنيت عن أقواس المحققين المربعة حين يتضح أن العبارة المقترحة صحيحة بما لا يقبل الشك، إما من السياق أو من نصوص موازية في رسائل أخرى. [حاشية المؤلف].

شخص هدية كان من شأنه أن يثير سخط آخر، وقد تعلم آشوربانيبال درسه حين كان وليًا للعهد، كما يتضح من رسالة أخرى، "لقد زادني الآن مولاي وليّ العهد تعاسةً حين أسبغ على عرّاف آخر ثيابًا أرجوانية؛ أما عن قلبي، فقد فطَره مولاي ولي العهد[1]".

لم تكن المشكلة فقط أنه لم يكن هناك ما يكفي من الحمير والثياب الأرجوانية لتُوهَب، ففي سيلٍ من الالتماسات والتقارير، كانت البراعة تكمن في تحديد أيها يشي بتهديد حقيقي، فمَنْ مِنْ أصحاب الالتماسات الساخطين سيجد بضعة أصدقاء يماثلونه في التفكير ويبدؤون بالتآمر على العرش ليشفوا غليلهم؟ فتجار الحمير يمكن إبعادهم بسهولة عنْ بوابة الوالي العزيزة، لكن ماذا عن قوردي، سائق العربة الذي تعدّى على الوالي بالسباب؟ فهل هذه مجرد خصومةِ سيرٍ أخرى أم أنها شيء أكثر من ذلك؟ لا شك أن الوضع بدا مثيرًا للذعر بالنسبة إلى الواشي الذي كتب تقريرًا عن سورة التجديف التي تفوّه بها قوردي في معبد عشتار، "إن قوردي، سائق عربة الخزينة، يدوس على هيبة الـ[ـقـ]ـصر، لقد وضع يديه على [مخروط] عشتار، وهو يقول: 'دعها تضربني! لنر ما سيحدث! أعطوني سكينًا حديدية كي أقطعه وأضعه في إستِ الـ[ـو]الي[2]!'".

كان لدى إسَرحدون كل موجبات القلق إزاء مثل هذه التقارير؛ لأن الملوك الآشوريين غالبًا ما كانوا يموتون ميتات عنيفة، لقد اغتصب جده سرغون الثاني العرش[3] سنة ٧٢١ قبل الميلاد بعدَ أن أطاح بملِكٍ لم يدم مُلكه

---

(1) Ibid., no. 182, 146.

(2) Mikko Luukko and Greta Van Buylaere, *The Political Correspondence of Esarhaddon*, no. 63, 60.

(٣) هذا هو السيناريو الأرجح؛ إذ إن تفاصيل تسلم سرغون للعرش تشوبها الضبابية، إلا أن غموض الوثائق يعزز فكرة أن سرغون قد استولى على السلطة برسائل مشبوهة؛ حيث إن الحوليات الآشورية دائمًا ما تشير إلى تنفيذ إرادة الأرباب بشكل منظّم. [حاشية المؤلف].

See A. K. Grayson, "Assyria: Tiglath-Pileser III to Sargon II," in *The Cambridge Ancient History*, ed. John Boardman et al. (Cambridge University Press, 1991), III.2: 71-102, 87.

إلا قليلاً، وكان أبو هذا الملك قد استولى على العرش عن طريق الثورة، حكم سرغون، وهو شخصية مهيبة وسعت رقعة الإمبراطورية مدة عشرين سنة، لكنه قتل في هزيمة عسكرية مُذلَة، وهذه أمارة سخط من آلهته، ولهذا السبب نادرًا ما كان سنحاريب، ابن سرغون، يذكر أباه بعدها، فهجر العاصمة التي بناها أبوه وأسس عاصمة جديدة له في نينوى، وهي مستوطنة قديمة ما لبثت أن تطورت وأصبحت عاصمة حقيقية، وهناك بنى قصره الهائل الذي سماه بكل فخر، "القصر الذي لا مثيل له"، وقد كان القصر تجليًا ملموسًا للسلطة المطلقة والأمان، غير أن اثنين من أبنائه اغتالاه داخل أسوار القصر سنة ٦٨١ بدافع غيرتهما من تعيين سنحاريب لأخيهما الأصغر إسرحدون وليًا للعهد، ولكن هذه الأحداث جرَّت مزيدًا من العنف؛ إذ إن قضية الخلافة أصبحت مَثارَ خلاف حين قُتِل أخوهم الأكبر الذي كان قد اختُطف خلال انتفاضة في بابل ثم رُحِّل إلى عيلام في جنوبي بلاد فارس حيث قتل هناك.

تمكن إسرحدون من تولي الحكم بعد مقتل أبيه، ولكنه كان دائمًا يشعر بقلقٍ جراء منصبه، فقد أُجْبِر، خلال حكمه الذي دام اثنتي عشرة سنة من ٦٨١ إلى ٦٦٩، على إجراء معاهدة مع العيلاميين، قتلة أخيه الأكبر، وفعل ما بوسعه لاسترضاء بابل وإعادة إعمارها بعد أن دمرها أبوه عقب موت ابنه، كان إسرحدون يعتني عناية شديدة بسيل التقارير الذي يتدفق عليه عن المؤامرات داخل آشور وخارجها.

يفترض أن يكون في المعرفة قوة، ولكنها قد لا تؤدي إلا إلى الشك حين لا يتضح مسار العمل، خذوا على سبيل المثال هذه الرسالة اللافتة التي وجهها للملك سنة ٦٧١ عرّافٌ اسمه كُدُرّو كشف مؤامرة تُحاك داخل القصر، يقول كُدُرّو: إنه دُعي في أحد الأيام للعشاء لدى كبير الخياطين (وهو منصب إداري رفيع من بين واجباته توزيع الأثواب المتقنة التي هي رموز أساسية تدل على مكانة صاحبها في البلاط الملكي). أُدْخِل كُدُرّو إلى غرفة خاصة في الطابق

العلوي من منزل كبير الخياطين، فألفى نفسه وحيدًا مع مجموعة من الرجال المهمين، "رموا إلي بمقعد فجلست عليه، ورحت أشرب الخمر حتى غربت الشمس"، وبعد أن استأنس إلى كُدُرّو، فاتحه كبير الخياطين بالأمر، "قرَّب مجلسي إليه وراح يحادثني... قائلاً: 'أنت خبيرٌ في العِرافة؟'" ثم طلب بعدئذ من كُدُرّو أن يتكهن أمام شَمَش ويطلب منه أن يعرف رد إله الشمس على سؤال محدد: "هل سيستولي كبير الخصيان على المُلك[1]؟".

لبّى كُدُرّو ما طُلِب منه. "غسلتُ نفسي بالماء في غرفة أخرى في الطابق العُلوي، ولبست ثيابًا نظيفة، ثم أتاني كبير الخياطين بقربتين من الزيت، أجريتُ الكِهانة وقلت له: 'سيستولي على المُلك، " ثم قضى كُدُرّو والمتآمرون الآخرون يومهم التالي يشربون احتفالاً، لكن بعد أن صحا كُدُرّو من سُكره، كتب إلى إسرحدون ليخبره القصة كاملة وليطمئن الملك أنه ما زال على عهده، ويبدو أن التفاصيل الحية للرسالة يُقصد منها أن تُضفي على الحكاية طابعًا من الدقة الصارمة والموثوقية، لكن لم يكن باستطاعة كُدُرّو أن يُظهر صدقه وإخلاصه إلا بالإصرار على أنه كذب عن قرار شمش، وهذا خرقٌ كبيرٌ لواجب الكهانة، "قَسمًا بآلهة مولاي الملك، لم تكن الكهانة التي أجريتها إلا كلامًا فارغًا! [لقد قلت] في نفسي: 'عسى ألاّ يقتلني.' [وها أنا] أكتب للملك؛ خشية أن يسمع [مولاي الملك] بالأمر ويقتلني."

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 179, 142-44.
يعتقد سيمو پارپولا أن عبارة "كبير الخياطين" (كا-سبر) هي خطأ مُحرف عن عبارة "زعيم العصابة" (كي-سبر)؛ حيث إن كبير الخياطين صاحب منصب رفيع لا يليق به أن يقوم بأشغال وضيعة كأن يأتي بزيت لكُدُرّو، لكن الرسالة دائمًا تستخدم عبارة "كا-سبر" وأنا لا أرى ضرورة لتغييرها، ويبدو أن المتآمرين كانوا يتشاورون بعيدًا عن مسامع أكبر عدد ممكن من الناس، بمن في ذلك الخدم، ويدل جلبُ كبيرِ الخياطين الزيت لكُدُرّو على رغبته في إبقاء الأمر سرًا، وقد أنجز كُدُرّو كهانته بوساطة دراسة نمط الزيت في الماء، وهي أنسب وسيلة تُستخدم للكهانة سرًا خلف أبواب مغلقة. [حاشية المؤلف].

هكذا حذَّر كُدُرّو الملك في الوقت المناسب من مؤامرة على حياته، تصوروا تقليب الملك للأمر بعد تلقيه هذه الرسالة المرعبة، ولعله كان يستلقي ليلاً في مقصورة حريمه على أريكة لها أرجلٌ كأرجل الأسد، فصرف زوجاته لكي يتمكن من التفكير بهدوء، والمشاعل تومض من حوله وهو يتأمل اللوح الطيني بين يديه، بينما كسَر الغلاف الطيني للوح تتناثر علي الأرض، كان التحذير مناسبًا وعلى ما يُرام، إلا أن السؤال الذي بقي هو: ترى، مَن ينبغي عليه أن يقتل؟ وهذا هو السؤال المنطقي الذي يُطرح، لكن لا توجد له إجابة سهلة، كان إسرحدون قد أمر مستشاريه أن ينقلوا إليه مباشرة أي إشاعة مثل هذه، لكن كُدُرّو اتهم بعضًا من هؤلاء المستشارين، لا بد أن هذا السؤال أقلق بال إسرحدون؛ حيث مضت أشهر وهو يُفاضل بين خياراته، هل عليه أن يصدق كُدُرّو فيقتل كبير الخصيان وبقية المتآمرين المتهمين؟ أم عليه أن يجزم بأن كُدُرّو، وقد اعترف بأنه كذب، كذب مرة أخرى فيقتله لوحده بدلاً منهم؟ أم عليه ألا يُجازف فيقتلهم جميعًا؟

كان إسرحدون يعلم أن كُدُرّو لم يكن شخصًا معروفًا بولائه، فهو ابن زعيم بابلي متمرد أُعدم قبل ثلاث سنوات، فجيء بكُدُرّو إلى نينوى ووُضِع تحت الإقامة الجبرية، وهذه إستراتيجية آشورية معروفة لتدريب الشباب من أبناء الأسر البارزة في المناطق المتمردة وإعدادهم فكريًّا قبل إعادتهم إلى مواطنهم للمساعدة في حكمها[1]، وفي رسالته، أفشى كُدُرّو أن كبير الخياطين فاتحه بالأمر ليس من أجل مهاراته في الكهانة فقط، بل أيضًا من أجل تجنيده لصالح كبير الخصيان، "منذ ذلك اليوم [وهو يخبرني]: 'إنه سيعيدك إلى [بيت] أبيك ... ويسلمك مُلك بابل كلها '".

(1) Martti Nissinen, *References to Prophecy in Neo-Assyrian Sources*, SAA 7 (Helsinki, 1998), 137.

وإجمالاً، لا يمكن أن تكون كلمة كُدُرّو لوحدها هي الفيصل، ولكن إسرحدون كان يتلقى تحذيرات من أحد مُخبريه الدائمين، ولا يُعرف عن هذه الشخصية المبهمة سوى اسمها، نَبو ريحتو أُسور، ولكنه كتب سلسلةً من الرسائل في أواخر سنة ٦٧١ يحض فيها الملك المتردد أن يتخذ إجراءً سريعًا: "اسمعني، يا مولاي الملك! ... اقتُل [هؤلاء الناس]! [أنقذ] حياتك وحياة أسرتك!"(١) وهكذا تأكد إسرحدون من مصدر مستقل من وجود مؤامرة، غير أن مصدره الثاني لم يزده إلا حيرةً؛ حيث كان نَبو ريحتو أُسور يظن أن زعيم العصابة ليس كبير الخصيان بل رجلٌ اسمه ساسي، وهو ناظر المدينة، فما الذي ينبغي على إسرحدون أن يفعله؟ أيقتل كل متآمر محتمل ويعيش في قصر فارغ؟ ولو فعل، فلن توفر له مئة حجرة يتردد فيها الصدى الحماية المنشودة، فهو بحاجة إلى من يحرس البوابات، لكن من سيحرس الحراس؟ ويبدو أنه في هذا الوقت قرر إسرحدون أن يكلف وسيطًا من وسطاء الوحي لعله يعرف كل من يتآمر عليه، بمن في ذلك حُراس بوابات نينوى الداخلية والخارجية:

شمَش، مولاي العظيم، أجِبْني إجابة محددة على
ما أسألك! ... هل سينتفض على إسرحدون، ملك آشور،
أو يتمرد عليه أحدٌ من الخصيان أو المسؤولين المُلتحين
أو من حاشية الملك أو أي من إخوته أو أعمامه وأخواله
أو أحد من صغار السلالة المالكة أو من أقارب الملك،
أيًا كانت قرابته، أو الولاة أو ضباط التجنيد أو حرسه
الشخصي أو سَدَنة العربة الملكية أو حراس البوابات

(1) Mikko Luukko and Greta Van Buylaere, *The Political Correspondence of Esarhaddon*, no. 59, 52.

الداخلية أو الخارجية أو خدم الإسطبلات أو الطباخين أو صانعي الحلوى أو الخبازين أو أصحاب المهن كافةً ... أو إخوتهم أو أبنائهم أو أبناء إخوتهم أو أبناء أخواتهم أو أصدقائهم أو أضيافهم أو شركائهم؟ ... هل سيعتدون عليه ويقتلونه؟[1]

بيد أن جواب الإله شمش غير مسجَّل.

أحجم إسرحدون لعدة أشهرٍ قبل أن يتصرف، ولكنه أخيرًا نفذ عملية تطهير كبرى، لا يُعرف إن كان كُدُرّو قد نجا منها، بينما يرد اسم ساسي بعد عدة سنوات وهو في منصب مهم، وقد تكهن مؤخرًا محللٌ لهذه المؤامرة قائلاً: إن "ساسي كان في الواقع مُخبرًا لكي يُطلِع الملك على تصرفاتهم أولاً بأول[2]"، وفي هذه الحال يكون المخبِرون يشون بالمخبرين.

وكيفما توصل إسرحدون إلى قراراته، كان عليه أن يُعدِم عددًا من مسؤولي القصر الذين كانوا موثوقين في يوم من الأيام، في سنة ٦٧٠ قُدِّمَت سلسلةٌ من طلبات الوحي إلى الإله شمش تسأله إن كان بالإمكان الوثوق بمن رُقّوا إلى مناصب شغرت حديثًا والاطمئنان إلى أنهم لن يتمردوا هم أيضًا، وهذا في القديم يوازيه في عصرنا الحاضر المسحُ الأمني الشامل، وكانت هذه الطلبات تحض إله الشمس على أن يأخذ بعين الاعتبار كل الاحتمالات، "هل يُضمِر سوءًا وهو في حاشية إسرحدون، ملك آشور، أو يخطط لعمل شرير كالتحريض على الفتنة أو العصيان أو التمرد على إسرحدون، ملك آشور؟ هل

(1) Ivan Starr, *Queries to the Sungod: Divination and Politics in Sargonid Assyria*, SAA 4 (Helsinki, 1990), 139, 148-150, with some brokem phrases restored from a parallel text, no. 142-152.
(2) Nissinen, *References to Prophecy*, 146.

سيحرض على ذلك أم يحرض غيره للتحريض على ذلك؟ هل سيتآمر أم يحرض غيره على التآمر أو التعهد بذلك؟ وهل سينقلب إلى عدوه؟ هل تعرف الجواب يا صاحب القداسة(١)؟".

كانت المؤامرات والثورات أمرًا مألوفًا جدًّا إلى درجة أن كثيرًا من الملوك قد تقبلوها على الأرجح بوصفها من منغصات الحياة الملكية، أما إسرحدون فقد أقضَّت هذه الاضطرابات مضجعه، وقد قدمت رسالة من كبير الأطباء، أوراد ننَايا، إلى الملك تشخيصًا للآثار النفسية المتبقية لمؤامرة سنة ٦٧١، "لقد قيَّد آشور والأرباب العظام هؤلاء المجرمين الذين تآمروا على شخصيته الخيِّرة وسلموهم إليه... لقد أوقعتهم طيبة الملك في شر أعمالهم، ولكنهم جعلوا بقية الناس مكروهين في نظر الملك، فلطخوا سمعتهم كما يتلطخ الدبّاغ بزيت السمك(٢)".

¤ ¤ ¤

من حيث المبدأ يُفترَض أن تكون أسئلة الملك للآلهة مريحة لباله ومطمئنة لقلبه؛ حيث تساعده على معرفة بمن يثق، وإسرحدون لم يعوِّل على التقارير الغامضة التي يقدمها له عملاء الاستخبارات البشرية؛ حيث كان بإمكانه أن يكتب رسائل إلى شمش، إلى إله الشمس الذي يرى كل شيء، وإلى آشور، الإله المُناصر للآشوريين، وإلى الربَّة عشتار حامية نينوى، وهؤلاء جميعًا تهمهم مصالح مملكته، وقد احتفظت مكتبات آشوربانيبال بعشرات (بل ربما بمئات) من هذه الرسائل، وذلك بناءً على أمرٍ من إسرحدون أولاً

(1) Starr, *Queries to the Sungod*, no. 154, 165, with several phrases restored from parallel texts, nos. 155-66, 166-78.
(2) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 316, 256.

وآشوربانيبال ثانيًا، وكثيرٌ من الرسائل في محفوظات الدولة الآشورية تجعل القارئ المعاصر يشعر بألفة نسبية في بلاط نينوى، إما بسبب اعتنائها بتسجيل الوقائع اليومية كتسليم الأحذية والعجلات المحطمة، أو بسبب رصدها للعمل الاعتيادي لإدارة كبيرة، أما مطالب الملوك لوسطاء الوحي فلها أثر مختلف؛ إذ لا يوجد في عصرنا هذا ما يوازي وسائل الآشوريين القديمة المتقنة في التواصل مع الأرباب.

كان الملوك الآشوريون يستلهمون التجارب البابلية والمصرية القديمة، فصاروا يوظفون خمسة أصناف من خبراء التواصل البشري - الإلهي: المنجمون والكهنة والراقون المُعَوِّذون والأطباء والندّابون، وكان لدى آشوربانيبال خمسة وأربعون خبيرًا من هؤلاء في قصره في نينوى، وآخرون غيرهم موزعون على طول البلاد وعرضها[1]، وجميع هذه المناصب تستلزم كلٌ بطريقتها الخاصة التماسًا للآلهة ومعرفة إرادتهم وخلقَ نتائج مواتية في أوقات الشدة، عمل الراقون المُعَوِّذون والأطباء على علاج الأمراض الجسدية والعقلية التي يمكن أن تتسبب فيها إما روح شيطانية أو إله ساخط، وكان المرضى غالبًا ما يُعالَجون بخليط من العلاجات؛ حيث كان الطبيب يصف العقاقير العشبية بينما يؤدي الراقي المُعَوِّذ طقوسًا لطرد الروح الشريرة التي ابتُلي بها الجسد، فإذا فشلت علاجاتهم ومات المريض، فعلى الندابين أن يؤدوا طقوسًا لإرسال روح الفقيد على طريق السلامة إلى العالم السفلي، وبينما يتعامل هؤلاء الخبراء مع الأوضاع القائمة، يسعى المنجمون والكهنة لقراءة المستقبل وتحديد الأيام المواتية لإقامة الاحتفالات السياسية والدينية، وتقديم المشورة للملك في اتخاذ القرارات الكبرى كالذهاب إلى الحرب أم لا.

(1) Ibid., xiv.

وتقوم جميع هذه الاختصاصات على التدريب العالي على قراءة الخط المسماري وكتابته، وكان هؤلاء المختصون نخبة طبقة الكُتّاب، في عصر إسرحدون وآشوربانيبال لم يعد الناس يتحدثون الأكادية، وهي اللغة الكلاسيكية التي يستخدمها الكتاب، وقد حلت الآرامية، التي ستصبح ذات يوم لغة هُرْمُزْد رَسّام الأم - محل الأكادية، وكانت الآرامية تُكتب بأبجدية سهلة التعلم، فسبقت بذلك الأبجديات الفينيقية والإغريقية والرومانية، ورغم سهولتها تعلق المختصون باللغة الأكادية وخطها المسماري التي تطور بها تراثهم على مدى قرون؛ أما اللغة الدارجة فتركوها لغيرهم. كان تدريب الكُتّاب شاقًا، ولا سيما أن الطلاب كانوا يُجبَرون على تعلم الأكادية بل والسومرية الأكثر غموضًا، والسومرية هي في الأصل اللغة التي تحدث بها مبتكرو الخط المسماري، وقد شكى أحد الطلاب بالسومرية في نص مدرسي بابلي:

سألني البواب: "لماذا خرجت من دون موافقتي؟" ثم ضربني.
وسألني السقّاء: "لماذا شربت من الماء من دون موافقتي؟" ثم ضربني.
وقال رقيب اللغة السومرية: "لقد تحدثتَ بالأكادية،" ثم ضربني.
وقال أستاذي: "إن خطك رديء"، ثم ضربني(١).

وبين العقوبة والعقوبة كان الأساتذة يحاولون أن يغرسوا حب التعلم في نفوس تلامذتهم التعساء، وكان هذا كفاحًا في كل الشرق الأدنى القديم، "إن قلبك

(1) Quoted in Andrew George, *The Epic of Gilgamesh* (Penguin, 1999), xviii.

أسمك من مَسلَّة"، قال أستاذ مصري يشكو لتلميذه، "ورغم أني أضربك بكل عصا، فإنك لا تصغي. ... ورغم أني أقضي اليوم كله وأنا أحضك على الكتابة، فإنها تبدو وكأنها مصيبة بالنسبة إليك." ثم اختتم الأستاذ بنبرة صارمة: "إن في الكتابة سرورًا ما بعده سرور[1]".

كانت الكتابة المسمارية – كالهيروغليفية المصرية – لها هالةٌ من المعرفة الخفية والقدسية السرية، فالرموز المسمارية، المشتقة أصلاً من الطبيعة، تظهر علاقة أسرية بالخطوط والأنماط التي يبحث عنها المنجمون في السماء أو الكهنة في الأرض، وكما قال الباحث الفرنسي جان بوتيرو: "كان أهل بلاد الرافدين القدماء ينظرون إلى الخليقة برمتها على أنها صفحة هائلة من كتاب إلهي، فحين كانت الأمور تسير بشكل طبيعي واعتيادي لا يثير الانتباه، لم يكن لدى الكتّاب الإلهيين ما يُبيّنونه لقرائهم من بني البشر، فإذا أرادوا إنفاذ قرار سلف أن اتخذ، فإنهم يلجؤون إلى إحداث ظاهرة غريبة أو فريدة أو فظيعة[2]"، إن المقارنة التي عقدها بوتيرو بين الخليقة وبين النص الإلهي عقدها قبله الآشوريون أنفسهم، ففي ترنيمة إلى شمش، يستطيع إله الشمس أن يقرأ العالم بنور إشعاعه الشمسي:

أيها الديّان المتعال، يا خالقَ العُلى والدُنى
يا مَن تجلو كل البلاد بنورك مثل آية منقوشة،

أنت يا مَن لا يَكلّ من النبوءة أبدًا،
أنت مَن يُصدِر حكمه كل يوم للسماوات والأرض[3].

(1) *Papyrus Lansing* in Miriam Lichtheim, *Ancient Egyptian Literature* (University of California Press, 3 vols., 1973-80), 2: 168-69.
(2) Jean Bottéro et al. *Everyday Life in Ancient Mesopotamia*, trans. Antonia Nevill (Edinburgh University Press, 2001), 188-89.
(3) Hymn to Shamash in Benjamin R. Foster, *Before the Muses: An Anthology of Akkadian Literature* (CDL Press, 3rd ed., 2005), 827.

استُخدمت عدة أشكال للعرافة لقراءة هذه الأحكام، كمراقبة طيران الطيور أو دراسة الأنماط التي يُخلِّفها الدخان في السماء أو التي يتركها الزيت حين يُنَقَّط في الماء، أما أكثر أشكال العرافة شيوعًا في عصر إسرحدون فكان التضحية بنعجةٍ، وكان العرّاف قبل تقديم القُربان يتوجه إلى إله معين ويطلب منه معلومات محددة. "شمش، أيها الإله العظيم، أجبني إجابة واضحة على ما أسألك، هل ينبغي على إسرحدون، ملِك آشور، أن يجاهد ويخطط ويسير مع جيشه وعسكره إلى [إقلـ]ـيم مصر، كما يتمنى؟ ... واجعل إجابتك في هذا الكبش إجابة محددة واجعل فيه خططًا مواتية ونُذُر فألٍ تبشر بالخير بأمرك الإلهي العظيم، لعلّي أراه[١]". عندئذ يُشَرِّح الكاهنُ القُربانَ ويتفحص أعضاءه الداخلية باحثًا عن علاماتٍ دالّة أو شاذة تكون بمثابة إجابة من الأرباب. كانت هذه التحليلات تُمارَس على نطاق واسعٍ في العالم القديم؛ وكان هذا العرّاف يُعرَف في روما باسم **haruspex**، أو منقّب الأحشاء.

كان جورج سمث وغيره من علماء الآشوريات الأوائل يأسفون؛ لأن الآشوريين كانوا منغمسين في الخرافات، لكن الآشوريين في الحقيقة كانوا في كثيرٍ من المناحي منهجيين، بل علميين أيضًا، لم يكن المنجمون والعرّافون دجّالين أتقياء ولا مُخمنين خائفين يحاولون معرفة إرادة الأرباب المُبهَمة، بل محترفون ذوو تدريب عالٍ، يثقون بمهاراتهم ويحتقرون العمل غير المتقَن، وقد كتب منجِّمٌ يُدعى نَبو أحّيه إريبا رافضًا تقرير منجمٍ آخر: "من كتب للملك مُدَّعيًا أن كوكب الزُّهرة يُرى في شهر آدار [آذار/ مارس] فهو حقير وأحمق وكذّاب. ... وإن كان لا يعلم، فلْيَخرَس[٢]".

---

(1) Starr, *Queries to the Sungod*, no. 84, 101, with some phrases restored from parallel texts, nos. 85-87, 100-102.169.

(2) Ibid., xxxi.

وقد اكتسب المنجمون مهارات عظيمة في تتبع حركة القمر والكواكب إلى درجة أنه صار بإمكانهم التنبؤ بخسوف الكواكب وكسوفها، ولم يكن زملاؤهم العرافون أقل منهجية منهم في دراستهم للظواهر على الأرض، فقد عملوا تحليلاتٍ متقَنة لرئات الأغنام وأكبادها، وقسموها إلى عدد من الأجزاء المُكوِّنة التي تشمل المحطة والدرب والبوتقة والقوة وبوابة القصر والرفاهية والمرارة وقاعدة العرش والإصبع والزيادة والنير، ثم يفتشون هذه السمات ليروا الرسالة التي كتبها لهم الإله ردًّا على دعائهم، ويُشيرون على الملك بناءً على ذلك.

عندئذ كان الملوك يحاولون تحسين النتائج بتكليف عدد من العرافين إجراء عشرة من أعمال الكهانة أو أكثر، إما بقصد التوصل إلى نتيجة مأمولة أو لتوسيع قاعدة البيانات ولتخفيض ما نسميه اليوم خطأ التقدير، ففي رسالة إلى إسرحدون أوصاه أبوه سنحاريب باتباع منهج أكثر علمية ونقاءً؛ "لكي تستقيم العرافة عندي، فقد قسَّمتُ الكهنة إلى أربع مجموعات ليتكهَّنوا لي. ليتك تفعل ما فعلته. ... لقد أعلمتُك بإجراءاتي الذكية التي لم يتبعها أحدٌ من الملوك قبلي[1]"، وربما يكون هذا أول مثال معروف على ما يُسمّى الدراسة المحجوبة أو العمياء التي تُراجَع نتائجُها بين أربع مجموعات مستقلة[2].

تعكس هذه الوسائل المتقنة للتكهن بإرادة الأرباب حافزًا علميًّا جديرًا بالإعجاب، ولكن قد يبدو غريبًا أن قومًا أذكياء يصرون على اللجوء لمثل هذه

(1) Tremper Longman III, *Fictional Akkadian Autobiography: A Generic and Comparative Study* (Eisenbrauns, 1991), 232.

(٢) الدراسة العمياء أو المحجوبة هي نوع من التجارب السريرية التي يجريها الأطباء على المرضى؛ حيث لا أحد سوى الطبيب يعرف إن كان المريض يتناول العلاج المعروف أو العلاج الجديد الذي يجري اختبارُه، وذلك منعًا للانحياز في الدراسات العلاجية. [حاشية المترجم].

الطرق، أَفَلَم يدرك أحدٌ على مرِّ القُرون أن أكباد الأغنام لا تستطيع أن تُنبئهم بموعد هجوم الأعداء؟ لماذا لم تقُد عشوائية النتائج إلى هجر هذه الطرق باكرًا؟

أحد الأسباب التي جعلت استنتاجات الكهنة مقبولة هي أنها في غالب الأحيان قدّمت أُطُرًا واحتمالاتٍ لا حُكمًا مطلقًا، وكانت تحليلاتهم غالبًا ما تُعَدِّد الإشارات المواتية وغير المواتية، وقد يتشاور الكهنة ليقرروا إن كان الوحي في نهاية الأمر مواتيًا أو غير مواتٍ أو غامضًا، فإن كانت النذُر غير مواتية لشن هجومٍ، فقد يلغيه الملك - من غيرِ أن يعرفوا إن كان وسيط الوحي قد أخطأ وتنبأ بالهزيمة - أو قد يختار للمضي قدُمًا، وإن اختار الخيار الثاني، فيستطيع أن يعزز قواتِه لمواجهة الخطر الإضافي الذي أوحت به النذر، وهكذا تؤدي النبوءة المشؤومة في الواقع إلى زيادة فرص النجاح، أما بالنسبة إلى التنبؤات بالنصر فقد كانت الجيوش الآشورية تكاد لا تُقهَر؛ لذلك كانت تلك النبوءات تتحقق عادةً، على أية حال، عندما يكون نظام المعتقدات راسخًا رسوخًا عميقًا، فإنه يتلقى مؤازرة هائلة من آليةٍ نسميها اليوم التنافر الإدراكي؛ بمعنى آخر: يميل الناس إلى مشاهدة الأدلة التي يتوقعون إيجادها بينما يقللون من شأن الأدلة المخالفة لتوقعاتهم أو يغفلون عنها، وتكون التنبؤات حول المستقبل بشكل خاص عرضةً لهذه النزعة؛ حيث يمكن ربطُ الأحداثِ التالية بشكل انتقائي بهذه النبوءة، أو توكيدُها، أو إهمالُها حين الضرورة.

ويمكن سماعُ أصداء هذه الطرق القديمة حتى في عصرنا الحاضر، مع أن قلةً محدودة من الناس تستشير الأبراج بشكل جدي هذه الأيام، أو يرسلون الرسائل المتسلسلة من شاكلة، "مرِّر جوناثن هذه الرسالة وربح اليانصيب في الشهر التالي، بينما تجاهلتها ماري فماتت." ولكن هذا المنطق كان من نوع الحكمة المقبولة في سالف العصور، حين كان التدخل الإلهي مشهودًا في كل مكان، وكما طمأن أحد الكهنة إسرحدون الذي انتابه قلقٌ من أن كسوف الشمس

قد يُنبئ بموته، "إن السلسلة ذاتها [من النذر التنجيمية] قالت ما يلي بخصوص كسوف هذه السنة الجديدة: 'إنْ ظلّ المشتري قائمًا في مكانه خلال الكسوف، فليُبشر الملك بالخير، وسيموت نبيلٌ بدلاً منه.' ألم يرَ الملك أنه قبل أن ينقضي الشهر مات وزيره للعدل[1]؟".

¤ ¤ ¤

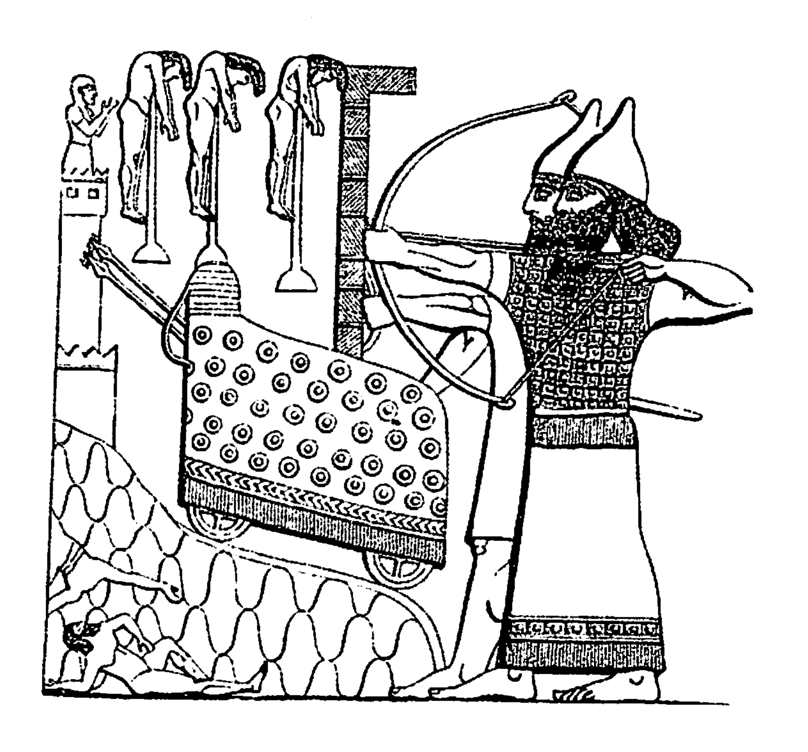
كان كهنة إسرحدون العلماء يعتدّون بقدرتهم على معرفة إرادة الأرباب، لكن مشكلتهم الكبرى كان مصدرها شكوك الملك القاتلة، ولم يُبْدِ إلا قلةٌ من ملوك بلاد الرافدين شيئًا يُشبه، ولو من بعيد، تخاذل إسرحدون ومخاوفه التي كان لا يفصل بينها وبين الوسواس الصراح في بعض الأحيان إلا فارقٌ ضئيل، ونظرًا لاغتيال والده والخطر القائم أبدًا من انقلاب في القصر، كان لديه ما يُوجب الخشية من الناس، ولم تكن الأمور أحسن حالاً على حدود إمبراطوريته، فقد انتهز التبابعة المصريون المتململون الفرصة للتمرد على الحكم الآشوري حين اغتيل والده؛ مما أجبر إسرحدون على المسير غربًا ليستعيد البلاد التي استولى عليها جده وأبوه، وكان الميديون يحتشدون في الشرق، وفي الشمال كانت تتنامى قوة مجموعة معادية تُدعى أورارتو، وإلى الجنوب من آشور، كان الوضع في بابل بوجه خاص خطرًا، كانت بابل قلب بلاد الرافدين ومنهل حضارتها، وقد سيطرت في عصور سابقة على المنطقة في غالب الأحيان، لكنها الآن أصبحت، رغمًا عن أنفها، تحت نير الاحتلال الآشوري. كان ولاء بعض المدن البابلية يبعث على الاطمئنان، ولكن بابل كانت مزرعةً للمؤامرات

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 90, 68.

التي غالبًا ما ناصرتها جماعات بدوية متمردة تعيش في البراري المفتوحة كقبيلة والد كُدُرّو الذي أُعْدِم.

لم ينس إسرحدون خطورة وضع إمبراطوريته قط، فتقدم بعدة طلبات للوحي لعلّه يحدد مَن مِن الأعداء - أو الحلفاء - سيهاجمه، كان جده وأبوه قد وسعا حدود الإمبراطورية إلى أبعد مما يستطيعان أن يسيطرا عليه فعليًّا، ولكن الفتوحات لا بد أن تستمر لأن الإمبراطورية كانت بحاجة دائمة إلى المزيد من الثروات الخارجية لكي تستمر؛ يقول المؤرخ أ. ك. غرايسن: "كانت الحرب هي الشغل الشاغل للملك الآشوري ودولته[1]"، كانت الأرض في بلاد الرافدين خصبة، ولكن لم يكن فيها إلا بضعة موارد قيمة أخرى؛ حيث إن النفط الخام لم تكن له استعمالات معروفة، كما أُنْهِك الاقتصاد الداخلي للإمبراطورية أيضًا بسبب الإعفاءات الضريبية الهائلة الممنوحة للمدن الكبرى لشراء ولائها، ولما كان الأثرياء لا يدفعون إلا ضرائب قليلة، فقد عجز سكان المدن الصغرى والفلاحون في الأرياف عن توفير عائد يكفي لدعم برامج البناء الباذخة والتكاليف الباهظة لأكبر جيش في العالم، وقد حاولت حوليات إسرحدون ما في وسعها للتستر على هذه المشكلات، فراحت تُظهر الملك وكأنه سيد العالم الواثق من نفسه إلى درجة هستيرية، "أنا قويٌّ، أنا قويٌّ أولاً وآخرًا، أنا بطلٌ، أنا عملاقٌ، أنا هائلٌ، أنا مُكرَّمٌ، أنا مُعظَّمٌ، أنا بلا مثيل بين الملوك[2]"، ولكن وراء هذه الواجهة العملاقة يربض رجلٌ غارقٌ حتى أذنيه في المتاعب.

(1) A. K. Grayson, "Assyrian Civilization," in Boardman, *The Cambridge Ancient History* III.2, 194-218, 217.
(2) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia,* 226.



ومما ساهم في هبوط معنويات إسرحدون إصابته بمرضٍ مزمن، وهو مرضٌ لم يستطع أطباؤه علاجه أو حتى تشخيصه، وقد تحدثت الرسائل المتبادلة بين الملك وأطبائه عن أعراضٍ مثل الحمى الدائمة وأوجاع المفاصل وآلامٍ في العينين والتكاسل، ويعتقد بعض الباحثين أن المرض ربما يكون الذئبة[1]، وهو مرض جلدي عضال حتى في عصرنا هذا، وأحد أخطر الأعراض الجانبية لهذا المرض في غالب الأحيان هو الاكتئاب. وأيًّا كانت أسبابه، فقد كان اكتئاب الملك مبعثًا للإحباط الشديد لدى مستشاريه، فحين يكون

(1) Grant Frame, *Babylonia 689-627 B. C.: A Political History* (Nederlands Historisch-Archaeologisch Instituut te Istanbul, 1992), 92.

الملك في مزاج سوداوي، فلا ينفع فألُ خير موات ولا طقسٌ جبار، وقد كتب إليه أحد الكهنة مُحبَطًا، "[بخصوص ما كتبه إلي مولاي الملك]: 'هل طَهُرْتُ بمساعدة أوراد إيا [...]'؟ ... الحقيقة إن [مولاي الملك] قد طهر عشر مرات!" (١) وكتب مستشار آخر محتارًا: "لماذا الملك على هذه الحال؟(٢)".

وفي إحدى الرسائل، تعاضد كاهنان عالمان، واحدٌ يُدعى بِلاسي والآخر نَبو أحّي إريبا، لإيقاف الملك من إطالة صيامٍ أكثر من أوانه العادي: "لِيَغفِر لنا مولانا الملك، ولكن ألا يكفي يومٌ واحد ليستغرق الملك في الكآبة ولا يأكل شيئًا؟ إلى متى؟ لقد مرت ثلاثة أيامٍ لم يأكل فيها الملك شيئًا. فهل الملك مُتَسَوِّل؟ ومما لا شك فيه أن المرء لَيقول حين يبزغ القمر في بداية الشهر، 'كَفى صيامًا!' ... بإمكان الملك أن يطلب من الطعام مؤونةً تكفيه سنة كاملة! إننا نكتب للملك بدافع القلق والخوف(٣)".

لم يكن مستشارو إسرحدون إلا بشرًا، وقد تكون آراؤهم خاطئة، ولكن الملك لا يجد الراحة فيما يبدو حتى عندما يطمئنه الأرباب، فبالإضافة إلى أشكال العرافة المتبعة، طلب إسرحدون عشرات النبوءات من الكهنة والكاهنات المجاذيب، يستطيع المجاذيب، مثلهم مثل عَرافات السيبيلا في العالم الكلاسيكي - أن يدخلوا في حالٍ من النشوة والبُحران وبهذا يصبح بإمكانهم أن ينقلوا رسائل مباشرة من الأرباب، وكثير من إجابات الأرباب، التي غالبًا ما نقلتها الربة عشتار - لا تزال موجودة، وقد دأبت عشتار على تهدئة خاطر الملك وتشجيعه، وذلك بلغة شعرية جميلة عادة، "[إسرحــ]ــدون، يا ملك البلاد، [لا] تَخَفْ! فأي ريحٍ هبَّت عليك ولم أكسر جناحها؟ سيتدحرج أعداؤك أمام قدميك مثل تفاحٍ

(1) Parpola, *Letters from Assyriand and Babylonian Scholars*, no. 29, 22.
(2) Ibid., no. 265, 208.
(3) Ibid., no. 43, 33.

ناضج[١]"، أو كما قالت أيضا: "مثل طائرٍ مُجنَّح فـ[ـوق صغاره] سأغرد فوقك وأحوم حولك، ومثل شبلِ [أسد] جميلٍ سأطوف راكضةً في أرجاء قصرك وأشم أعداءك[٢]".

لكن حتى عشتار اللبقة سئمت في بعض الأحيان من حاجة إسرحدون الملحة للاطمئنان، فسألته قائلةً: "ما الكلام الذي قلته لك ولا تستطيع أن تثق به؟ ألَم أقهر عدوَّك؟ ألَم أجمع كارهيك وأعداءك [مثل الفَر]اش؟ [٣]" وفي وحي آخر، تطرقت صراحةً إلى حالته العقلية، "سأجعلك آمنًا في قصرك، وسأجعلك تتغلب على القلق والخوف[٤]"، ربما كان بإمكان الأرباب أن يحموا إسرحدون، ولكن لم يكن بوسعهم أن يفعلوا شيئًا إزاء القلق الذي ينتابه.

لم يقصفْ برقٌ مدينةً بعيدةً إلا وظن إسرحدون أنه يعنيه شخصيًّا، كما يتضح من رسالة من مستشاره بِلاسي: "فيما يتعلق بما كتبه إلي مولاي الملك، 'في مدينة حاريحُومبا قصفَ البرقُ ودمر حقول الآشوريين' - لماذا يبحث الملك عن المتاعب، ولماذا يبحث عنها في [كوخ] فلاح؟ لا خطر على القصر، ثم متى زار الملك حاريحومبا؟[٥]" وحتى هذا التوبيخ الصريح فشل في تحقيق الهدف المنشود، فكتب الملك إلى رفيق بِلاسي، نبو أحي إريبا، بحثًا عن رأي آخر، فرد نبو أحي إريبا بصبرٍ قائلاً: إن البرق قصف لأن الفلاحين من الأهالي تقاعسوا عن عبادتهم لحَدَد، إله المطر؛ لذلك على الملك أن يأمر مُشعوذًا لإقامة طقس "تطهير الحقول،" مع أنه يستطيع أيضًا من باب الاطمئنان أن يأمر أن يُقام طقس، "إماطة أذى البرق[٦]".

(1) Simo Parpola, *Assyrian Prophecies*, SAA 9 (Helsinki, 1997), no. 1.1, 4.
(2) Ibid., no.2.3, 15.
(3) Ibid., no. 1.1, 4, and no. 3.6, 26.
(4) Ibid., no. 2.3, 15-16.
(5) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 42, 32.
(6) Ibid., no. 69, 51-52.

ربما يكون هذا الرأي الثاني المُطَمْئن قد هدّأ من روع الملك في مسألة ما، ولكن كان دائمًا هناك الكثير مما يثير القلق، فعندما حدث زلزال بسيط - وهو أمرٌ شائع تقريبًا في بلاد آشور - أقنع الملك نفسه بأنه كان إنذارًا مفاده أن حاشيته تدبر لانقلاب وشيكٍ عليه، فرد بِلاسي بنبرة ساخطة تمامًا: "ألم يكنْ هناك زلزال في عهود آباءِ الملك وأجداده؟ ألم أرَ أنا زلازل عندما كنتُ صغيرًا؟ كل ما أراده الإله هو أن يفتح أذني الملك؛ فعليه أن يصلي للإله ويقيم الشعائر ويحترس[1]".

¤ ¤ ¤

إن قراءة رسائل إسرحدون اليوم أمرٌ مُسَلٍّ، ولكن حالته العقلية لا بد أنها بثت الذعر في نفوس أفراد حاشيته المقربين العشرين أو أكثر[2]، كان الملك هو الحاكم الأعلى وقائد الجيش والرئيس الديني للدولة مجتمعين في شخص واحد، وكان كل شيءٍ يعتمد على سلامته الروحية والعقلية، فلدى أول إشارة ضعف سينفضُّ عنه حلفاؤه ويهجم أعداء الإمبراطورية الكثر، كان الوصول إلى الملك في البلاط الآشوري محدودًا على الدوام؛ لذلك لا بد أن مستشاري إسرحدون بذلوا جهودًا عظيمة لمنع أخبار اكتئابه من التسرب على نطاق واسع، لكن

(1) Ibid., no. 56, 41.

(٢) يقدر سيمو باربولا عدد أفراد حاشية إسرحدون المقربين بسبعة عشر رجلاً من أهم الولاة والمستشارين الدينيين ورؤساء أقسام حكومته الكبرى (*Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, xxv). ويشير باربولا إلى أن هؤلاء الرجال مثلوا تقريبًا كل كُتّاب الرسائل المُداومين للملك؛ فحتى نواب رؤساء الأقسام لم يكتبوا إلى الملك مباشرة إلا نادرًا، ولكن من الأرجح أن إسرحدون بطبيعة الحال كان لديه مستشارون مقربون يلازمونه دائمًا ولم يكتبوا إليه قط. [حاشية المؤلف].

شخصًا واحدًا خارج أسوار القصر علم به علمًا لا مراء فيه: ابنه وولي عهده آشوربانيبال.

ولعل آشوربانيبال شعر بمشكلات أبيه حين اكتشف مدى صعوبة رؤيته، كان من عادة ولاة العهد أن ينشؤوا بعيدًا عن القصر الملكي، في قصر منفصل على الطرف الآخر من المدينة يُسمى "بيت رِدوتي" (أو "بيت الخِلافة")، وهناك يتدرب الأمير الشاب على كل أنواع المهارات المطلوبة في الملِك، فيتعلم أصول الحكم والإدارة وفن الحرب، كما يتعلم واجباته الدينية الكثيرة من كهنة آشور وعشتار، كما كان لبيت الخلافة وظيفة أخرى، وهي أن يكون مركزًا إداريًا احتياطيًا؛ فحين يكبر ولي العهد إلى حد يكفي، يستطيع أن يتولى شؤون الحكم اليومية للبلاد خلال حملات الملك الحربية شبه السنوية.

كان ولي العهد يعيش بعيدًا عن والديه منذ سن مبكرة، وفي حوار خيالي بين آشوربانيبال والإله نبو، نصير الكتابة، يقول نبو: "كنت صغيرًا، يا آشوربانيبال، عندما عهِدتُ بك إلى [عشتار] ملكة نينوى، لقد كنت طفلاً يا آشوربانيبال حين جلستَ على ركبة ملكة نينوى، لقد أُلقِمت أثداءها الأربعة في فمك: باثنين أُرْضِعتَ، ومن اثنين رضعتَ أنت[1]". لا ينبغي أن يكون هناك ما يحول دون زيارة آشوربانيبال لقصر والديه بانتظام، ولكن تحركات الأسرة المالكة كانت تخضع لمشورة المنجمين بخصوص الأيام التي يُتَفاءل بالخروج فيها، ونظرًا لمخاوف إسرحدون الكثيرة، ليس مُستَغربًا أنها أثرت حتى في هذه.

لقد حالت مخاوف الملك دون رؤية ابنه طيلة أسابيع في بعض الأحيان، وكما في حالاتٍ أخرى جاهد پلاسي، مستشار إسرحدون، ضد ميل سيده للتشبث بأسود نبوءة يتلقاها. "بخصوص ولي العهد الذي كتب لي عنه مولاي

(1) Text in Foster, *Before the Muses*, 829-30.

قائلاً: "[أُنْبِئْتُ أنه يجب ألا يـــخـــ]ـــرج في اليوم الأول من الشهر." ... إن كوكب عُطارد يرمز إلى ولي العهد، وهو ساطعٌ، بل متسربل بالضياء، فلأي سبب [ينبغي] عليه ألا [يخرج]؟ (١)" وفي مناسبة أخرى، اضطر پلاسي للتوسل إلى الملك ألا يخترع أمارات خطرٍ لا وجود لها أصلاً، "بخصوص ولي العهد الذي كتب لي عنه مولاي قائلاً: 'إن كوكب المريخ ساطع' ... فمتى يستطيع أن يحضر بين يدي الملك؟ عندما يسطع المريخ، أليس هذا في صالحنا؟ ما خطبك؟ إن كان حضوره لا يناسب الملك هذا الشهر ... فَلْيَحْضُر بين يدي الملك الشهر القادم! (٢)".

وبما أن حياة آشوربانيبال تلونت في بدايتها بمخاوف أبيه المبالغ فيها، فمن المرجح أن پلاسي أعطى الأمير صورة واضحة تمامًا عن المشكلات التي واجهها باستمرار مع الملك؛ إذ لم يكن پلاسي فقط واحدًا من أشد مستشاري إسرحدون قلقًا، بل كان أيضًا معلم آشوربانيبال الأول، وقد كان آشوربانيبال معروفًا بتكريس نفسه للقراءة والكتابة، كما كان إسرحدون معروفًا بمتاعبه النفسية، وقد كانت اهتمامات آشوربانيبال العلمية في جزء منها نتيجةً لمشكلات أبيه التي شكلت خلفيةً، بل حافزًا مباشرًا، لتدريبه الأدبي الفذ.

لقد اهتم إسرحدون اهتمامًا يُقارب الاستحواذ بنوعين من النصوص: تفاسير النُذُر وتقارير الجواسيس السرية، ولكن الملك واجهته صعوبة في دراسة هذه التقارير؛ وذلك لأنه لا يعرف القراءة، فلو تأمل في قصره المظلم ليلاً رسالة كُدُرّو المرعبة، لأصابه اللوح الذي في يده بإحباط شديد من شدة إبهامه، ما كان هذا الوضع ليشكل مشكلة في الظروف العادية؛ إذ نادرًا ما كلف الملوك القدامى أنفسهم عناء تعلم الكتابة المعقدة، بل تركوا المهمة لكُتّابهم.

---

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 52, 39.
(2) Ibid., no. 48, 36.

وحين شكا أحد المراسلين لأن إسرحدون لم يقرأ رسالته الأخيرة، رد عليه الملك بنزقٍ قائلاً: إن لديه أناسًا يفعلون ذلك نيابةً عنه، "عندما [يتلقى] مراسلي رسالة [تبعثها إليَّ]، فهو [يفتحها وأنا أسمع] ما تقوله الرسالة. فلماذا [يجب عليَّ أن أقرأ] الرسائل؟ أنا أهتم بنفسي، وعندما أرى رسالة، فأنا لا أفتحها ولا أقرؤها(١)"، هنا يسخر إسرحدون من مراسله حين يذكره بما هو بدهي، وفي هذا تلميحٌ إلى أنه لم يجد شيئًا يستحق الرد حين قُرئت له الرسالة، وقد اختتم أحد المسؤولين الذين فقدوا حظوتهم لدى الملك التماسه برسالة موجهة إلى قارئ الملك، وقد فعل هذا لأنه يعلم أن رسالته ستُقرأ من قبل وسيط، "أيًّا كنتَ أيها الكاتب الذي ستقرأ هذه، فلا تُخفِها عن مولاك الملك! تكلم نيابةً عني أمام الملك، لعل بَعل ونبو يتكلمان نيابة عنك أمام الملك (٢)".

لم يكن مطلوبًا من ملوك الشرق الأدنى أن يقرؤوا الرسائل أو يكتبوها تمامًا كما لا يُتَوقَّع من الرؤساء في عصرنا هذا أن يكتبوا خطاباتهم؛ ولذلك كان من النادر أن تتضمن تربية الأمراء التدريب على القراءة والكتابة، أما آشوربانيبال فقد كان استثناءً لهذه القاعدة، وهو العاهل الآشوري الوحيد الذي كان يفتخر بأنه يستطيع أن يقرأ كلاً من الأكّادية والسومرية، لقد جرت العادة في تفسير قدراته في هذا المجال على أنها اهتمام وميل شخصي، وربما هي كذلك في جزء منها، ولكن من غير المحتمل أنه حين بلغ سن الرشد تجشم عناء تعلم لغتين قديمتين - واحدة تحتضر وأخرى ميتة سلفًا - بالإضافة إلى كتابتها الصعبة للغاية، ولكن الأرجح هو أنه اكتسب هذه المهارات حين كان مراهقًا يعيش في بيت الخلافة، ويقوم على تأديبه بِلاسي ونبو أحّي إريبا، الذي كان أيضًا واحدًا من معلميه، كان هذان الرجلان يُطلعان الملك مباشرة على رفاهية الأمير، وكانا يُعلِّمان ما يريد الملك لابنه أن يتعلم.

---

(1) Luukko and Van Buylaere, *The Political Correspondence of Isarhaddon*, no. 6, 8.
(2) Ibid., no. 32, 31.

ولكن لماذا أراد إسرحدون الأمي أن يشرع وريثُه ببرنامج التدريب على القراءة والكتابة الطويل هذا؟ هنا يتجلى دور وساوس الملك في الأمر؛ إذ كان الملك يعتقد في أحلك ظروفه أن الناس كانت تخفي عنه بعض الأمور، وفي إحدى المرات وبَّخ پلاسي لأنه كان يقف صامتًا بالقرب منه، ويبدو أنه ظن أن پلاسي كان يرفض أن يُفصِح له عن أمرٍ مهم[1]، وفي رسالة أخرى أصر پلاسي الذي عانى طويلاً من الملك أنه لم يُخفِ نذير شؤمٍ عن الملك، "بخصوص ما كتبه إلي مولاي الملك: 'لا بد أنك لاحظت شيئًا في السماء' – أود أن أقول: إنني أراقب السماء مراقبة دقيقة ولكن عليَّ أن أقول: إنني لم أرَ أحدًا أو شيئًا. ... لا بد أن مولاي الملك قد يئِس مني[2]!"، وحتى كبير الكتّاب إسار شومو إريش، الذي فسَّر معنى ظهور النمس تحت العربة الملكية تفسيرًا لا رجعة عنه، صار موضع شك، وفي إحدى الرسائل، دعا الأرباب ليشهدوا أنه لم يُخفِ الحقيقة، "بخصوص ما كتبه إلي مولاي الملك، '[لماذا] لم تخبرني [الحقيقة] قط؟ [ومتى] ستخبرني الحقيقة كاملةً؟' إني أناشد [آشور وسِن وشمش وبَعل ونبو ... أن يشهدوا أنني لم [أنطق] قط إلا بالصدق[3]".

من المحتمل أن مخاوف الملك كان لها أساسٌ في الواقع، فلعل حاشيته المخلصة، وهي تجاهد لطمأنته، قد أخفت عنه الأخبار السيئة، ولا سيما تلك النذر غير المؤاتية التي من شأنها إثارة مخاوف إسرحدون، وهذا الادعاء جاء من جانب مُنجِّم يُدعى بَعلوشيزيب، بعد أن فقد حظوته عند الملك، وكان يحاول إقناع الملك أن يصرف مستشاريه ويُعيده لخدمته، "ها قد حدثت [نُذُرٌ] في مملكة مولاي الملك، وهذه النذر لها علاقةٌ [بشيطان]. لقد نحّوا جانبًا كل [...]؛ ولكن أين هم؟ إنهم يبحثون عن فألٍ خيرٍ [...، قائلين]: 'احتفظوا بنذر الشؤم لأنفسكم[4]'"، وقد كتب مراسلٌ من إحدى الولايات ليقول: إن مسؤولاً محليًّا قد تدخل شخصيًّا لمنع تسرب خبرٍ بقرةٍ ولدت أسدًا، "ها قد قتل سِن إريش الأسدَ

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 39, 30.
(2) Ibid., no. 45, 34-35.
(3) Ibid., no. 8, 8-9.
(4) Ibid., no. 109, 87.

الذي أنجبته البقرة وأكله، ولا أحد من زملائه [يعرف عن هذا الأمر]، وقد قتل صاحب البقرة والكاتب(١)".

هذه الظروف تساعدنا على فهم اهتمام إسرحدون بإعطاء ابنه من التعليم ما لم ينله هو شخصيًا، فإذا كان الناس من خارج الحاشية المقربة من الملك يقلقون من ألاّ يقرأ كُتّابُ القصرِ رسائلهم للملك، فلا بد أن الملك الموسوس كان لديه ذات القلق، وبما أنه كان يخشى أن مستشاريه يُخفون عنه بعض الأمور، فلا بد أن قلقه كان يتضاعف حين يضطر لتصديق ما يقولونه عن رسائل تأتيه فعلاً من خارجِ القصر، كان إسرحدون مشغولاً تمامًا بأمور الحكم، ومما زاد في الطين بِلّةً أنه كان مصابًا في عينيه، فلم يعد بإمكانه أن يشرع بأمر صعب كدراسة الخط المسماري، ولكن ابنه أمامه فرصة أفضل. لا، لن يكون آشوربانيبال تحت رحمة كُتابه، بل سيتمكن من قراءة نذر آلهته وتقارير جواسيسه بنفسه.

وهكذا، فإن مبادرة تعليم آشوربانيبال قد تكون أتت من فوق بصفة أمرٍ من إسرحدون أو لعلها أتت من تحت بوصفها اهتمامًا عبقريًا مبكرًا من طرف آشوربانيبال، اهتمامًا لقي ترحيبًا وتهليلاً من معلميه واستحسانًا بعد ذلك من أبيه، وكما أشار مؤرخ مؤخرًا، فقد بدأ آشوربانيبال على أية حال بجمع الألواح المتعلقة بالنذر، "خلال حكم أبيه إسرحدون الذي كان بلا شك وراء الأمر(٢)".

---

(1) Ibid., no. 120, 100.
(2) Stephen J. Lieberman, "Canonical and Official Cuneiform Texts: Towards an Understanding of Assurbanipal's Personal Tablet Collection," in *Lingering Over Words: Studies in Ancient Near Eastern Literature in Honor of William L. Moran*, ed. Tzvi Abusch et al. (Scholars Press, 1990), 305-36, 328.

هناك نظرية أخرى حول تعلم آشوربانيبال القراءة والكتابة تقول: ربما كان مقررًا له في شبابه أن ينضم إلى طبقة الكهنة أصلاً، فتعلم القراءة والكتابة في هذه الأثناء، وحتى لو صحّت هذه النظرية، فإن ذلك لا يغير من حقيقة أن آشوربانيبال استعمل مقدرته على القراءة والكتابة على شاكلة أبيه، فأمر أن تُجرى التكهنات التي كان والده يحبذها، وسواءً أتعلم آشوربانيبال مهاراته بصفة كاهن تحت التدريب أو بمبادرة شخصية منه، فإني أُرجّح أن مهارته هذه كانت عاملاً حاسمًا في تفضيل أبيه له على إخوته الآخرين حالما مات ابنه البكر. [حاشية المؤلف].

وقد تنامت مكتبة آشوربانيبال لاحقًا بشكل هائل بفضل جهوده للتعامل مع إرث أبيه السياسي المُلْتَبَس، وأيًّا كان الأمر، قد ندين بفضل حفظ «ملحمة جلجامش» لاكتئاب إسرحدون الموسوس بقدر ما ندين به لحب ابنه في التعلم.

¤ ¤ ¤

رغم أن آشوربانيبال بدأ برنامجه الطموح لاقتناء النصوص لأغراض سياسية، فإنه وسّع مكتبته لتشمل نطاقًا واسعًا من النصوص الأدبية ليقرأها لفائدته الشخصية ومتعته، وقد أفاض في الحديث عن تدريبه الأدبي في واحدة من أطول حولياته المتبقية التي تُسمّى أُسطوانة رَسّام، باسم مكتشفها:

> لقد منحني مردوخ سيدُ الأرباب عقلاً منفتحًا وطاقة هائلة من الفكر، ووهبني نبو، شيخُ كُتّاب الكون، من حِكمته. ... واكتسبتُ مهارة المُعلِّم أدابا، ألا وهي ذلك الكنز المدفون من كل المعارف الكتابية وآيات السماء والأرض، لقد كنت شجاعًا، وكنت مثابرًا إلى أبعد الحدود، وفي مَجْمع الحِرفيين رُسِّمتُ، وقد درستُ علم التنجيم مع جَهابذة العِرافة بالزيت، وقمتُ بحل المسائل المضنية في الكهانة والضرب التي لم تكن واضحة، وقرأتُ الخط السومري المتأنِّق والأكادي الغامض الذي يصعب إتقانه أكثر، وتمتعت بالقراءة من الأحجار مما

قبل الطوفان، وها أنا الآن منزعجٌ؛ لأنني كنتُ غبيًا
وخلَبَ الخطُ الجميل لُبّي[١].

لقد أتقن آشوربانيبال فنون الكهانة التي استحوذت على تفكير أبيه، ولكنه وسّع اهتماماته لتشمل قصصًا "من قبل الطوفان." وكانت هذه حكايات خرافية وقصائد ملحمية ومن أبرزها «ملحمة جلجامش» التي "رأى" بطلها 'ما كان سرًّا واكتشف ما كان مخبوءًا، ثم "عاد بحكايةٍ من قبلِ الطوفان[٢]".

لم تكن اهتمامات الأشوريين أدبية بحتة حتى في حالات مثل «ملحمة جلجامش» التي كان يُنظَر إليها بوصفها مصدرًا للحكمة المأثورة التي يمكن أن تنطبق على المشاغل الراهنة، كحفر الآبار مثلاً، ففي رحلة طويلة عبر يباب الصحارى في بداية الملحمة، يجد جلجامش الماء بحفر عدد من الآبار، ويبدو أنه هو من ابتكر هذا الأمر، ومن السهل أن يغفل القارئ المعاصر عن هذه السمة من قصة جلجامش؛ إذ لم يُخصص لها سوى سطرين في كل مرحلة خلال رحلة جلجامش مع صديقه إنكيدو، "في مواجهة الشمس حفرا بئرًا/ وملأا [قِرْبتيهما بماءٍ عذب] [٣]"، ورغم أن هذا الإنجاز لم يحظَ إلا بوصف عابر، فإنه ترك انطباعًا عميقًا على جمهور الملحمة الأوائل؛ حيث كان ابتكار الآبار يمثّل تقدمًا مهمًّا في قدرة الناس على العيش في ظروف قاسية بعيدًا عن آبار بلاد الرافدين القليلة.

استمد المستمعون القدماء فوائد مباشرة من معرفتهم بنجاح جلجامش في حفر الآبار، هذا لا يعني أنهم كانوا بحاجة إلى الملحمة لكي يعرفوا كيف

(1) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, 379.
(2) *The Epic of Gilgamesh*, trans. Andrew George, 1.
(3) Ibid., 31.

يحفرون الآبار، فهذا أمرٌ يعرفونه معرفة دقيقة، بل استطاع جلجامش أن يساعدهم على إيجاد الماء، وهذا هو المهم في الأمر، فقد كان حفر الآبار في البراري مغامرة متروكة للصدفة ومسألة حياة وموت بالنسبة إلى المسافرين الذين تنفد مؤونتهم من الماء؛ لذلك من المنطقي أن تُحسَّن الفرص بطلب المساعدة من الكائنات الجبارة، ولا سيما إيا، إله الماء العذب، وجلجامش نفسه. فهذا لوحٌ بابلي يوجِّه حفَّاري الآبار لدى بدء الحفر، "قولوا، 'يا بئر جلجامش![1]'" ولعل هذه العبارة كانت أول سطرٍ من تعويذة تهدف إلى طلب مساعدة جلجامش لكي يعيد فعلته الأولى.

فإذا كان الآشوريون في غالب الأحيان يتذوقون الأدب لفوائده العملية، فالعكس صحيحٌ أيضًا، فكثيرًا ما تجد أن المُدونات التاريخية الرصينة تهبُّ منها نَفَحاتٌ شعرية، كانت المُدونات التاريخية الآشورية بصورة نموذجية سجلاتٍ جافةً تقريبًا تسجل أحداث السنة الكبرى (كالحروب التي خيضت والأعياد التي أُقيمت والقنوات التي رُمِّمَت)، ولكن كُتّاب الحوليات كانوا في بعض الأحيان ينفحون رواياتهم الحربية بغنائية تفوح منها رائحة الدم، ففي إحدى الروايات يقول سنحاريب، جد آشوربانيبال، على سبيل المثال: "نثرتُ جثثَ مُحاربيهم في السهل كالعشب، وقطعت خصيانهم وانتزعت آلات ذُكورتهم مثل بذور خيارٍ صيفي[2]"، وفي نص جَدلي ربما كُتِب في عصر إسرحدون، أراد كاتبٌ أن يشتم زعيمًا متمردًا شتيمةً عابرة فوصفه بأنه "دَلْوُ غائط،" فأعجبته هذه الصورة، فخطر له أن يُنمقها أكثر، فزاد قائلاً عن المتمرد: "دَلْوُ الغائط الضرّاط[3]". وفي عصر آشوربانيبال، كانت الأفكار والاستعارات تنشأ بتفاصيل جديدة؛ حيث

(1) A. R. George, *The Babylonian Gilgamesh Epic,* 1:95.
(2) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia,* 152.
(3) Alasdair Livingstone, *Court Poetry and Literary Miscellania,* SAA 3 (Helsinki: 1989), no. 29, 64, no. 30, 66.

تكتسي الروايات الصارمة عن تغير التحالفات وتقلبات المعارك برؤى الأحلام والخطابات الزاهية بالصور.

وما فعله آشوربانيبال كان أكثر من أن يحدد الاتجاه العام لأدب البلاط، بل اتخذ دور المحرر المباشر، وتقول إحدى الرسائل: إنه أعاد مُسوَّدة تقرير وطلب من كُتَّابه أن يوجزوها، "كان الحديث خيرًا من هذا [الـ...]؛ يوجد مُتَّسعٌ كبير، وهناك [...] كثير. خصِّصوا حوالي عشر جُمَل وأعيدوها إلي، وسأُلقي نظرة عليها[1]"، ولدى استجابته لهذه التوجيهات، أعلن كاتبُه بشيء من التزلُّف أن تنقيحات الملك السديدة، "ممتازة كأنها توجيهاتُ حكيمٍ. ... أفلا تُثير العجب؟ أليست هذه قمة الاحتراف في الكتابة؟"

وعلاوةً على تنقيح عمل كُتابه، جرب آشوربانيبال حظه في الكتابة، ففي إحدى الرسائل يُثني أحد الكتاب على خط الملك، بل ينوه بالحسد الذي سيثيره هذا الأمر في كاتبٍ آخر، "بخصوصِ خط مولاي الملك، سيموت كِيني حسدًا حين يراه، لقد وهب بعل ونبو خطًا جميلاً لمولاي الملك[2]"، ومع الإقرار بالمبالغة التي تحصل عادةً حين يُطري أحدُهم ملكَ الدنيا، لكن لا بد أن خط آشوربانيبال كان على الأقل لائقًا، وإنه لَشيءٌ استثنائي أن يتمكن ملكٌ من الكتابة في المقام الأول.

لكن بماذا كان ينصبُّ اهتمام آشوربانيبال في الكتابة؟ لا تزال توجد عدة ترنيماتٍ وقصائد تُنسب إليه، وهي إما من تأليفه شخصيًّا أو بتكليف منه، كان الشعر دائمًا يخدم الملوك لأغراض احتفالية في أيام الأعياد أو المناسبات العظيمة، لكنه لدى آشوربانيبال كان يعبر عن مخاوف شخصية في أوقات الشدة، لم يسبق لملك آشوري أن عبّر عن لحظة شك ذاتي في الحوليات الملكية،

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 30, 23.
(2) Ibid., no. 235, 188.

لكن في كثير من قصائده يلمّح آشوربانيبال إلى مصاعب مُلْكه، ويمكن مقارنة جَيشاناته المكروبة إلى "مزامير التوبة" التي تُنسَب إلى الملك داوود، أحد ملوك بني إسرائيل، وفي الحالة التوراتية، لا سبيل لمعرفة إن كان أي من المزامير يعود تاريخه إلى عصر داوود أو أنها نُسبت إليه بعد وقت طويل، ولكن قصائد آشوربانيبال كُتِبت قطعًا في فترة حكمه، ومن المرجح أن كثيرًا منها من تأليفه هو، وهذه القصائد تعكس بوضوح وضع آشوربانيبال، أو على الأقل تعكس وضعه كما أراد هو أن يقدمه في صورة شعرية لاستدرار عطف الجمهور.

في قصيدة مرموقة، يناشد آشوربانيبال نبو، نصير الكتابة؛ حيث يبدأ باستذكار أيام طفولته السعيدة التي كان فيها بُرعُمًا يتفتّح في حدائق الأدب، "في طفولتي كنت أتلهَّفُ للمجلس لكي أجلس في بيت الألواح[1]". أما الآن، على حد قوله، فإن أعداءه يحيطون به، فيصرخ مستغيثًا بالأرباب البعيدين، ولدى توالي أبيات القصيدة، يعترف الشاعر بأن لديه ميولاً انتحارية:

غالبًا ما أصعد للسطح لعلّي أقفز إلى الهاوية
ولكن يخطر لي أن الحياة ثمينة فأعود أدراجِيَه
أود أن أُسَرّي عن قلبي، ولكن هيهات، فأي قلبٍ لديَّ لأمنحهُ؟
وأود أن ألُمَّ أشتات فكري، ولكن هيهات، فأي فكر لدي لأجمعه؟
فأين غفرانُك، يا نَبو، يا ابن بعلٍ، يا دليل الحائرين؟

(1) Ibid., no. 12. 30-32.

وفي قصيدة مكمّلة لهذه، يرسل نبو إلى آشوربانيبال رؤيا في منامه ردًا على ذلك:

سَتَذْرو الرياحُ حُسّادَك يا آشوربانيبال
مثل [غبار الطلع] على سطح الماء
وسينسحقون أمام قدميك
مثل ذبابات أيّار في الربيع!
أما أنت، يا آشوربانيبال، فستقف أمام الأرباب العظام
وتسبِّح بحمدِ نبو![1]

وهناك ترنيمة طويلة في مديح الإله مردوخ وزوجته مكتوبة على شكل أكْروسيّة؛ حيث المقاطع اللفظية الافتتاحية لكل مقطوعة شعرية تُعَرّف بالشاعر وتُفْصح عن رسالة شخصية، "أناكا آشوربانيبالِ شا إِلْسوكا بُوليتانيما مَردوخ دَليلكَ لُدْلُلْ [أنا آشوربانيبال الذي دعاك: أعطني الحياة يا مردوخ وسأسبِّح بحمدك[2]!".

(1) Ibid., no. 13, 33-35.
في كتابه *Before the Muses* (٨٢٩-٣٠) يعطي بنجامين فوستر ترجمة نثرية لهذه القصيدة ولكنه للأسف لا يُدرج القصيدة الأولى التي ترد عليها هذه القصيدة. [حاشية المؤلف].
(2) Livingstone, *Court Poetry*, no. 2, 6-10.

ولا واحدة من هذه القصائد تحفة أدبية(١)، ولكن بعض الأشعار جيدة تمامًا، ويمكن مقارنة قصائد آشوربانيبال بأشعار الإمبراطور الروماني هادريان أو، في الأزمنة المتأخرة، مع إليزابث الأولى، ملكة بريطانيا، أو الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، الذين كتبوا جميعًا مقطوعاتٍ ممتازةً من بين نتاج أضخم ذي نوعية أقل، وأفضل وصف يمكن أن نطلقه على هؤلاء القادة الأربعة هو أنهم جميعًا هُواةٌ موهوبون، وإن شئنا الدقة نقول: إنهم هواة موهوبون لم يغامر جمهورهم من القراء بتقديم نقدٍ بنّاء لهم.

¤ ¤ ¤

لقد أنشأ آشوربانيبال مكتبته العظيمة بدافعٍ من حبه للكتابة، ولكن كانت له غاياتٌ عملية أيضًا؛ إذ أراد أن يجمع مصادرَ مكتوبة تساعده على إدارة الفوضى التي ورثها عن أبيه، وعند اعتلائه العرشَ بعد مقتل أبيه، اكتشف إسرحدون أن الخلافة من بعده ستكون مشكلة خطرة، فقد مات ابنه البكر، فاضطر لاختيار خليفة جديد، وكان ابنه الذي يليه اسمه شَمَش شومو أوكين، ولكن إسرحدون فضل أن يعين ابنه الأصغر آشوربانيبال، وبما أننا لا نعرف إلا القليل عن شَمَش شومو أوكين فمن الصعب علينا أن نقدر حكمة اختيار إسرحدون، ولكن الحقيقة المهمة أن إسرحدون كعادته شكك في قراره أيضًا.

تكشف رسالةٌ لافتة من أدَد شومو أوصور – كبير مشعوذي إسرحدون – عن الألم الذي اعتصر الملك بعد موت ابنه البكر فجأة، "بخصوص ما كتبه إلي مولاي الملك، 'إني أشعر بأسى شديد؛ فما الذي فعلناه لكي أكتئب بسبب موت

---

(١) ومع ذلك، يتطرف فوستر إلى حدٍّ ما في وصفه أسلوب آشوربانيبال بأنه "طنّان" و"مُسهِب" و"مُضجِر"، *Before the Muses* (٨١٥، ٨٢١). [حاشية المؤلف].

صغيري؟' - لو كان الأمر قابلاً للشفاء لَدفعتَ نصف مملكتك مقابل ذلك! ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ مولاي الملك، إنه أمرٌ نعجز عن فعل أي شيء إزاءه، أما بخصوص ما قاله لي مولاي الملك عن أصحاب السمو أبنائك، 'إن السؤال الملح عمَّن أختار ينهش قلبي نهشًا' - فلقد كتبتُ لمولاي الملك في الشهر الثالث قائلاً: 'تمالك نفسك واستعد لكل شيء[1]!'"

وأخـــيرًا اتخـــذ إسرحدون قرار تسوية على أمل أن يتفادى خيار الكل أو لا شيء الذي أدى إلى مقتل إخوته لأبيهم، ولسوء الحظ، تبين أن هذه التسوية كارثية، حاول إسرحدون أن يأخذ من كل خير بطرف: أن يعطي مملكته لابنه المفضّل آشوربانيبال وفي الوقت ذاته يُرضي ابنه شَمَش شومو أوكين بجعله ملكًا تابعًا على بابل، وإرسال هذا الأخير إلى مملكة بابل في الجنوب سيُبعده عن أخيه غير الشقيق فيخفف التوتر بينهما، ولعل هذا أيضًا يخفف من السخط الذي ظل الجنوبيون يشعرون به تجاه مملكة آشور.

وما إن رسى إسرحدون على قراره الإشكالي هذا حتى راح مستشاروه يبذلون غاية جهدهم لإصلاح ما يمكن إصلاحه، وقد كتب له أدَد شومو أوصور - كبيرُ مشعوذيه - رسالة تهنئة يشوبها شيءٌ من القلق، "ما لم تفعله السماء فَعلَه مولاي الملك على الأرض وأبانه لنا: لقد توجت ابنك بتاجٍ وأوكلت إليه مُلْك آشور، ونصَّبت ابنك على عرش بابل، لقد جعلت الأول على يمينك، والثاني على يسارك!" لا بد أن هذا الخيار غير المسبوق بدا مُريبًا للكثيرين، ولكن أدد شومو أوصور أراد أن ينظر إلى الجانب المُشرق، فتابع قائلاً: "وما إن رأينا هذا حتى طلبنا البركة لمولانا الملك، وابتهجت قلوبنا." ومع ذلك كان أكثر ما يتمناه الراقي المُعَوِّذ أن تنزاح الغمّة عن قلب الملك بعد أن اتخذ قراره

(1) Parpola, *Letters from Assyrian and Babylonian Scholars*, no. 187, 154.

النهائي، "انظر إلى أبنائك الرائعين هؤلاء، يبتهجْ قلبُك، ينبغي لمولاي الملك أن يطرد من عقله الأفكار الكئيبة؛ لأن هذه الأفكار تُضعفك[١]".

مات إسرحدون سنة ٦٦٩ قبل الميلاد وهو في طريقه لقمع تمرد في مصر - إذن، لعلَّ النمس كان مُحقًّا في نهاية المطاف - فورث آشوربانيبال العرش حسب الخطة، بينما ذهب أخوه غير الشقيق إلى بابل بلقب ملك، ولكنه ملك خاضع لآشوربانيبال، دام هذا الترتيب ستة عشر عامًا، فأشغل آشوربانيبال نفسه بصيد الأُسود وتأليف الأشعار كلما أمكنه أن يستقطع وقتًا من جهوده المتواصلة للمحافظة على إمبراطوريته، فقد قاد حملات لتثبيت حكم الآشوريين، فاستعاد ممفس سنة ٦٦٧ وطيبة سنة ٦٦٣، ونجح في تنصيب ملك مُوالٍ كان عبارة عن دُمْية بيده، ومع ذلك، في غضون سنوات قليلة بدأت السيطرة الآشورية على مصر تتراخى مرة أخرى، وفي هذه الأثناء نقض العيلاميون الذين لا يَكِلّون من تدبير المكائد المعاهدة التي كانوا قد عقدوها مع إسرحدون، وغزوا بلاد آشور تحت قيادة ملكهم الجديد تيومّان .

سحق آشوربانيبال هذه القوة وزيَّن حديقته برأس تيومّان، وكان آشوربانيبال دائم الابتكار في جعل أعدائه المهزومين عبرةً لمن تُسوِّل له نفسه في المستقبل بالتمرد، فعندما وضع حليفٌ سابق مهزوم نفسه تحت رحمة آشوربانيبال، قال هذا، "أشفقتُ عليه وعفوتُ عنه،" حسبما تقول الحوليات الملكية، ولكن هذه الشفقة لم تكن إلا في متناول قليل من الناس، "فرضتُ عليه عقوبة باهظة. ... لقد وضعت حبلاً بين فكَّيْه وقيدته كالكلب، ورميته في وِجارٍ ليحرس بوابة نينوى الشرقية التي تُسمى مَحْشر الأمم[٢]"، ويُظهر نقش من

(1) Ibid., no. 185, 152-53.
(2) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, 319, with some phrasing adopted from the parallel text of Prism A in Rykle Borger, *Beiträge zum Inschriftenwerk Assurbanipals* (Harrassowitz, 1996), 249.

قصره أبناء متمردٍ آخر راكعين عند إحدى بوابات نينوى، وبيدِ كل منهم مرقاقٌ للعجين، ويقول تعليقٌ شارح: إنهم يُرغمون على طحنِ عظام أبيهم كي ينثر آشوربانيبال رميم عظام عدوه في المدخل.

وإجمالاً كان العصرُ عصرَ ازدهار للإمبراطورية بالمقاييس الآشورية، وقد زعم آشوربانيبال أن حَدد - إله المطر - خصَّ بلاده الجافة بالمطر الغزير بحيث لم يعد لديه من مشكلة إلا السيطرة على الفيضانات، وقد ازدادت الحيوانات بأعدادٍ هائلة إلى درجة أن السباعَ صارت تهدد القطعان[1]، ولكن هذه لم تكن أسوأ المشكلات بالنسبة إلى ملكٍ يحب صيد الأُسود، وكان الناس يجتمعون لمشاهدة عروضِ صيدٍ مُعَدَّة سلفًا حيث كانت تُطلق الكواسر ليقتلها الملك بالرمح أو بالقوس والنشاب.

غير أن الأمور أخذت منحى سيئًا سنة ٦٥٢ حين ملَّ شمش شومو أوكين من كونه تابعًا لأخيه غير الشقيق، فأقام تحالفًا سريًّا مع عيلام المجاورة وشن هجومًا مُباغتًا على آشور، وقد دوَّن آشوربانيبال غضبه في حولياته من هذا الغدر، "في هذه الأيام نسي أخي الغدار - شمش شومو أوكين - الذي عاملتُه بالحسنى ونصبته ملكًا على بابل، نسي هذا الفضل الذي أبديته له وأضمر المكيدة، كان يقول ظاهرًا بشفتيه كلامًا معسولاً بينما في قلبه كان يُضمر القتل[2]"، وقد تتوجت الحرب الأهلية بحصارٍ ضُرِب على بابل مدة سنتين، وفي النهاية، كما تقول الحوليات: بلغ الجوع من الناس مبلغًا جعلهم يأكلون أطفالهم وجلود نعالهم[3].

---

(1) Ibid., 345, 363.
(2) Ibid., 301.
(3) Ibid., 303.

لقد أدت تسوية إسرحدون القلقة إلى اقتتال الإخوة الذي كان يأمل أن يتفاداه، وقد أدى هذا الصراع الداخلي الطويل إلى إصابة الإمبراطورية بضعف قاتل، وقد نظر آشوربانيبال إلى تمرد أخيه على أنه تكرارٌ لقتل جدهما من قبل أعمامهما، جلب آشوربانيبال بعض المتمردين إلى نينوى وأعدمهم في ذات المكان الذي اغتيل فيه سنحاريب في قصره قبل ثلاثة وثلاثين عامًا، وكأنه أراد بذلك أن ينتقم جيله من جيلٍ سابقيه، "بجانب التماثيل التي قتلوا بينها جَدي سنحاريب، قتلتُ حينها أولئك الناس قربانًا لروحه، وأطعمت لحمهم الممزق للكلاب والخنازير والذئاب والنسور، كما أطعمته لطيور السماء وأسماك البحر[١]".

في أعقاب هذا الصراع الدامي، انتهج آشوربانيبال سياستين: أن يبيد أعداءه وأن يبني مكتبته، وقد نفذ الإبادة بشدة مروّعة، وقد خصَّ عيلام بدمارٍ لا مثيل له، وقد عزم على أن يزيح خطرها إلى الأبد، فغزاها سنة ٦٤٧؛ أي: بعد عام من إخضاعه بابل، وفي سنة ٦٤٦ أوغل أكثر في هجومه وأخيرًا اجتاح العاصمة سوسة سنة ٦٤٥، وما إن اجتاح العاصمة حتى تمادى آشوربانيبال أبعد من عادة نهب الكنوز، فقد هاجم الأموات والأحياء، فقد قطَّع جثة أحد زعماء العدو، وقد عبَّر عن ذلك بقول بليغ: "لقد أمتّه أكثر مما كان من قبل." ثم علّق الرأس المقطوع على رقبة أخيه الحي، لم يكتفِ بإبادة الجيل الحالي، بل هاجم أجدادهم أيضًا، "قبور ملوكهم السابقين واللاحقين ... دمرتُها، أبدتُها، وكشفتُها أمام ناظري شمش، وحملتُ عظامهم إلى آشور، وجعلت أرواحهم لا يقر لها قرار." لكن كل ذلك لم يشفِ غليله، فصب جام غضبه على آلهة العيلاميين، فسوّى معابدهم بالأرض ودنّس حرمها المقدس، "وجعلتُ آلهتهم

(1) Ibid., 304.

وإلاهاتهم مجرد أشباح[١]"، وأخيرًا، هاجم الأرض نفسها، فزرعها بالملح والأشواك لكي لا ينبت فيها نبات بعد ذلك أبدًا.

أما في بلاده فقد أصلح أسوار نينوى وأمر بإجراء مسحٍ لكل المكتبات في بلاد الرافدين، بحثًا عن نسخٍ من أي نصوصٍ تنفعه في حكمِ إمبراطوريته، فطمأنه كُتّابه في بابل، "لن نتهاون في أمر الملك، سنجاهد ليلاً ونهارًا لتنفيذ توجيهات مولانا الملك[٢]"! وقد قام أسرى الحرب بنسخ الألواح الأخرى في نينوى وهم مُقيَّدون بالسلاسل. ومن بين النصوص التي صودرت من بابل سنة ٦٤٧ كانت نسخة من «ملحمة جلجامش».

وبالإضافة إلى جمع النصوص الموجودة، أمر آشوربانيبال بتأليف قصيدة ملحمية عن غزوه لعيلام. كان كثيرٌ من أسلافه قد أمر بتأليف قصائد مديح عن مآثرهم[٣]، فصار بالإمكان الآن أن تأخذ قصةُ عظمته وفتوحاته هو مكانتها إلى جانب «ملحمة جلجامش» والملاحم البابلية الأخرى لتخلد إنجازاته من أجل متعته الشخصية ومجد آشور الأعظم، وفي السنوات الأخيرة من حكمه الذي دام أربعين عامًا، كانت مقطوعاتٌ شعرية موزونة تتردد بين جدران قصره وهي تحتفي بحكمه الرشيد وشجاعته البطولية، بينما كانت القوى المعادية تحتشد على حدود دولته.

---

(1) Ibid., 310-12, with some phrasing adopted from Borger, *Beiträge zum Inschriftenwerk Assurbanipals*, 241.

(2) Quoted by George, *The Epic of Gilgamesh*, xxiii.

(٣) لا تزال لدينا نصوصٌ شاملة من ملحمة تتعلق بملك آشوري مهم من القرن الثالث عشر قبل الميلاد يُدعى توكولتي نينورتا وقد ترجمها فوستر في كتابه (*Before the Muses*, 298-317). وقد حاجج بيتر ماشينيست "Literature as Politics: The Tukulti-Ninurta Epic and the Bible," *Catholic Bible*) *Quarterly* 38 [1976], 455-82) أن توكولتي نينورتا كان يقصد من قصيدته أن تبين أن آشور هي نظيرة بابل ثقافيًا وعسكريًا، ولعل ملحمة آشوربانيبال كان يُقصد منها أن تُرسل رسالة مماثلة أيضًا. [حاشية المؤلف].

ولكن الأمور كما شاهدتَها دُولٌ، كانت الإمبراطورية مُترامية الأطراف إلى حدٍّ خَطِر، وكانت قوة بابل المُتَململة أبدًا تتعاظم يومًا بعد يوم، بينما كانت القوى المعادية تتحين الفرصة في طول البلاد وعرضها، وفي السنوات الأخيرة من حكم آشوربانيبال، سارت الأمور في نينوى في انحدار شديد، وأمارة ذلك أنه لم تُكتَب إلا بضعُ حوليات، هكذا راح البلاط الأعلى صوتًا يغرق في صمت عميق إلى درجةٍ أنه لا يُعرَف شيءٌ عن أُفول آشوربانيبال الأخير، بل إن تاريخ موته غير مؤكَّد، مع أننا نرجِّح سنة ٦٢٧، وقد تلا ذلك عدة سنوات من انعدام الاستقرار، من بينها استيلاء أحد الخِصيان على الحكم مؤقتًا، وقد كان هذا أبرز مستشاري آشور إتيل عيلاني، خليفةَ آشوربانيبال الذي لم يدم حكمه إلا قليلاً، وسرعان ما خلع أحدُ أبناء آشوربانيبال ذلك الخَصيَّ، وخلال هذه الاضطرابات رأى أعداء آشور فرصتهم، فأعلن حاكم بابل الاستقلال وسرعان ما استعاد السيطرة على معظم بابل، وقد شكل حلفًا مع الميديين في شمالي بلاد فارس، ثم انضمت إليهم عدة قبائل ومجموعات صغيرة، فبدأت القوات المتحالفة هجومها على آشور من الجنوب والشرق سنة ٦٢١، صمدت آشور لعدة سنوات، وشيئًا فشيئًا راحت المدن الآشورية تتساقط بيد الحلفاء. وأخيرًا، حاصر الغُزاة مدينة نينوى سنة ٦١٢، فسقطت بعد ثلاثة أشهرٍ فقط.

يعزو المؤرخون المعاصرون هذه الهزيمة السريعة المفاجئة إلى ثلاثة عوامل: أولاً: إن مساحة نينوى العظيمة تجعل من الصعبِ حمايتها من قوة هائلة مسلحة بالأسلحة الهجومية التي تفنن الآشوريون أنفسهم في إتقانها، لم يكن من السهل تسلُّق أسوار نينوى العالية، ولكن بينما كانت للمدينة النموذجية ربما أربع بوابات للدفاع عنها كانت لنينوى ثماني عشرة بوابة، كان لدى المهاجمين مدكّاتٌ هائلة - بمثابة دبابات - مغلفة في صناديق ثقيلة مُدَوْلَبة تعلوها أبراجٌ للرماة لصد المدافعين، وقد اكتشف علماء الآثار كومةً من الهياكل

العظمية في خرائب إحدى بوابات المدينة، وقد ثقّبت السّهامُ عظامها، مما يدل على دفاعٍ أخيرٍ مُستميت[١].

أما العامل الثاني في سقوط نينوى فمن الأرجح أنه كان طوفانًا كانت نينوى تقوم على ضفاف نهر صغير يُدعى الخسر يتفرع من نهر دجلة، وحين اتخذ سنحاريب من المدينة عاصمته المحصنة، حول مجرى نهر الخسر لينشئ حدائق ترفيهية شمال المدينة وخندقًا مائيًّا حولها، وحين هدم الغُزاة السدودَ والحواجزَ التي كان سنحاريب قد بناها تمكنوا من غمرِ مركز المدينة، فراحت أساساتها الطينية تتآكل[٢]، فمن بعد آشوربانيبال حلّ طوفانٌ حقيقي بمدينته.

وأخيرًا، رغم أن الآشوريين كان لديهم أضخم جيش في العالم، عُدَّةً وعتادًا، فإن قواتهم كانت تعاني نقصًا حـــادًّا في عديدها، كان لديهم جيش نظامي، لكن لكي يحشدوا قوة قتالية كاملة – تُقدَّر بأربعمئة ألف مقاتل – كان على القادة أن يستدعوا قوات الاحتياط من كافة أنحاء البلاد، ومن المحتمل أن كثيرًا من قوات الاحتياط الآشورية لازموا بيوتهم في مدنهم وقراهم بدلاً من أن يلبوا نداء المدينة المحاصرة، وفي كل الأحوال كان كثيرٌ من الجنود من البابليين الذين انضموا الآن إلى قوات المهاجمين، ومع ذلك لا بد أنه بقيت وحدة قوية داخل نينوى مزودة بعتاد هائل كافٍ، ولكن أفضل أسلحة الآشوريين كانت الأسلحة الهجومية، لقد ظلت سياسة الآشوريين العسكرية على مدى أجيالٍ قائمةً على إستراتيجية ثنائية من السلم في قلب الإمبراطورية والقوة الطاغية على أطرافها، كانت العربات الحربية السريعة والمدكّات الضخمة عديمةَ الفائدة للمدافعين المحاصَرين داخل الأسوار الذين يطوقهم مئة ألف مهاجم أو أكثر.

---

(1) Gwendolyn Leick, *Mesopotamia: The Invention of the City* (Penguin, 2002), 241-42.
(2) Oates, "The Fall of Assyria," 180.

وكان الأمر مسألةَ وقتٍ قبل أن يتمكن الغزاة من اقتحام البوابات وتوجيه مياه نهر الخُسر المحتقنة على المدينة التي سقتها وحمتها فيما مضى.

تقدم لنا مُدَوَّنة بابلية ناقصة الروايةَ المتبقية الوحيدة والمعاصرة لتلك الأحداث:

> تحاربوا ثلاث مراتٍ من شهر سيمانو إلى شهر آبو(١).
> [....] شنَّ [العدو] هجومًا عنيفًا على المدينة. في شهر آبو [في اليوم الذي ... حين أُخِذت المدينة ...]. حصلت مذبحةٌ عظيمة للناس والنبلاء. في ذلك اليوم هرب سِن شار إشْكون، ملك آشور، من المدينة، غنائم كثيرةٍ لا تُحصى حملوا معهم، أما المدينة فقد [حوّلوها] إلى تلٍّ من الخرائب [....] جيش آشور تخلى عن الملك [....] لملك أكّاد [....](٢).

بعد كل تلك الروايات الآشورية المليئة برائحة الدم وقصف الرعود عن نهبِ مدينةٍ مرتعبة تِلْوَ أخرى، يبدو من المناسب إلى حدٍّ ما أن هذه الأسطر الكئيبة القليلة هي السجل الوحيد عن سقوط نينوى، هناك جملُ أخرى متقطعة عن عمليات تطهيرٍ تجري في أماكن أخرى في آشور، ثم ينقطع اللوح عند

---

(١) "سيمانو" تعني بالأكادية كلاً من شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو، ولكنها في هذا السياق تشير إلى شهر حزيران/ يونيو، ونستنتج ذلك مما مرَّ معنا من قبل حول سقوط مدينة نينوى بعد ثلاثة أشهر من حصارها، بينما تشير كلمة "آبو" إلى شهر آب/ أغسطس. [حاشية المترجم].

(2) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, 419-20.

ملاحظة ختامية للقارئ، "يا مَن تحب نبو ومردوخ، حافظ على هذا اللوح ولا تجعله يغادر يدك[١]".

وما إن استولى الغزاة على المدينة حتى جردوا المعابد والقصور من نفائسها، لكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء حمل مكتبة آشوربانيبال، بل نهبوها وحطموا كثيرًا من الألواح، وتشير ألواحٌ عُثر عليها جورج سمث مخفية في باحة داخلية إلى جهد مستميت من جانب نُسّاخ المكتبة لإنقاذ ما يستطيعون، ولكن الغزاة أحرقوا بعد ذلك القصور الملكية، تداعت غرف المكتبة في الحُطام المحترق، فألقت بحوالي ٢٥٠,٠٠٠ لوح أسفل أساسات القصر؛ حيث ستظل قابعة بعيدًا عن الأنظار طيلة ألفين وخمسمئة عام.

¤ ¤ ¤

إننا ندين بكثير من معرفتنا بأدب بلاد الرافدين إلى إنشاء آشوربانيبال مكتبته العظيمة، ولكن يجدر بنا أيضًا أن نتفكر ونقول: إننا أيضًا مدينون لخرابها المفاجئ على أيدي أعدائه اللدودين، إن الأشياء في الظروف العادية تَتْلَفُ من كثرة الاستعمال، أو تنكسر، والأزمنة تتغير، والكتب القديمة تُنسى وتُهجر. فعلى سبيل المثال، لم يبق إلى يومنا هذا من مسرحيات إسخيلوس التراجيدية التسعين إلا سبعٌ، لم يتوقف الناس عن الحديث بالإغريقية، مما أتاح لتلك المسرحيات السبع أن تنجو من مصير البقية، بينما اللغة الأكادية وخطها المسماري كانتا تندثران في عهد آشوربانيبال بينما كانت الآرامية ذات الخط

(1) Ibid., p. 421.

الأبجدي الأسهل تكتسب شعبية متزايدة، فحتى لو بقيت نينوى قائمة، لتفرقت مقتنيات آشوربانيبال الرائعة أدراج الرياح خلال قرن أو قرنين، ولضاعت ألواحها أو سُرقت أو حُطِّمت لتُستخدم في تبليط أرضيات المنازل، إن الدمار المفاجئ كارثي بالنسبة إلى الشعوب التي تكابده، ولكنه منحة ربانية لعلماء الآثار، ولا يوجد حيٌّ من أحياء روما القديمة مُصانٌ كما صِينت پومپاي(١).

استرشد آشوربانيبال بمقتنياته من الكتب لحكم إمبراطوريته المترامية الأطراف، ولكن قوى كثيرةً تغلبت على ما فيها من حكمة - من الإرث الذي خلفته خيارات إسرحدون المثيرة للشِّقاق إلى ازدهار بابل المتنامي وعدم إمكانية الحفاظ على الإمبراطورية بالتخويف والترهيب. وقد لا يكون من قبيل الصدفة أن خرائب مكتبة آشوربانيبال لا تحتفظ بالملحمة عن إبادته الوحشية لعيلام بعد سحق التمرد البابلي، وبعد خمسة عشر عامًا من موته لم ينسَ الغزاة كُرههم لآشوربانيبال، فقبل أن يُحرقوا قصره فتشوه غرفةً غرفة وراحوا يهشمون وجهه كلما رأوه على نقش، وفي المشهد الذي يصور نزهة آشوربانيبال في الحديقة، لا يزال رأس الملك تويمّان المتدلي محفورًا بشكل واضح إلى يومنا هذا، ولكن قسمات وجه آشوربانيبال شوهها أعداؤه الذين عاثوا في القصر فسادًا.

---

(١) طُمرت مدينة پومپاي Pompeii جزئيًا سنة ٩٧ ميلادية بعد ثورة بركان جبل ڤيسوڤيوس، وظلت مفقودة حوالي ١٧٠٠ سنة حتى تم اكتشافها سنة ١٧٤٩. [حاشية المترجم].



ولعل أعداءه خصُّوا الشعر الملحمي لعصره بنوع خاص من التدمير، فلم يبق منه إلا ست كِسَرٍ صغيرة تتراوح ما بين سبعة أسطر وستة وأربعين سطرًا، ولأن الألواح مهشمة تهشيمًا سيئًا فإنه يندر أن تجد سطرًا واحدًا كاملاً. يصور أحد النصوص المحفوظة بشكل أفضل من غيره مشهدًا مأساويًا لأمٍ وهي تندبُ هلاك ابنها الأمير، وهذا موضوع موجود أيضًا في ملحمتي «جلجامش» و«الإلياذة»، ومع أن نصف البيت مفقود، فإن هناك ما يكفي ليوحي بضياع قصيدة مؤثرة:

[......] ترقرقت الدموع على خدَّيْ أمه:
["......] أنت، أنظرْ

[......] من علَّمك [...] المُلك؟"
[......] قامتها الجميلة علَّمتني بكاءها
[......] علمَت شِفاهي النحيب
لكي لا تَضرَّ [......][1]

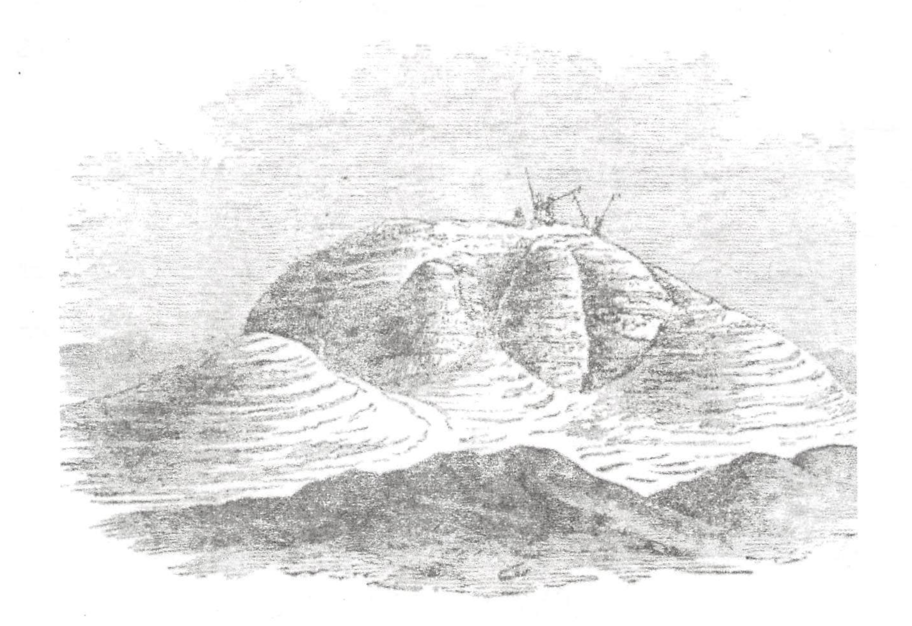
ولولا حسن الحظ الذي مكّن هُرمُزْد رَسّام من اكتشاف المزيد من هذه القصيدة، لَما عرفنا حجم خسارتنا، ربما كانت "فتحُ عيلام" عملاً دعائيًا فجًا، ولكن آشوربانيبال كان يحب الشعر، وقد جمع أكبر خزانة للنصوص في العالم، وكان يتوفر لديه من الأسباب ما يرعى ثقافة أدبية ناشطة في بلاطه، وكان في بابل شعراء عِظام حتى القرن السابق لعصره، ولو كان لدى آشوربانيبال شاعرٌ من هؤلاء تحت تصرفه، لكان من الممكن أن تصبح "فتحُ عيلام" الإليادة الآشورية.

ضاعت ملحمة آشوربانيبال، ولكن مكتبته حفظت جُلَّ الأدب البابلي، وبما أن بابل نجت من نهاية نينوى المُدوِّية، فقد راحت تتلاشى ببطء أكثر، وكان أُفولها أكثر اكتمالاً أيضًا في القرون التالية، ولم توجَد في خرائبها مثل نفائس نينوى، لقد جمع آشوربانيبال في سعيه إلى الحكم الرشيد نفائس الثقافة التي لم يتمكن قط من الإمساك بزمامها، وقد سعى الغزاة البابليون بعد آشوربانيبال إلى محو مآثره العظيمة من ذاكرة التاريخ، ولكنهم من حيث لا يدرون حفظوا أدبهم هم في خرائب قصر عدوهم المقيت، ثم راحت ألفا سنة من التراث الأدبي تتلاشى ببطء في طول بلاد الرافدين وعرضها بفعل موجات لاحقة من

(1) Ibid., no. 23, 53.

الفتوحات وبسبب زوال اهتمام البشر عمومًا بالماضي، ويا لها من مفارقة أن تكون جائحةُ خرابِ مكتبةِ آشوربانيبال هي عينها السبب وراء حفظ «ملحمة جلجامش» للأجيال القادمة، مفارقة لا شك أن مؤلفي الملحمة يقدرونها حق تقديرها لو قُيِّض لهم ذلك.

على تُخوم الثقافة



تلٌّ في أوروك، موقع معبَد عشتار

كانت «ملحمة جلجامش» موغلةً في القدم حتى في عصر آشوربانيبال نفسه، وظلت تُنسخ مرة بعد مرة لأكثر من ألف عامٍ قبل أن يدرسها ولي العهد الشاب في مَعبد نبو، وقد استهوت الملحمة مستمعيها وقراءها في البلاطين الآشوري والبابلي لجزالة شعرها ولتأمُّلها في مصاعب الحكم، كان بإمكان ملكٍ مثقف مثل آشوربانيبال أن يستمتع بجمال الشعر والموضوعات الأزلية للملحمة

عن الصداقة وقصَر الحياة الفانية، ولكنه لا يستطيع هذا إلا إذا عمَّر طويلاً للتأمل في هذه المسائل وساعدته الملحمة ذاتها على البقاء في السلطة، وليس من قبيل الصدفة أن آشوربانيبال أضاف نسخة جديدة إلى مقتنيات مكتبته سنة ٦٤٧ قبل الميلاد، بينما كان يبحث عن نصوصٍ تساعده على حكم مملكته في أعقاب كارثة تمرد أخيه عليه.

سلطت ملحمة جلجامش الضوء على عدد من المشكلات التي واجهت الملوك القدماء ورعاياهم، وقد ظلت تُعرف لعدة قرون باسم "فاقَ غيره من الملوك،" وهي العبارة الافتتاحية في الملحمة حين كُتبت أول مرة في بابل في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهذه النسخة البابلية القديمة للملحمة استهلت بإبراز عظمة الملك جلجامش:

فاقَ غيره من الملوك، وله قامة الأبطال

سليلُ أوروكَ، مقدامٌ، مثل ثور هائجٍ في النزال
فإن تقدم الجيشَ كان في طليعته

وإن تأخر أمنتْ ووثقتْ به صُحْبَتُه[1].

هنا جلجامش تقدمه لنا الملحمة على أنه بطلٌ ملكيٌّ خارق، وعلى أنه من حيث المولد أقرب في الواقع إلى الأرباب منه إلى البشر الفانين، فثلثاه من الأرباب وثلثه الآخر من البشر، فأمُّه الربَّة ننسون لها من الأثر الوراثي على ابنها ضعف ما لأبيه الفاني لوجالباندا. يسأل مؤلف الملحمة: "مَن ذا الذي يُضاهيه في المقام من الملوك؟" ورغم ما لجلجامش من أُبهة الأصل شبه الإلهي، فهو أبعد ما يكون عن الحاكم القدوة، فمطلع القصيدة يعطي إشاراتٍ مقلقة عن العنف

(1) Andrew George, trans., *The Epic of Gilgamesh: A New Translation* (Penguin, 1999), 2.

والإفراط والتهور، فجلجامش "مثل ثورٍ هائجٍ في النزال،" وبعد عدة أسطرٍ يُشبَّه "بموجةٍ من سيلٍ عَرِمٍ تدكُّ سورًا من حجر[١]"، وما إن تستهل القصيدة حتى نرى جلجامش وهو يسيء إلى رعاياه بكــل الطرق. "لا يدع جلجامش ابنًا يذهب بمحض إرادته إلى أبيه،" وكان يفرض على هؤلاء الأبناء مباريات مُضنية لا لشيء سوى متعته الشخصية. "كان استبداده يزداد قسوة كلما جنَّ ليلٌ أو بزغت شمسُ نهار." ولم تكن بناتُ مدينته أفضل حظًّا من أبنائها؛ إذ كان جلجامش يفترسهن ليلة عرسهن. "هو مَن يضاجع العروس أولاً، والعريسُ تاليًا[٢]"، غالبًا ما تُقرأ «ملحمة جلجامش» اليوم بوصفها حكايةً وجوديةً عن الخوف من الموت وطلب الخلود، ولكنها أيضًا حكاية عن الاستبداد وعواقبه.

تشكو نساء أوروك المُغتصَبات إلى الأرباب، فيقرر هؤلاء فعل شيء إزاء ذلك، وبناءً على أوامر من إله السماء آنو، تخلق الربةُ أرورو خصمًا مُرعبًا لجلجامش، خَصمًا "يُضاهي العنف الذي يعصف في قلبه." تُلقي أرورو بقطعة من الطين على بقعة مهجورة من الأرض، ثم تُدير الأرض كما يُدير الخزّافُ عجلته، "وفي البرية خلقتْ إنكيدو، البطل، سليل الصمت[٣]"، عندئذ يصل إنكيدو إلى أوروك من طريق اتفاقية غريبة، فبدلاً من إلقائه عند بوابة أوروك وأمرِه بجعل الملك يتعقَّل، يُطلقه الأرباب في السهوب، يهيم على وجهه عاريًا بين الحيوانات، وليس عليه ما يستر به عورته سوى شعره المتلبد، غير مُدرِك لهدفه في الحياة، وهذا الترتيب الاتفاقي يسمح للشاعر أن يُقدِم واحدًا من موضوعات الملحمة العظيمة، ألا وهو استكشافٌ لحدود الثقافة التي تُعرَض هنا بوصفها نقيضًا لعالم الطبيعة.

---

(1) Ibid., 3.
(2) Ibid., 15.
(3) Ibid., 5.

يعيش إنكيدو بداية حياته وكأنه في جنة عدن، وبما أنه "سليل الصمت" فهو يعيش هائمًا بوحدته تمامًا كما تمنى روسو أن يكون الناس في حضن الطبيعة، يهيم إنكيدو على وجهه مع الحيوانات، يشرب من مناهلها، ويخرب المصائد التي ينصبها لها الصيادون، وهذا هو العمل الذي يقوده، وإن بطريقة غير مباشرة، إلى أوروك، فحين يغضب صيادٌ لتخريب مصائده، يطلب من أبيه المشورة، فيشير عليه أبوه أن يذهب إلى جلجامش الذي يستطيع أن يرسل واحدة من مومسات المعبد إلى البرية لترويض الرجل المتوحش.

وبالفعل يرسل جلجامش واحدةً من مومسات المعبد تُدعى شَمْحَت إلى إنكيدو الذي لا يعرف حتى تلك اللحظة أي شيء عن الجنس، لا تضيع شَمْحَت أي وقت لتحرير إنكيدو من جهله المؤسف، فتتعرى أمامه، ويضطجعان على ملابسها، ويشرعان في جولةٍ ملحميةٍ من ممارسة الجنس:

حلَّت شَمْحَت ملابس عورتها
وكشفت عن فرجها واستسلم لمفاتنها
فما جفلت وما صدَّتها رائحته
فرشت ملابسها تحتهما وافترشها هو.
وصنعت له ما تصنع المرأة للرجل
فداعبتها شهوتُه واحتضنتها.
ظل إنكيدو منتصبًا ستة أيام
وسبع ليالٍ وهو يعاشر شَمْحَت(١).

(1) Ibid., 8.

إن تجربة إنكيدو الجنسية الأولى ليست خيرًا صرفًا ولا شرًا صرفًا، فمن ناحية، "يكتسب معرفة وفهمًا واسعًا"، كما تقول القصيدة، ولكنه يضعف جسديًا، والأنكى من ذلك أن رفقاءه الأُلي من الحيوانات صارت تفر منه، فلم يعد بإمكانه أن يبقى في البرية.

وهذه الحادثة تحمل شبهًا واضحًا مع قصة آدم وحواء التوراتية؛ حيث المعرفة جزاؤها الفردوس الأرضي. وكما الحية في التوراة تُغري حواء وتَعدُها، "ستتفتّح عيناك وتكونين مثل الله[1]"، تثني كذلك شَمْحَت على عاشقها بعد أن فرغا من المعاشرة الجنسية قائلة: "أنت وسيمٌ يا إنكيدو، إنك مثل إله[2]"، لكن لا شيء يُذكر عن الخطيئة، وفقدان إنكيدو لبراءته هو مقدمة لشيء أعظم: دخوله إلى دنيا الحضارة. كان العبرانيون الأوائل من الأقوام شبه الرُّحَّل الذين يرتابون من الحياة المدنية، أما أهل الرافدين فكانوا أول من ابتكر المجتمعات المدنية الكبرى في العالم، كانت الحضارة بالنسبة إليهم، كما للرومان لاحقًا، تتلخص بحياة المدن.

لأن شَمْحَت ابنة مدينة، فهي لا تفهم لماذا يريد إنكيدو أن يكون في أي مكان سواها، فبعد أن تُثني على وسامته شبه الإلهية، تقول له: "لماذا تسيحُ مع الوحوش في الحقول؟/ هيّا آخذْك معي إلى أوروك ذات النِّعاج[3]". ثم تواصل تعدادها لفضائل مدينتها الكثيرة، ثم تذكر - بإيجازٍ إلى حدٍّ ما - أن أوروك تضم المعابد المقدسة لكل من الإله آنو والأرباب عشتار، ربة عملها وربة الحب، ثم تصبح أكثر بلاغة حين تتحدث عن فضائل مدينتها الاجتماعية، فالناس في

(1) Genisis 3:5.
(2) George, *Epic of Gilgamesh*, 8.
(3) Ibid., 9.

"ذات النِّعاج" هو لقبٌ يتفاخر به أهل أوروك كما يتفاخر أهل حلب اليوم بقولهم حلب الشهباء أو دمشق الفيحاء؛ غير أن الباحث العراقي طه باقر، الذي أدين له بتعريب بعض الأسماء الواردة في الملحمة، يترجم عبارة "أوروك ذات النِّعاج" بعبارة "أوروك ذات الأسواق." انظر ترجمته، «ملحمة كلكامش: أوديسة العراق الخالدة».[حاشية المترجم].

المدينة يلبسون ملابس جميلة، وكل يوم كأنه يوم عيد، "تَصدح الطبولُ بأنغامها،/ والغانيات الممشوقات القوام/ ... يوقِظْنَ حتى كبار السن من فراشهم." وفوق هذا كله، تضيف شمحت: سيجد إنكيدو صديقًا صدوقًا، وندَّه الوحيد على وجه البسيطة: جلجامش.

ولكي تساعده على الانتقال إلى الحياة المتحضرة، تتقاسم شمحت مع إنكيدو أثوابها وتطلب من حلاقٍ أن يمشط شعره الأشعث ويشذِّبه، وكذلك تعرفه على ملذات الخبز الطازجِ والجعة، وبعد أن شرب سبعة أقداحٍ على التوالي، "اعتدل مزاجه، وراح يغني،/ وابتهج قلبه، وأشرق وجهه[1]". يَتَريَّث إنكيدو في البراري إلى أن تستحثه حادثة عابرة على التصرف، يمر غريبٌ في طريقه لحضور زفافٍ في المدينة، فيتوقف ليستريح قليلاً، ويذكر أن جلجامش قد يتدخل كعادته ويصر على معاشرة العروس قبل أن تذهب إلى عريسها، ولدى سماعه بهذا الأمر يستشيط إنكيدو غضبًا، ولعل غضبه هذا يعكس ارتياب أهل الأرياف عادةً من الانحلال الأخلاقي في المدينة، فيقرر أن يتجه إلى أوروك فورًا ليضع حدًا لسلوكيات جلجامش الخاطئة.

ومن الجدير ذكره أن لا أحد من هذه الشخصيات – لا شمحت ولا الصياد ولا والد الصياد ولا عابر السبيل ولا حتى إنكيدو نفسه – يعلم أنه يؤدي دورًا رسمه له الأرباب، أما جلجامش فهو أقلُّ مَنْ يدرك أنه بإرساله شَمحت لترويض الرجل المتوحش في الأرياف فهو يوثق صلتها بالشخص الذي خُلِقَ أصلاً ليوقف الفساد الذي يصنعه هو في المدينة. ولكن لماذا تُبقي الأرباب الأمرَ سرًّا عن الجميع؟ لماذا لم تستطع نِنْسون أن تُخبر ابنها سُخط الأرباب مباشرةً وتأمره أن يُصلح سلوكَه؟ إن سلوك الأرباب مُحَيِّر من ناحية الحبكة، كما

(1) Ibid., 14.

يخالف صورة الأرباب والملوك التي تقدمها الحوليات الملكية في بلاد الرافدين، غير أن هذا الاختلاف يبين الوظيفة الاجتماعية للأدب في الشرق الأدنى القديم.

لقد بالغ الإخباريون الآشوريون والبابليون في تصوير ملوكهم، فجعلوهم قادرين على كل شيءٍ وعالمين بكل شيء، فدأبوا على تحويل هزائمهم العسكرية إلى انتصارات، كما دأبوا على طمس ما لا يسر الخاطر، أيًّا كان نوعه، فكان الملوك القادرون على كل شيء يقودهم أربابٌ وربّاتٌ أكثر قوة كانوا يسيرون معهم إلى الحروب، ويحرسون قصورهم في أوطانهم، ويفعلون ما بوسعهم للحفاظ على أمن الملك وازدهار بلاده، والأدب الديني الهائل كالترانيم والأدعية والتراتيل ساعد على ضمان رعاية الأرباب للحاجات البشرية رعايةً مواظبة ومؤاتية، غير أنه لا يوجد في «ملحمة جلجامش» فاعلٌ بشري واحدٌ - وآخرهم الملك - يعرف ماذا يجري؟ فحين يستجيب الأرباب لدعاء النساء المغتصبات المكروبات، لا يُفصِح الأرباب عن استجابتهم هذه؛ مما يجعل الخطة الإلهية تبدو في عيون البشر كما لو كانت سلسلة متصاعدة من الصُّدَف.

قد يبدو هذا الوضع مفاجئًا، ولكنه يعكس الواقعية العميقة للملحمة، ففي مُداورتهم المعقَّدة، يتصرف الأرباب والربات بطريقة شديدة الواقعية بمقياس فهم جمهور الملحمة القديم لتصاريف الدهر، كان الناس يشعرون بقوة الأرباب في كل شيءٍ يحيط بهم، ولكنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الأرباب لا يمكن أن يُرَوا. نظريًّا، يمكن للأرباب أن يتحادثوا معٍ ذوي الحظوة من البشر - كما يفعل جلجامش مع أمه ننسون - ولكنهم عادةً يفضلون أن يتواصلوا مع البشر عن طريق الأحلام والنُّذُر والأحداث الطبيعية الغريبة كالولادات الخارقة للمألوف، مثل هذا السلوك غير مستَغرَب في عالمٍ يقبع ملوكه داخل قصورهم ويتخاطبون مع رعاياهم عبر حاجزين أو ثلاثة من بيروقراطية القصر، ولذلك

من المنطقي أيضًا أن يستخدم الأرباب العظام وسطاء للتواصل مع عبادهم في الأرض.

تكمن المشكلة في معرفة كيفية قراءة الآيات الآتية من السماء. من حيث المبدأ، كانت هذه الرسائل مفهومة للملك وكهنته الحكماء، لكن عمليًّا كانت رسائل الأرباب في غالب الأحيان غامضة وملتبسة، بل متناقضة. تُظهِر مراسَلات إسرحدون القلقة مع كهنته واقعًا لا يُمكن أن يُسمَح بتدوينه في الحوليات الملكية أو الترانيم. في هذا السياق كان للأدب وظيفة لم يَحظَ بها غيره، ألا وهي أنه أصبح منتدى نادرًا يمكن لهذه المخاوف أن تُطرح فيه على الملأ. في الأدب كما في الحياة، يمكن للملك أن تكون فيه مثالب كبيرة على الصعيدين الشخصي والإداري، وحتى الملك الجيد يمكن أن يتبرّم من محدودية سلطته ومعرفته، وحين يستمع الملك وحاشيته إلى الملحمة وهي تُتلى على مسامعهم يمكنهم أن يتأملوا في مآزق أوضاعهم.

تقدم الأحلامُ مثالاً جيدًا على مُلابَسات التواصل بين الأرباب والبشر. قبل أن يصل إنكيدو إلى أوروك، يرسل الأرباب إلى جلجامش إشعارًا سابقًا على هيئة حُلمَي نبوءة؛ ليقدماه رمزيًّا إلى صديق المستقبل. إلا أن هذين الحلمين غامضين إلى درجة محيرة للملك الذي يضطر لسؤال أمه كي تفسرهما له. في الحلم الأول يخرُّ شهابٌ من السماء، فيجتمع حوله حشدٌ من الناس، فيبدؤون بمداعبته وتقبيله، أما جلجامش فيلتقطه ويقدمه إلى ننسون. في الحلم الثاني الموازي، تحل فأسٌ محل الشهاب. وحين تُسأل ننسون عن تفسير هذين الحلمين، تكشف أن كلاًّ من الشهاب والفأس صورة لصديق حميم، "كأنه زوجة ستحبه وتداعبه وتعانقه،/ سيكون جبارًا وسينقذك في كثير من الأحيان[1]"؛ إذن

(1) Ibid., 10.

تم فك شيفرة الرسالة، لكن جلجامش ليس لديه فكرة عمن سيكون هذا الصديق، عندئذ يظهر إنكيدو في أوروك، ولكن جلجامش يظن أنه عدو فيحاول أن يقتله—وهذا أمرٌ مفهوم؛ نظرًا لأن أول عملٍ يعمله إنكيدو هو منع جلجامش من دخول المنزل الذي يُقام فيه عرسٌ وافتراسِ العروس، يشتد الصراع بينهما إلى درجة تهز جدران المبنى والمدخل، ويظل الصراع بينهما سجالاً إلى أن يتوقفا، وأخيرًا يدرك جلجامش أنه عثر على نِدّه، فيصبح هو وإنكيدو صديقين حميمين.

إجمالاً، يعطي الحلمان اللذان أرسلهما الأرباب إرشادًا هزيلاً، إما لأن رسالة كل منهما الرمزية مُلتبسة أو لأن عناد جلجامش يمنعه من إعارتهما الانتباه الملائم، فلا يرى في إنكيدو إلا عائقًا أمام تحقيق شهواته بدلاً من أن يدرك أن الغريب المهيب هو خليله الموعود، هكذا تبدد الملحمة أي وهمٍ حول الشفافية الكاملة في التخاطب مع الأرباب، وفي الوقت ذاته، تمنح هذه الحادثة الشاعر فرصةً ليضيف تلميحاتٍ موحية من عنده. تقول ننسون: إن جلجامش سيداعب إنكيدو ويحتضنه كأنه زوجته، وهي هنا تستخدم عَيْنَ الفعلين اللذين استُعملا لوصف معاشرة إنكيدو لشمحت. في القصائد السومرية الأولى التي نشأت منها الملحمة، كان إنكيدو خادمًا أمينًا ومستشارًا موثوقًا، ولا يوجد أي تلميح لعلاقة رومانسية بينه وبين سيده. أما في الملحمة فتوحي لغة ننسون بأن جلجامش وإنكيدو بينهما علاقة أكثر حميمية، وكلا الحُلمين يلمحان بشكل ماكر إلى أنهما قد يكونان عاشقين صريحين، وهذا التلميح يُشار إليه من خلال اختيار الشيئين اللذين يبدأ جلجامش يحبهما ويداعبهما في حُلمَيْه: فكلمتا "كِسْرو" (شهاب) و"هاسِنو" (فأس) لهما مدلولاتٌ جنسية قوية، فكلمة "كِزْرو" تعني بائع هوى من الذكور، بينما كلمة "آسِنو" تعني المخصي الذي يأخذ دور الأنثى في

الطقوس الجنسية في معبد عشتار[1]، وهذه هي المرة الأولى المعروفة في الأدب العالمي التي يدرك فيها شاعرٌ أن ملابسات الأحلام - التي تكون مصدرًا للقلق العميق في حياة اليقظة - يمكن أن تكون مصدر سعادة للكاتب.

¤ ¤ ¤

وأيًا كان معنى مداعبة جلجامش ومعانقته لإنكيدو، فهو يتخلّى عن إساءته لرعاياه ويعود النظام إلى المدينة، إلا أن قلبه اللجوج لا يقر له قرار، وسرعان ما يضع جلجامش خطة جريئة للارتحال إلى غابة أرزٍ بعيدة لجلب الأخشاب لمعابد مدينته، يتغير مكان هذه الغابة عبر الأزمنة، ففي النسخة السومرية لهذه الحادثة، توجد غابة الأرز شرق الجبال الواقعة في غربي بلاد فارس، غير أنه مع مرور الزمن أصبحت تلك المنحدرات خالية من الحِراج، ثم صار البابليون والآشوريون يرتحلون غربًا إلى لبنان حيث غابات الأرز مشهورة في طول الشرق الأدنى وعرضه، تدور الأحداث الكبرى في النصف الأول من «ملحمة جلجامش» حول رحلة الصديقين إلى لبنان، وهما يحفران الآبار في طريقهما إلى أن يبلغا غابة الأرز، وهناك عليهما أن يهزما البُعبُع الرهيب هُمبابا الذي نصَّبه الإله إنليل حارسًا على الغابة.

مع الهجوم على البُعبُع تكتسب المغامرة بؤرة مزدوجة تناسب الدور المزدوج لملكٍ من ملوك بلاد الرافدين: الغزو العسكري والتحكم بالموارد

(1) A. D. Kilmer, "A Note on an Overlooked Word-play in the Akkadian *Gilgamesh*," in *Zikir Šumim: Assyriological Studies Presented to F. R. Kraus*, ed. G. van Driel et al. (Brill, 1982), 128-29.

كما يضيف أندرو جورج دليلاً إضافيًا يعزز هذا التفسير في:

The Babylonian Gilgamesh Epic (Oxford, 2003), 1:452-54.

الطبيعية الشحيحة، كانت بلاد الرافدين مصدرًا عظيمًا للطين والقش المطلوبين لصناعة الأسوار الطينية، غير أن الخشب الصلب الجيد كان صعب المنال، كانت مشاريع البناء الضخمة تتطلب أشجارًا ذات ارتفاع ومتانة استثنائيين لصناعة عوارض الأسقُف والأبواب، وكان أرز لبنان مثاليًّا لهذا الغرض، لم يكن مهندسو الملك يخجلون من التذمُّر إن عجز الملك عن توفير مثل هذه الأخشاب، سواء بالتجارة أم بالغزو، لا يهم، ما يهمهم هو البضاعة وحسب، وقد كتب أحد البنائين المتضايقين إلى سرغون الثاني: "إن أخشاب الدرجة الثانية التي لدينا والتي [صار لنا نقطعها حسب الطلب] متوفرة بكثرة، ولكنها في الحقيقة لا تفي بالغرض. ... إنها من شجر التّنوب الرقيق جدًّا، لقد جربتها هنا ولكني رفضتها، لو كانت من أشجار الأرز لقطعتها حسب الطلب وركّبتُها"؛ لذلك لا بد للملك من التدخل، "فما أوامر مولاي الملك الآن؟ فإن أمر الملك أن تُستخدَم، فليكتب مولاي الملك بهذا الخصوص تحديدًا... وسأمتثل للأمر أصولاً وأوصي ناظر القصر ليضعها في سجل الحسابات(1)"، وما أراده البنّاء هو أن يضع النقاط على الحروف: إن خرَّ السقف على رأس الملك، فهذا خطؤه هو.

(1) Giovanni B. Lanfranchi and Simo Parpola, eds., *The Correspondence of Sargon II: Part II, Letters from the Northern and Northeastern Provinces* (Helsinki, 1990), no. 295, 209.



رسمٌ طيني لرأس البعبع هُمبابا وكأنه مصنوعٌ من مُصران نعجة واحدة. يقول النقش في الخلف: إن مصران النعجة الذي يشبه وجه هُمبابا يدل على "الثورة".

كان الحصول على أخشاب ذات نوعية عالية من بين المآثر العظيمة التي تُروى في سِيَر ملوك بلاد الرافدين الجريئة، ففي حوالي ٢١٣٠ قبل الميلاد تبجَّح مؤرخ قائلاً: إن ملكه، غوديا اللاغاشي، "شقَّ طريقًا عبر جبل الأرز الذي لم يدخله أحد من قبل قط، فقطع أشجاره بفؤوس عظيمة(١)"، وبعد أكثر من ألف

(1) James Pritchard, ed., *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament* (Princeton University Press, 3rd ed., 1969), 268.

سنة، نصب الملك الآشوري شَلْمَنصَّر الثالث نقشًا تذكاريًّا؛ تخليدًا لاستيلائه على الأخشاب خلال غارة على قبائل المنطقة الآرامية، "ملأتُ السهل الواسع بجثث مقاتليهم، وصبغتُ الجبال بدمائهم حتى صارت كأنها صوفٌ أحمر. ... صعدتُ جبال الأمانوس ورحت أقطع أخشاب الأرز والصنوبر[١]"، ولا عجب أن هذه الغارات على موارد لبنان أثارت الخوف والحقد في المنطقة، وفي سفر إشعيا في التوراة نجد أنه حتى الأشجار تحتفل بسقوط ملكٍ بابلي، لعلَّه نبوخَذَنَصَّر:

ارتاحت الأرض كلها واطمأنت
وراحت الأشجار تُغنِّي

وأشجارُ السرو تَهلَّلت شامتةً
وأرز لبنان يقول:
"منذ أن أُطيح بكَ،
لا أحد يأتي ليقطعنا[٢]".

وكذلك تقدم لنا «ملحمة جلجامش» الحملة إلى غابة الأرز على أنها مغامرة عسكرية لا تخلو من التحديات، ففي البداية يحاول إنكيدو أن يثني جلجامش عن الفكرة، قائلاً: إنه قابل البعبع الرهيب هُمبابا بينما كان يسيح في البرية في بداية حياته، وأن مواجهته ضربٌ من الحماقة: "إن صوته هو الطوفان، وكلامه هو النار، ونَفَسَه هو الموت! ... أما أن تنصب كمينًا لهُمبابا فتلك معركةٌ خاسرة[٣]"، فيرد جلجامش على تحذيرات إنكيدو بافتخارِ بطلٍ

(1) Ibid., 277-78.
(2) Isaiah 14:7-8 (New Revised Standard Version).
(3) George, *Epic of Gilgamesh*, 18.

ملحمي حقيقي لا يخاف: "لماذا تتحدث كالرعديد يا صديقي؟[١]" ثم يشرع في تفصيل دوافعه:

من ذا الذي، يا صاحِ، يصعد إلى السماء العالية؟
لا أحد ينعم بضوء الشمس الأزلي سوى الأرباب.
أما الإنسان فأيامُه معدودة
وأيّما شيءٍ يفعله فكأنه قبْضُ ريحٍ.
وها أنت تخشى الموت!
فما الذي حلَّ ببسالتك الكاسرة؟[٢]

وما يزيد من تعطُّش جلجامش للمغامرة إحساسه بِقصَر الحياة وعبثيتها، وهذه الفكرة يتم التوكيد عليها بشكل أكبر في الأصل السومري لهذا الحدث، "بِلجامش وهَواوا" (وهما الاسمان السومريان لكلٍّ من جلجامش وهُمبابا على التوالي)، في تلك القصيدة يقول بِلجامش لإنكيدو: "بما أنه لا مهربَ لإنسانٍ من نهاية الحياة، فسأدخل الجبل وأخلِّد اسمي"[٣] – وما يقصده هو أنه سيقيم نصبًا تذكاريًّا لانتصاره في غابة الأرز، كما سيفعل شلْمَنَصَّر لاحقًا في لبنان، عندئذ يستنجد بِلجامش بإله الشمس أوتو (الذي يُضاهي شمش عند السومريين)، وهنا يطفو خوفه العميق من الموت إلى السطح:

(1) Ibid., 19.
(2) Ibid., 110-11.
(3) Ibid., 151.

دعني أحدثْكَ يا أوتو، فاستمع لما أقول!
دعني أُخبرك شيئًا لعلّك تتأمله!
في مدينتي يموت إنسانٌ فيحزن قلبي،
ويهلكُ إنسان فيتألم قلبي
رفعتُ رأسي من فوق السور
فوقعت عيني على جثةٍ طافية على الماء
يجرفها النهر:
هكذا هو مصيري، هكذا سأكون![1]

شيوخ أوروك في الملحمة يُشاطرون إنكيدو قلقه من خطة جلجامش، فيقولون له: "أنت شابٌ تدفعه العاطفة، يا جلجامش، ولا تفهم ما تقول[2]". يسخر جلجامش من مخاوفهم لكنه يدرك أنه بحاجة إلى مساعدة، وكما في القصيدة السومرية القديمة، يكون إله الشمس هو المصدر المنطقي للعون، ولكن جلجامش لا يحاول الحديث مباشرة إلى شمش كما فعل بلجامش مع أوتو، وهذا يعكس ابتعاد الأرباب المتزايد عن البشرية في العصور اللاحقة، ولكنه يذهب إلى أمه التي تطلب له العون نيابةً عنه، ومع أنها ربةٌ صغيرة لا أكثر، فهي بكل بساطة تصعد إلى سطح قصرها حيث تقدم قربانًا من البخور وتصلي لشمش.

وهذا المشهد أكثر واقعية من المشهد المماثل في ملحمة «الإلياذة» حيث تتوسل ثيتس، أم أخيل الإلهية، إلى زيوس لكي يساعد ابنها في المعركة، ولكي تقول مناشدتها: تصعد ثيتس "إلى أعلى قمة في جبل الأولمب الوعر[3]"؛ أي في

---

(1) Ibid., 151.
(2) Ibid., 22.
(3) Homer, *The Iliad*, trans. Richmond Lattimore (University of Chicago Press, 1951), 72.

النقطة التي تلتقي فيها السماء بالأرض؛ حيث يقيم زيوس عرشه، وهناك تمسك بركبتيه بيدها اليسرى، وتلامس ذقنه بيمناها، بحيث تجبره على النظر في عينيها وهي تناشده. بالمقابل لا يوجد اتصال مباشر في «ملحمة جلجامش» بين شَمش وننسون التي تتحدث باسم العالَم كله كأنها كاهنة بشرية:

صعدتْ الدرج واتجهتْ نحو السطح،
وعلى السطح وضعت مِبْخرة لشمش
ثم رفعت ذراعيها لتناشد إله الشمس وهي تنثر البخور:
"لماذا ابتليتَ ابني بمثل هذه الروح القلقة؟
ها قد مسستَه الآن وسيسير
في تلك الدروب الطويلة إلى موطن هُمبابا.
سيخوض معركة لا قِبَل له بها،
وسيمشي طريقًا لا يعرفها[1]".

تطلب ننسون من شمش أن يرسل رياحه الثلاث عشرة العاتية لتساعد جلجامش في هزيمة هُمبابا، ولكن الملحمة لا تسجل لنا جوابًا مباشرًا من شمش – وهذا أمر يوحي بظروف الدعاء البشري – ولكن الرياح الثلاث عشرة تهب لمساعدة جلجامش في المعركة الحاسمة، فتشل حركة البعبع إلى درجة تمكن جلجامش وإنكيدو من أسره.

ومع أن «ملحمة جلجامش» و«ملحمة الإلياذة» تصور كل منهما لقاءاتهما السماوية بشكل مختلف، فإنهما تستخدمان توسل الأرباب لغايات

(1) George, *The Epic of Gilgamesh*, 24.

متشابهة، فقلق ننسون على أمن ابنها يماثله الخوف الذي تعرب عنه أم أخيل حين يطلب منها أن تضمن له مساعدة زيوس في معاركه:

فأجابته ثيتس والدموع تنهمر من عينيها:

"آه، يا بني، يا تعيسَ المولد، لماذا ربَّيتُك؟
لو أنك تبقى بجانب سفنك بلا دموع ولا أسى،
ما دام أجَلُك قصيرًا لا طول فيه(١)".

في كلتا الملحمتين، تتجلى هشاشة الحياة الفانية من خلال قلق أم البطل الخالدة، وفي كل حالة، ينجو البطل الفاني من الموت مؤقتًا، رغم أن فناءه النهائي يلقي بظلاله على كل القصة، وضمن حدود الملحمة يُنقَل فناء البطل إلى شخص خليله الذي يموت موتًا مأساويًا في إطار أحداث الملحمة، وفي هذا المقام، فإن باتروكلوس، خليل أخيل وعشيقه، هو سليل إنكيدو الذي من صلبه.

قد لا تكون هذه التشابهات وليدة الصدفة، لقد كان لملحمة جلجامش انتشار واسع في الشرق الأدنى، وقد وُجدت كِسَرٌ من ألواحها في مَجِدّو في فلسطين، إلى الشمال قليلاً من القدس، وفي آسيا الصغرى حيث تُرجمت الملحمة إلى اللغة الحِثية، لغة المملكة الحِثية الجبارة التي كانت تُحاذي المستوطنات الإغريقية في طروادة وغيرها على طول ساحل ما يُعرف اليوم بسوريا وتركيا، وكما يحاجج عالم الكلاسيكيات إم إل وست، من المرجَّح أن المغنين الشعراء كانوا يُغنون «ملحمة جلجامش» في سوريا وقبرص خلال الفترة التي شهدت النشأة الأولى لملاحم هوميروس(٢).

---

(1) Iliad, 70.
(2) West, *The East Face of Helicon* (Oxford University Press, 1997).

كان الشعراء الإغريق الأوائل أميين، ولا توجد نصوص لدى هوميروس مترجمة ترجمة مباشرة من أي شيء في «ملحمة جلجامش»، ولكن كثيرًا من الناس كانوا في الواقع ثنائيي اللغة (بل متعددي اللغات)، فمن المرجح أن الشعراء الهوميريين، لدى سماعهم «ملحمة جلجامش» وهي تُغنّى، قد وجدوا فيها موضوعاتٍ يمكنهم أن يُكَيِّفوها لغاياتهم، ظل التبادل الثقافي المكثف قائمًا على قدمٍ وساق في محيط حوض المتوسط القديم على مدى قرون، وهذا واضح للعيان في الأثر العميق الذي تركه التراث الفارسي وتراث الشرق الأدنى في الفن الإغريقي، والكتابة وصلت إلى اليونان مع التجار الفينيقيين الذين تبنوا أبجديات سامية غربية مبكرة استخدمتها الأقوام السورية والكنعانية، وعبر وسائل الانتقال هذه، صار أخيل وصاحبه البطل القلق أوديسيوس يحملان شبهًا عائليًّا مميزًا مع جلجامش، جدهما الملحمي الأكبر.

¤ ¤ ¤

في «ملحمة جلجامش» كما في «ملحمة الإلياذة»، تؤدي مغامرات البطل إلى موت خليله، وانتصار جلجامش على هُمبابا هو انتصارٌ كبير، ولكنه أيضًا أول فصل في مأساة إنكيدو، وبما أن إنكيدو قد حذَّر جلجامش من الإقدام على الرحلة، فإنه يَمضي فيها على مضض، ولكن جلجامش يرى عدة أحلام مشؤومة وهما يسيران نحو غابة الأرز، تحدث كوارث مجتمعة في هذه الأحلام: يُدفَن جلجامش تحت كتلة هائلة تنهار من جبل، ويغمره بركانٌ، ويهاجمه ثورٌ بري ثم نسرٌ كاسر له رأس أسد. جلجامش، الذي تجمد جسده

خوفًا من هذه الأحلام المرعبة، يطلب من إنكيدو أن يفسر هذه الأحلام، وبدلاً من أن تكون هذه أفضل فرصة يجدد فيها إنكيدو تحذيره من مغبة الهجوم المُبيَّت، وبدلاً من أن يستنتج الاستنتاج المنطقي من هذه الأحلام، يسقط إنكيدو في الإغراء الكلاسيكي الذي يقع فيه مستشارُ أي حاكمٍ بأمره، فيقول لجلجامش ما يريد سيده أن يسمعه، فهو يزعم مُداورةً بأن كلاً من الانهيار الجبلي والبركان فألُ خير؛ إذ لا يشيران إلى هُمبابا الذي ينويان هزيمته، كما يزعم أنهما سيقيدان جناحي النسر الذي له رأس أسد، بل يزعم أن جلجامش هو الثور القوي، مع أن جلجامش هو الذي يتعرض لهجوم الثور في الحلم.

وما إن يصلا غابة الأرز حتى يبدأ إنكيدو يتهور في أفعاله ونصائحه، فيسخر من جلجامش حين يتردد سيده في الهجوم، كما يصبح قاسيَ القلب حين يأسران هُمبابا، يطلب منهما البعبع الرحمة ويعدهم بعطايا سخية، كما يقول: إنه بحماية .الإله إنليل الذي نصَّبه في الغابة المقدسة لحماية أشجارها، يميل جلجامش إلى الصفح عن هُمبابا، ولا سيما أنه حاز الخشب المطلوب ومجد الانتصار، ولكن إنكيدو يتدخل؛ يقول إنكيدو: إنه بدلاً من إطلاق سراح أسيرهما، عليهما أن يقتلاه فورًا؛ لأنه يشكل خطرًا عليهما إن تركاه حيًا، أما عن غضب إنليل، فهذا ببساطةٍ مدعاةٌ للتصرف سريعًا، بل عليهما أن ينفذا الأمر قبل نشرة الأخبار، كما يُقال، وينتشر خبر أسر هُمبابا:

أجْهِز عليه واذْبحْهُ، تخلَّص من قوته
قبل أن يسمع إنليل بفعلتنا!
سيهب الأرباب العظام علينا غاضبين

إنليل في نفّر وشميش في [لارسا] ...،
اجعل لنفسك [صيتا] يدوم
يذكر للأجيال كيف [ذبح] جلجامش هُمبابا [الرهيب][1].

يتبع جلجامش مشورة إنكيدو ويقطع رأس هُمبابا، ولكن ليس قبل أن يلقي عليهما البعبع لعنة مرعبة، "ليت هذين لا يشيخان معًا!/ لن يدفن أحدٌ إنكيدو إلى جانب خليله جلجامش![2]" لما طوّر الشاعر الملحمي حكاية المغامرة القديمة "بلجامش وهواوا،" جعل منها صورة مُدوية للضغوط التي تواجه مستشاري ملكٍ عنيد، يفشل إنكيدو في المهمة المنوطة به تباعًا، فيكون موته نتيجة لذلك.

بعد ذلك يأتي الحدث المحوري للقصيدة، وهي النقطة المركزية لألواح الملحمة الثلاثة عشر: محاولة إغواء جلجامش من قِبَل الربة عشتار، وهي محاولة ستنتهي بموت إنكيدو وتَحَوُّل فكر جلجامش عن مجد الدنيا، فلدى عودته إلى أوروك مع رأس هُمبابا، يستحم جلجامش ويرتدي أفخر ثيابه الملكية، وعندما تراه عشتار تقع في غرامه، فتظهر فجأة وتدعوه - بل تكاد تأمره - ليتخذها زوجة له، وتعده بثراء خرافي لقاء ذلك، ولكن جلجامش يصعقها ويفاجئها برفض عرضها، ويهينها إهانة لا لبس فيها بسبب خيانتها وفجورها:

أنتِ موقدٌ [يُذيب] الجليد
ونصفُ بابٍ لا يحجب نسيمًا ولا ريحًا عاصفة

(1) George, *Epic of Gilgamesh*, 43.
(2) Ibid., 44, slightly modified.

وقصرٌ يسحق محاربيه البواسل

وفيلٌ يلتهم ما يُظلّه

وسخامٌ يُسوّد يَدَيْ حامله

وقِربةٌ تبلل حاملها من رأسه إلى قدميه

وحجرٌ جيريٌّ يقوّض جدارًا من حجر

ومِدكٌّ يبيد العدو

ونعلٌ يعض قدم صاحبه![1]

لا يكتفي جلجامش بالهجوم على شخصها، بل يعطي تلخيصًا ساخرًا لتاريخها الإيروسي، قائلاً: "تعالَي، دعيني أُخبرْكِ حكاية عُشّاقك،" ثم يُعدّد قائمةً من الرجال، بل يذكر حصانًا وأسدًا، الذين أغوتهم عشتار ثم هجرتهم، فعاشوا عيشةً بائسةً مكروبة بعد ذلك، ثم يختتم جلجامش بسؤال عدواني: "أينبغي لك أن تعشقيني أيضًا و[تعامليني] بالمثل؟[2]" تستشيط عشتار غضبًا، فتطلق ثور السماء المرعب، وهو وحشٌ جبارٌ إلى درجة أن شخيره يفجُّ حفرة في الأرض تبتلع مئتي رجل، وهائلٌ يستطيع أن يخفض منسوبَ نهرٍ بمقدار سبعة أذرعٍ بشربة واحدة، ومع هذا يتمكن جلجامش وإنكيدو من قتل الثور، وهذه مأثرةٌ من المآثر التي يصورها فن بلاد الرافدين في غالب الأحيان.

(1) Ibid., 49, adopting several readings from the translation by Maureen Gallery Kovacs, *The Epic of Gilgamesh* (Stanford University Press, 1989).
(2) Ibid., 49.



طبعةٌ مأخوذة عن ختمٍ أسطواني يبين إنكيدو (يسار) وجلجامش بحُلَّته الملكية وهما يذبحان ثور السماء.

وقد جرى تسجيل هذا الحدث لأول مرة في قصيدة سومرية بعنوان "بلجامش وثور السماء."[١] وهنا أيضًا تبدو إغواءات ربة الحب غير لائقة، ولكن على نحو محدود ومحدد؛ أي: إنها ستُلهي الملك عن واجباته الطقسية إن أصبح عشيقها، ولأن جلجامش لا يعرف ماذا يفعل، يستشير أمه التي توصيه برفض هذا الشرف، فيفعل ذلك بطريقة دبلوماسية، ويقدم لها الهدايا عوضًا عن نفسه، أما في «ملحمة جلجامش»، فتكتسب المواجهة تكثيفًا دراميًا، فجلجامش

1 In George, *The Epic of Gilgamesh*, 166-75.

لا يستشير ننسون، ولكنه يرفض عشتار عَفْوَ الخاطر، ويكيل لها الإهانة تلو الإهانة بحديثه عن فجورها.

كيف لنا أن نفهم ردة فعل جلجامش؟ أتراهُ يقف، نيابةً عن البشرية، في وجه النظام البائد للآلهة العديمة الأخلاق في غالب الأحيان أم أنه يبدي غطرسة سخيفة لظنه أنه يستطيع أن يهين ربةً عظيمة ويرفضها بمحض إرادته؟ يمكن أن يكون كلا الاحتمالين صحيحًا، في جزءٍ منها، تعكس السمة الصارخة للمواجهة تَزايُد الانفصال بين عالمَي البشر والأرباب خلال الألفية الثانية قبل الميلاد، فعلى النقيض من القصيدة السومرية، تشير «ملحمة جلجامش» ضمنًا إلى أنه من غير اللائق بل من السخف أن تهبط إلاهة إلى الأرض كي تُضاجع بشرًا فانيًا بغض النظر عن وسامته، دأب الملوك في العصور السالفة على الدخول في علاقات جنسية طقسية مع كاهناتٍ يمثلن عشتار ونظيرتَها السومرية إنانا، وبهذه الطريقة ساعد الملوكُ على ضمان خصوبة البلاد وازدهارها عبر طقس "الزواج المقدس" مع كبيرة الكاهنات في معبد الأرباب.

في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، على سبيل المثال، جعل شُلْغي، ملك أور، من علاقته الحميمة مع إلاهة الحب مفخرةً يتفاخر بها، قائلاً: "أنا شُلغي الذي اختارته إنانا لوسامته[1]"، وبعد ألف عامٍ تقريبًا، لا تقدم «ملحمة جلجامش» بنسختِها الرسمية مثل هذه العلاقات المقدسة على أنها أحداث ممكنة أو لائقة، ولكن القصيدة ليست متسقة تمامًا في هذه المسألة؛ حيث إن أم جلجامش ربة، وهكذا فإن جلجامش نفسه وليد اتحاد قريبٍ نسبيًا بين ربةٍ وبشرٍ

(1) "Šulgi A." Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, http://etcsl.orinst.ox.ac.uk., text 2.4.4.01, 1. 15.

فانٍ. ومع ذلك، فإن الثقافة البشرية، ضمن أحداث الملحمة، تبدو لنا محتلة مجالها المناسب، ومتزنة بين عالَم الطبيعة وعالم الأرباب.

من المرجَّح أن جمهور الملحمة استمتع بكوميديا الهجوم على النساء المتمثلة بإهانة عشتار، وحتى الأرباب يظنون أن جلجامش محقٌّ فيما قال، فعندما تعود عشتار غاضبة إلى السماء لتطالب بثأرها يرد عليها الإله آنو، "آه، ألستِ أنتِ من استفز الملك جلجامش؟(1)" في الوقت نفسه، من المفارقة أن جلجامش الذي يرفض ربة الحب لقلة أخلاقها يتجاهل حقيقة أنه يدينها لعلّةٍ هي ألْصَقُ به: اغتصابه لعرائس لا يرغبن فيه شريكًا! علاوة على ذلك، ليست عشتار مجرد ربة قوية من بين كثيرات، بل هي الربة الحامية لمدينته، ومعبدها العظيم هو قلب مدينة أوروك؛ ولهذا ينبغي عليه أن يكون على انسجام تامٍّ معها، وحتى إن صار يرفض النساء الآن من أجل علاقات تواُدد حميمية مع إنكيدو، فعليه على الأقل أن يجد طريقة يطري بها عشتار ويرضيها، ولكن هذا الاحتكاك مع عشتار يضاعف من صعوبة المغامرة ضد هُمبابا، بيدَ أن جلجامش، في الحب كما في الحرب، لم يقبل حدوده البشرية بعد، التي لا تفترض فصلاً بين عالمي البشر والأرباب فحسب، بل تتطلب مُداراة دائمة مع أربابٍ مستبدين جاهزين للانتقام انتقامًا شنيعًا إن أُغْضِبوا.

ربما تُقْدِم عشتار على فعل غوايةٍ لا يجدر بها أن تفعله، ولكنه أيضًا عرضٌ لا ينبغي لجلجامش أن يرفضه، أو على الأقل ليس بهذه الفظاظة، إن ذنب جلجامش هو أنه يفشل في تقدير الأمور كما ينبغي لملكٍ أن يقدرها، وما يزيد الطين بلةً هو أن رفيقه إنكيدو لا يقدم تلك المشورة السديدة التي يمكن أن تلطِّف الأجواء وتنقذ الوضـــع، فبعد أن صدَّها جلجامش لا تلجأ عشتار إلى

(1) George, *Epic of Gilgamesh*, 50.

عقابه مباشرةً، بل ترسل إليه ثور السماء، وتكتفي هي بالعمل عبر وسيط بالطريقة المعتادة، مع ذلك حين يتمكن جلجامش وإنكيدو من ذبح الثور، لا يعرف إنكيدو حدًا يتوقف عنده، كانت عشتار تراقب من قمة سور أوروك الشاهق، وعندما يُذبَح رفيقها تبدأ تقفز وتتخبط من الغضب، وحين يسمع إنكيدو صرختها، يقطع إحدى فخذي الثور ويقذفها بها صائحًا: "لو أمسكتُ بكِ لعاملتُكِ بالمثل، ولَجعلتُ أحشاءه تتلى على ذراعيك!"[1] في هجومه المباشر على عشتار ينتهك إنكيدو الفصل القائم بين عالمَي البشر والأرباب انتهاكًا قاتلاً، وهو فصلٌ قوَّضته عشتار سلفًا بهبوطها على سور أوروك، تعود عشتار إلى السماء، ورغم أن الأرباب لا يستحسنون إرسالها ثورَ السماء، فإنهم يقررون أن إنكيدو تمادى كثيرًا ويجب أن يموت.

يُخصَّص لوحان من أصل أحد عشر من ألواح الملحمة للحديث عن موت إنكيدو البطيء وحِداد جلجامش المُطوَّل على موت خليله، وما إن يبدأ إنكيدو يحتضر حتى يأتيه حلمٌ مرعب، يأتيه رجلٌ متجهِّم له أصابعٌ كأنها مخالب نسرٍ ويمسكه من شعره، ومع أن إنكيدو لا يعرف من هذا الرجل، فإن مهاجمه هو مَلَك الموت، هوموت تَبال، الذي يعني اسمه "أبْعِدْه سريعًا." يجر هوموت تَبال إنكيدو من شعره إلى بيت الثرى:

إلى البيت الذي لا يغادرُه أبدًا مَن يدخلُه
على الدرب الذي لا رجعةَ منه لسالكِه
إلى البيت الذي يُحْرَم ساكنوه من النور

---

(1) Ibid., 52.

حيث لا قوتَ لهم إلا من ترابٍ ولا طعامَ إلا من طين
وحيث يلبسون كِسوةً من ريشٍ كالطيور
ويعيشون في ظلامٍ سرمديٍّ بلا نور[1].

وحين يدخل بيتَ الثرى يرى إنكيدو كومة من التيجان مكومة بُعَيْدَ المدخل مباشرةً؛ مما يعني أن سلطانَ الدنيا لا قيمة له في العالم السفلي حيث لا تمييز بين ملكٍ وخادم، وحين يدنو من بعلة صيري - كاتبة العالم السفلي - ترفع هذه رأسها عن الرقيْمِ الذي أمامها، فتنزعج حين تجده هناك بهذه السرعة، فتسأل: "[من الذي] أتى بهذا الرجل إلى هنا؟ [من] جاء [بهذا الشخص] إلى هنا؟[2]"

يتلو ذلك أربعون سطرًا تصف فيما يبدو أهوال العالم السفلي، ومن الطرائف الدالة على موضوع الملحمة ذاتها أن هذه الأسطر لم تنجُ من الضياع في أي نسخة مكتشفة حتى الآن من اللوح، وحين يستأنف النص، يتعجَّب جلجامش من حلم إنكيدو، عندها تبدأ قوة إنكيدو تتلاشى، لا بد أن موت إنكيدو يحدث في سطور اللوح الثلاثين الأخيرة المفقودة أيضًا، وحاليًا لا يوجد لدينا إلا حوالي ألفي بيتٍ كامل بشكل أساسي من أبيات القصيدة الثلاثة آلاف، وهذا نسبةٌ ملائمة: ثلثُ الملحمة فانٍ، وثلثاها خالدان، تمامًا كبطلها.

أما إنكيدو فهو فانٍ تمامًا، واللوح التالي يتحدث بالتفصيل عن حزن جلجامش الشديد على موت رفيقه، فيجلس بجانب الجثة مدة ستة أيام وسبع ليالٍ - وهذه مدة تماثل المدة التي قضاها إنكيدو في معاشرة شَمحَت - رافضًا أن يعترف بأنه صديقه قد مات فعلاً، إلى أن تخرج دودة من أنف صديقه، يُغطي

(1) Ibid., 61.
(2) Ibid., 61.

جلجامش وجه صديقه، كما يُغطّي "وجه العروس[١]" ثم يلقي مرثاةً بليغةً إكرامًا لصديقه المحبوب، بدوره يكتسب جلجامش في حزنه صفات أنثوية، فهو يبكي على إنكيدو "مثل ندّابة مأجورة" ويدور حول الجثة "مثل لَبْوَةٍ ثَكلت أشبالها[٢]". ويمكن مقارنة حزنه بحزن ملكٍ قديم آخر، هو الملك داوود، الذي يلقي مرثاة مؤثرة مشابهة عندما يُذبَح صديقه المحبوب يونَتن، ويشبهه أيضًا بعروس:

عجبًا، كيف يسقط أولو العزم في ساحِ الوغى!
يرقد يونَتن ذبيحًا فوق مرتفعاتك.
إن القلبَ ليَحزَنَ عليكَ، يا أخي يونَتن؛
لقد كنتُ أحبكَ حبًّا شديدًا
وكان حبك لي رائعًا
يفوق حبَّ النساء[٣].

كانت «ملحمة جلجامش» معروفة في فلسطين وآسيا الصغرى؛ لذلك نجد أصداء لها في التوراة وأشعار هوميروس.

يقيم جلجامش لإنكيدو مأتمًا مهيبًا، ثم يهجر أوروك خائفًا من احتمال موته هو، فيصمم على إيجاد مخبأ جدّه الأعلى أُتنابشتيم ذي النوى الذي نجا من الطوفان، وبما أنه لا يعرف إلى أين يذهب يهيم على وجهه في البراري، ويلبس

---

(1) Ibid., 65.
(2) Ibid., 64-65.
(3) 2 Samuel 1:25-26 (New Revised Standard Version).
يناقش هانز بيتر ميولر هذه التشابهات بين مرثاة داوود ليونتن ومرثاة جلجامش لإنكيدو مناقشة حصيفة في:
Hans-Peter Müller, "Gilgameschs Trauergesang von Enkido und die Gattung der Totenklage," *Zeitschrift für Assyriologie und vorderasiatische Archäologie* 68 (1978): 233-50.

جلود الأُسُود التي يصطادها في طريقه بدلاً من ملابسه المهترئة، ينكص جلجامش فيما يبدو إلى حالة إنكيدو البدائية، ينظر شمش من عليائه في السماء، فيثير فيه منظر جلجامش الشفقة، ولكنه لا يستطيع أن يقدم له ما يتشجَّع به، فيسأله: "إلى أين تَطوافك، يا جلجامش؟ إنك لن تجد الحياة التي تبحث عنها[١]".

يظل جلجامش يسير شرقًا إلى ما وراء الحدود المعروفة التي يقطنها البشر إلى أن يبلغ أخيرًا شاطئ المحيط الذي يُحيط بالكرة الأرضية، وهناك يلتقي أور شَنَبي، نوتيَّ أُتنابشتيم، الذي ينقله عبر مياه الموت إلى جزيرة نائية يعيش فيها أُتنابشتيم وزوجته، وأخيرًا يصل جلجامش إلى وجهته التي طالما سعى إليها، ولكنه يلقى استقبالاً مثبطًا؛ إذ يسأله أُتنابشتيم: "لماذا [تلاحق] الأسى، يا جلجامش؟[٢]" ويصر على أن جلجامش لا يجني من هذا الأمر سوى إرهاق نفسه وأنه يقصِّر الأجل إلى حين يختطفه "الموت المتوحش الذي يحصد أرواح البشر." يتابع أُتنابشتيم قائلاً: إن الإنسان الفاني مثل ذبابة أيّار التي تطفو على سطح النهر لبضعة أيام في الربيع؛ "وهي تحدِّق بوجه الشمس، وفجأة يتلاشى كل شيء[٣]".

ينتهي اللوح العاشر بهذه الكلمات التي تدعو إلى التأمل، ولكن جلجامش لم يقطع كل هذه المسافات ليرتد على عقبيه بهذه السرعة، ومع مُستهل اللوح العاشر، يسأل جده الأعلى: "كيف تسنَّى لك أن تجلس في مجلس الأرباب؟ كيف وجدتَ الحياة الأبدية؟[٤]" يرد أُتنابشتيم بتلك الحكاية الطويلة التي جعلت جورج سمث مشهورًا وأدّت إلى موته المبكر: حكاية الطوفان.

(1) George, *Epic of Gilgamesh*, 71.
(2) Ibid., 85.
(3) Ibid., 87.
(4) Ibid., 88.

بما أن الفيضانات كانت مشكلة متكررة في بلاد الرافدين، فإنها صارت كناية مُدَوِّية عن الدمار الشامل، تستطيع الفيضانات الكبرى أن تدمر المدن المبنية من اللبن في سهول جنوب بلاد الرافدين التي تغمرها الفيضانات الموسمية، وكانت الحوليات الملكية تستخدم صور الفيضانات خاصةً لوصف الهجمات الشرسة على مدينة، كما في وصف سنحاريب لاستيلائه على مدينة بابل سنة ٦٨٩ قبل الميلاد؛ يقول: "مثل عاصفة تَتَداخُ انطلقتُ، وغمرتُها مثل إعصارٍ، هدمتُ السور والسور الخارجي والمعابد وتماثيل الأرباب وأبراج المعابد القرميدية، ولم أُبقِ منها شيئًا إلا رميتُه في قناة أراحْتو، وفي وسط تلك المدينة حفرتُ قنوات وغمرتُها بالماء وهدمتُ أساساتها، لقد أنجزت دمارًا لا يستطيعه طوفان[١]". إذن، كانت الفيضانات نقطة تماسٍّ بين الماضي الأسطوري والحاضر الإمبريالي، وكل طوفانٍ أو غزوٍ عظيم استحضر الطوفان العظيم الذي كاد أن ينهي الحياة على الأرض.

لقد أُضيفت قصة الطوفان إلى الملحمة في وقت متأخر نسبيًّا من تاريخها، فبعد عدة قرونٍ من التداول بصورتها البابلية القديمة، أخذت الملحمة شكلها النهائي واكتملت فيما يُعرَف اليوم بالعهد البابلي الوسيط، ربما حوالي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، لا يُعرف شيءٌ مؤكد عن الشاعر الذي قام بهذه الإضافات، ولكن بعض الروايات المتأخرة تقول: إنه كاهن بابلي يُدعى سن ليقي أُونيني، في الأصل البابلي القديم للملحمة يسافر جلجامش ليتعلم سر الخلود من جده الأعلى، ولكن يتضح مما تبقى من تلك النسخة أن أُتنابشتيم لم يَرْوِ قصة حياته لجلجامش حين التقيا، بل أعطاه معلومات ضاعت منذ عصور سحيقة عن كيفية إقامة طقوسٍ بادت منذ زمن الطوفان، قام سن ليقي أُونيني بتوسعة اللقاء ليشمل وصفًا كاملاً عن الطوفان، وقد حوَّره من قصيدة باقية تُدعى

(1) Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, 2 vols. (University of Chicago Press, 1926-27, repr. 1989), 2:152.

"عَطْراحاسِس" (أي: "فائق الحكمة")، وهو اسم مَن نجا من الطوفان في تلك النسخة من القصة، بإضافته هذه الحكاية عن الدمار الكوني، تمكن سن ليقي أُونيني باقتدارٍ من توسيع إطار حكاية جلجامش لتشمل تُخومَ المُنجَز البشري برُمَّته.

يتلقَّى أُتنابشتيم تحذيرًا سابقًا من نصيره الإله إيا يحضُّه فيه على أن يصنع فُلكًا لينجو من الطوفان، فيحمل أُتنابشتيم من الحيوانات ما يستطيع، وعلى خلاف نوح، يجلب أُتنابشتيم معه طاقمًا كاملاً من الحرفيين؛ لأنه عازمٌ على إعادة تأسيس الحياة المتحضرة بأسرع ما يمكن، يستمر الطوفان الهائج ستة أيامٍ بلياليها، وعندما ينتهي في اليوم السابع يرى أُتنابشتيم مشهدًا من الخراب الكامل:

نظرتُ إلى الطقس فوجدتُه هادئًا ساكنًا
ولكن جميع البشر تحولوا إلى طين.
وكان سهلُ الغَمْر مسطَّحًا مثل سطحِ بيت.
فتحتُ فتحةً فوقع نورُ الشمس على خدَّيَّ.
فجلستُ أرضًا، وركعتُ وبكيتُ
وانهمرت الدموع على خدَّيَّ(١).

(1) George, *Epic of Gilgamesh*, 93.

تستقر السفينة على قمة جبلٍ، وبعد أسبوعٍ من الانتظار يرسل أُتنابشتيم ثلاثة طيور: يرسل حمامةً في البداية ثم طائر سنونو ثانيًا، ولكن لا يجد أيٌ منهما رقعة من اليابسة، ثم يرسل أخيرًا غرابًا لا يعود، عندئذٍ يُشرِّع أُتنابشتيم أبواب سفينته ويبدأ عملية شاقة لإعادة الحضارة.

لا يظهر البعد الأخلاقي في قصة الطوفان البابلية كما يظهر في سِفر التكوين، فعندما يبدأ أُتنابشتيم قصته لا يكترث لشرح سبب إرسال الطوفان من قبل الأرباب، ولكننا نعلم دافعهم إلى ذلك من «ملحمة عَطْراحاسِس» التي هي مصدر سن ليقي أُونيني، وبحسب «ملحمة عَطْراحاسِس» لم تكن آثام البشر هي المشكلة المُسبِّبة، كما في الكتاب المقدس، بل المشكلة هي أن العنصر البشري صار يتكاثر بشكل يستحيل ضبطه، كما صار الناس يُحدثون الكثير من الضوضاء، ولما صار نوم الأرباب يضطرب تبعًا لذلك، ناشدوا كبيرهم إنليل الذي يرسل الطوفان. صحيحٌ أن سلوك إنليل عنيفٌ ولكنْ فيه شيءٌ من المنطق البيئي، فضجيج البشر هو نتيجة طبيعية لتزايد أعداد السكان، وهذه مسألة خطرة في بلاد الرافدين القديمة التي لم تكن مواردها تكفي سكانَها الكُثُر، ومع ذلك، لا توجد أية إشارة إلى عيبٍ أخلاقيٍ من طرف البشرية.

مع أن قصة الطوفان لا تتعلق بالخطيئة، فإن سن ليقي أُونيني استخدمها ليواصل انشغال الملحمة بقضايا حسن التدبير السياسي وسوئه، وما إن تملأ مياه الفيضانات الأرض وتبدأ الحياة بالهلاك، حتى يدرك الأرباب، الذين يحبون أن تُقَدَّم لهم القرابين من عبادهم من البشر أنهم ارتكبوا خطأً فظيعًا، يضع الأربابُ اللائمة على إنليل، فقد بالغ في ردة فعله بدلاً من أن يأمر بعلاجٍ يناسب حجم المشكلة، فحل مشكلة تزايد السكان كان يجب أن تكون بخفضه لا بإبادته عن بكرة أبيه؛ يقول إيا موبخًا إنليل توبيخًا غاضبًا:

لو اجتاحتْ الأرضَ مجاعةٌ لَعاثت فيها خرابًا
بدلاً من إرسالك الطوفان!
لو أرسل الربُّ طاعونًا لَعاثَ في الأرض خرابًا
بدلاً من إرسالك الطوفان![1]

يتساءل إيا: ألم يكن بإمكان السباع والذئاب أن تخفض عدد السكان على نحوٍ فعال من دون أن تُحدث خرابًا شاملاً؟ باختصار، لقد ارتكب ملكُ الأربابِ إثمًا فظيعًا في سوءِ الإدارة.

إن أطرف ما في الأمر هو السبب وراء فشل إنليل، يعلن كلٌّ من إيا والربة الأم بيليت إيلي أنه "لم يستشر أحدًا وأرسل الطوفان[2]". تشير كلمة "ملَكم" إلى التشاوُر في سياسات الملك ضمن دائرة من المستشارين المقربين،. إنها فعل المداولات الملكية بامتياز، فكلمة "ملَكُم" مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بكلمتي "ملْكُم" (ملِك) و"ملِكتُم" (مستشار الملك)، إن تدمير الحياة الأرضية بلا داعٍ يكرر على نطاقٍ أكبر ما فعله جلجامش في ذبحه لهُمبابا بلا داعٍ بناءً على مشورة فاسدة من إنكيدو في النصف الأول من الملحمة.

إن أُتنابشتيم ولا أحد سواه مَن يُقنع جلجامش بمسألة سوء التقدير، فعندما يتقدم جلجامش ويطلب منه أن يدله على سر الخلود، يسأله أُتنابشتيم بفظاظة: "هل [خطر لك] في يوم من الأيام، يا جلجامش، [أن تقارن قسمتك] مع قسمة الأحمق؟ ... فهو أيضًا ينقصه [الناصحون الذين يشيرون عليه]، وأموره

(1) Ibid., 95, slightly modified.
(2) Ibid., 94, slightly modified.

تعوزها المشورة[١]"، ولكن جلجامش لا يتردد في رفض نصيحة أُتنابشتيم بأن يسلِّم بأن للحياة البشرية حدودًا، فهو يصر قائلاً: "عندما أراك، يا أُتنابشتيم، لا تختلف هيئتك عن هيئتي، أنت مثلي تمامًا[٢]"، فبالمقاييس الظاهرة للأمور، يعتقد جلجامش أنه يجب أن ينال الحياة الأبدية التي نالها أُتنابشتيم.

عندئذ يحكي أُتنابشتيم قصة تجربته في الطوفان الذي انتهى بندم إنليل على قراره الطائش ومجيئه شخصيًا إلى عَنْبَر سفينة أُتنابشتيم، يأخذ إنليل بيد أُتنابشتيم ويقوده هو وزوجته إلى سطح السفينة حيث يُلقي عليهما بركته، "في الماضي كان أُتنابشتيم بشرًا فانيًا، ولكنه الآن سيصبح هو وزوجته مثلنا نحن الأرباب! [٣]" لكن أُتنابشتيم يختتم قائلاً: إن هذه السابقة القديمة لا تنطبق على سليله، والسبب الذي يسوقه بسيط لكنه قاطع: لقد تغيرت الأزمنة إلى غير رجعة؛ يقول له: "أما أنت، فمَن يعقد لك الآن مَجمع الأرباب لكي تجد الحياة التي تبحث عنها؟"

¤ ¤ ¤

كان الآشوريون والبابليون في الألفية الثانية قبل الميلاد يعلمون أنهم ورثة ثقافة عريقة تتواتر عبر نُصُب قديمة يرممونها ويدونونها بالخط المسماري الذي ابتُكِر لكتابة اللغة السومرية المهجورة، كانوا يعتقدون أن تاريخ حضارتهم يعود إلى ما قبل الطوفان، ولكنهم كانوا يعلمون أن عالَم ما بعد الطوفان يختلف اختلافًا كبيرًا عن عصر ما قبل الطوفان، لا يزال لدينا كشاف بالملوك السومريين ويمتد إلى ما قبل أيام الطوفان وهو يدل على قَدْرٍ مهم من

(1) Ibid., 85.
(2) Ibid., 88.
(3) Ibid., 95.

الاستمرارية مع الماضي، مع أن كشاف الملوك السومريين يسجل تحولاً كبيرًا في زمن الطوفان(١)، كان يُزعَم أن الملوك الأوائل يعيشون أعمارًا خيالية تُقدَّر بواحدٍ وعشرين ألف سنة أو أكثر، ولكن بعد الطوفان ينحدر متوسط الأعمار انحدارًا شديدًا يقارب متوسط الأعمار في الأزمنة الحديثة.

إذن، كان عالم ما قبل الطوفان مختلفًا عن العالم الذي عاينه كُتّاب بلاد الرافدين، ففي ذلك العصرِ كان الأرباب والربّات يسيرون في الأرض، ويأخذون الناس بأيديهم، ويَمُنون عليهم بأفضالٍ خارقة للعادة، ويوجد في الكتاب المقدس مشاهد مماثلة؛ حيث كان الله يمشي في الأمسيات مع آدم في جنة عدن، وقد عاش أشخاصٌ مثل أخنوخ [إدريس] ومتوشالح ثمانمئة أو تسعمئة سنة، "واستملح أبناء الرب بنات الرجال، فتزوجوا منهن من شاؤوا" (سفر التكوين ٦:٢)، وبعد الطوفان ينخفض معدل الأعمار سريعًا، ولا يعود الناس في عالم التوراة يتزوجون مخلوقاتٍ سماوية، مثلما لم يَعُد من اللائق أن يتزوج جلجامش من عشتار، كان العالم "الحديث" بالنسبة لأبناء بلاد الرافدين – أي العالم كما عرفوه – يبدأ منذ أن تراجعت مياه الطوفان، إذن، فزيارة جلجامش لأُتنابشتيم هي بمثابة زيارة التاريخ لعالَم الأسطورة وذلك من أجل غرضين: لقياس الزمن المعاصر ولقياس بعده عن حقبة أُتنابشتيم ذي النوى المفقودة(٢).

وكعادته في مقاومة الحدود البشرية، يرفض جلجامش أن يُسلِّم بأن الأزمنة قد تغيرت، وهكذا يُعدُّ أُتنابشتيم اختبارًا لجلجامش ليبرهن له أن الزمن لن يكون في صالحه أبدًا؛ يقول أُتنابشتيم لجلجامش: إن كنت تظن أنك تستحق الخلود، فأقل شيءٍ تستطيع أن تفعله هو أن تظل مستيقظًا لسبع ليالٍ، يوافق

(1) A current translation is available online in the Electronic Text Corpus of Sumerian Literature, cited above, text 2.1.1. An older translation can be found in Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts*, 265-66.
(2) George, *Epic of Gilgamesh*, 88.

جلجامش على خوض الامتحان، ولكن الوصول إلى جزيرة أُتنابشتيم كان قد أجهده، فينام لحظة جلوسه، وعندما يستيقظ جلجامش بعد أسبوعٍ، ينكر أنه قد نام قط، ولكن أُتنابشتيم كان قد أمر زوجته أن تخبز رغيفًا من الخبز كل يوم وتضعه بجانب البطل النائم، وحين يرى جلجامش العفونة المتزايدة على صف الأرغفة، يُقِر أخيرًا بالهزيمة.

إن إبراز إنسانية جلجامش ينضوي على مفارقة شعرية جميلة، فحين ناشدت أُمه إله الشمس، أسفتْ لأن جلجامش وُلِد وله "قلبٌ قلق." ولكن العبارة في أصلها الأكادي "لِبّي لا سَلِيلة،" تعني حرفيًّا "قلبٌ لا ينام،" أما الآن فما لا يستطيع أن ينجزه هو عدم النوم، وبناءً عليه، يتوجب على جلجامش أن يعيش في إطار الحياة البشرية العادية، ومع ذلك، لا يعيد أُتنابشتيم جلجامش خالي الوفاض، بل يأمر أور شَنَبي أن ينظفه ويُلْبِسه أثوابًا جميلة لا تتسخ طيلة رحلة عودته إلى موطنه، علاوةً على ذلك، يخبره أُتنابشتيم، بناءً على توصيةٍ من زوجته، عن مكان نبتةٍ سحرية تنبت على قاع البحر بإمكانها أن تعيد إليه شبابه، لن تمنحه الخلود، ولكنها تستطيع أن تعيد لجسد المرء نِضرة الشباب، يغوص جلجامش ليلتقطها، ولكنه في طريق عودته إلى موطنه مع أور شَنَبي يتوقف للاستحمام في حفرة للسباحة، تتسلل حيَّةٌ إلى المشهد وتأكل النبتة، وحين تسعى الحية مبتعدة، يبدأ جلدها القديم ينسلخ.

في الأبيات الأخيرة للقصيدة، يعود جلجامش إلى أوروك باكيًا بعد أن فشل في تحقيق مسعاه فشلاً ذريعًا، ولا يجد ما يعزّي به نفسه إلا مرأى مدينته حين تلوح له من بعيد ويشير إليها بافتخار:

آه، يا أور شنَبي، اصعد سورَ أوروك واذْرعْه جيئةً وذهوبا!
تَفَحَّص أساساتِها وعايِنْ أشغالَ القرميد!
ألَم تُشوى أحجارُها في النار؟
ألم يضع أساساتِها الحكماءُ السبعة؟
ميلٌ مربَّع مساحة المدينة، وميلٌ مربع بستان النخيل
وميلٌ مربع مَجْبَل الطين، ونصفُ ميلٍ مربعٍ معبد عشتار:
ثلاثةُ أميالٍ مربعة ونصفُ الميل مساحةُ أوروك (١).

بهذه الأبيات تنتهي الملحمة فجأة.

مما يُؤثَر عن الشاعر الروماني هوراس أنه أثنى على الملاحم الهوميرية؛ لأنها تستهل أحداثها من منتصفها، أما سن ليقي أونيني فقد اختار العكس تمامًا، وهو ألا يبدأ الأحداث من منتصفها بل أن يُنهيها من منتصفها، لا بد أن مستمعيه قد فوجئوا؛ لأنهم كانوا يعلمون كيف تنتهي القصة، فبحسب قصيدة سومرية قديمة تُدعى "موت بِلجامش،" حين حان ممات بلجامش، تجادل الأرباب حول مصيره، فناقشوا رحلته للبحث عن الخلود ونظروا في منحه أمنيته العظيمة في نهاية المطاف، ولكنهم في النهاية، "رغم أمه لا نستطيع أن نرحمه(٢)". إذن، لا بد أن يموت، ولكن لا داعيَ لأن يتقاسم مع بقية الأرواح ذلك الوجود المبهَم المحروم في بيت الثرى، بل سينصِّبونه حاكمًا على العالم السفلي أو "زعيم الأرواح." وبهذه الصفة سيتمتع بكثير من مزايا الحياة الأرضية، ستُضاء

(1) Ibid., 99.
(2) Ibid., 199.

منطقته من العالم السفلي بالمشاعل، وسيلتم شملُه مع عائلته "وصديقه العزيز[١]" إنكيدو، عندئذٍ تُقامُ لبلجامش جنازةٌ مهيبة ثم يهبط إلى العالم السفلي ليتولّى مهام منصبه الرفيعِ الجديدة.

لم ينظر جمهور سن ليقي أونيني إلى هذا التشريف على أنه نوعٌ من الخيال الشعري، بل على العكس، فمنذ عصور مبكرة راح الناس يقدمون القرابين لبلجامش/ جلجامش بصفته قاضي العالم السفلي، ويتشفعون لديه من أجل أحبّائهم الموتى، ولكن سن ليقي أونيني، بدلاً من أن يقتفي آثار مصادره السومرية، اختار أن يترك جلجامش على أعتاب أوروك: يتباهى حُزنه على فنائه وافتخارُه بعظمة مدينته، وهكذا تنتهي الملحمة كما تبدأ، أي أن بطلها لا يعلم ما يخبئه له الأرباب من خطط. تكتمل دورة القصيدة حين تستدعي أبياتُها الأخيرة مَطلع الملحمة في الديباجة التي أضافها سن ليقي أونيني، وهذا المطلع الجديد يختلف عن القديم الذي يركز على عنفوان الملك جلجامش وجبروته، أما في المطلع الجديد، فنتعرف عليه بصفة باحثٍ عن الحكمة القديمة، "ذاك الذي رأى في الأعماق، أُسُّ البلاد، [الذي] كان عليمًا... وحكيمًا في كل الأمور." ولا عجب أن يحفظ هذه المعرفة للأجيال القادمة بتدوينها:

رأى ما كان سرًّا واكتشف ما كان مخبوءًا،
ثم عاد بحكايةٍ من قبلِ الطوفان.
لقد سار دروبًا بعيدة، كان مُتعَبًا، ووجد الطمأنينة
ثم دوَّن كل معاناته على لوحٍ من حجر[٢].

(1) Ibid., 204.
(2) Ibid., 1.

لا تركز الديباجة على حكمة جلجامش فحسب، بل على دوره كبناء أيضًا، "لقد بنى أسوار أوروك ذات النعاج،" كما يقول الشاعر: "شاهِدْ متراسَها الذي لا يستطيع أن يصنع مثله أحد. ... تَفَحَّص أساساتِها وعايِنْ أشغالَ القِرميد"، ثم يصف بعد ذلك مناطق أوروك الأربع (البيوت، بستان النخيل، مَجْبَل الطين، حَرَم المعبد)، مستخدمًا عينَ الكلمات التي استخدمها جلجامش في حديثه مع أور شَنَبي التي تمثل الأبيات الختامية للملحمة.

كان الشاعر وجمهوره يعلمان أن أوروك قائمة قبل عهد جلجامش بوقت طويل، وأن أساسات سورها أرساها "الحكماء السبعة،" وهم حُكماء بالفطرة وأول من علَّم البشرية فنون الثقافة قبل الطوفان بوقت طويل؛ لذلك لا يُفترض أن يكون جلجامش هنا أول بانٍ للسور، بل هو من رمم وأصلح السور القديم ووسعه بلا شك في هذه الأثناء، وهذا شكلٌ من الأشغال الملكية العامة الكبرى، وما يريد أن يؤكد عليه سن ليقي أونيني هو أن جلجامش أحد ملوك عصره الذين يتحلون بروح المسؤولية، وأنه القيِّم على المدن والتماثيل القديمة التي تحتاج إلى صيانة وإصلاح.

كان يحلو لملوك بلاد الرافدين أن يتفاخروا بفتح بلاد جديدة وبناء قصور لا مثيل لها في البهاء، ولكنهم أيضًا أذاعوا على الملأ حرصهم للحفاظ على مآثر أسلافهم، بل صوروا أنفسهم في بعض الأحيان وهم يحملون سلال القرميد حيث كانوا يشتركون شخصيًا في العمل، وتسجل النقوش الملكية إدراك الملوك لحقيقة أن تماثيلهم تعتمد على اهتمام الأجيال القادمة المتقلب، فحين رمم

إسرحدون معبدًا، وضع لوحة تخلد عمله الترميمي وتناشد سلالته، "في القادم من الأيام بين أبنائي الملوك، حين يهترئ ذلك المعبد ويتداعى، فلتُرَمِّموا خرائبه ... افعلوا ما فعلت أنا، انظروا إلى النصب التذكاري المنقوش عليه اسمي، وامسحوه بالزيت، وقدموا له القرابين، ثم انصبوا بجانبه نصبًا تذكاريًّا يُنقَش عليه اسمكم، عندها سيجيب آشور وعشتار دعاءكم(١)".

تجمع ديباجة الملحمة الختامية بين جلجامش الباني وجلجامش الجامع للحكمة القديمة؛ إذ ينقش قصته على لوحٍ حجري ويدفنه في أساس سور مدينته المرمَّم؛ يقول الشاعر لمستمعيه أن ينبشوا هذا التقرير المدفون، تمامًا كما يجد هُرْمُزْد رَسّام لاحقًا "أسطوانة رَسّام" التي تُدوِّن أمجاد حكم آشوربانيبال مدفونة في جدران قصر آشوربانيبال، يحض الشاعر مستمعه على هذا النحو، "انظر صندوق الألواح المصنوع من خشب الأرز، وحَرِّر إيزيمه البرونزي! اكشف الغطاء عن سره، [احمل] لوحَ اللازورد واقرأ عن مُكابدات جلجامش، وعن كل ما مرَّ به(٢)".

(1) Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, 2:267.
(2) George, *Epic of Gilgamesh*, 2.



آشوربانيبال، العامل المُياوِم

كان جمهور الملحمة في بابل ونينوى يعلمون أنه ليس مطلوبًا منهم أن ينبشوا صناديق من خشب الأرز من تحت أساسات أوروك، ولكن بقراءتهم أو سماعهم للقصة يمكنهم بطريقة ما أن يكرروا الجولة التي قام بها أور شَنَبي لحَرَم أوروك المقدس، كان أور شَنَبي قد أتى أوروك عائدًا مع جلجامش؛ لأن أُتنابشتيم قد منعه من العودة إلى جزيرته لكي يضمن ألا يدخل مملكتَه الخالدة بشرٌ فانٍ مرةً أخرى، ولكن بمقدور اللوح اللازوردي أن يمكِّن جمهور القراء أن يحققوا في الخيال ما لم يعد ممكنًا تحقيقُه في الواقع: أن يزوروا الماضي السحيق ثانيةً ويلتقوا بجلجامش وحتى أُتنابشتيم ذي النوى، في نسخة سن ليقي أُونيني لا يبرز جلجامش بصفته أول بطل عظيمٍ في الأدب العالمي فحسب، بل بصفته كاتبًا مؤسسًا أيضًا؛ إذ يزرع قصته حيث يمكن للباحثين في المستقبل أن يجدوها، وحين نبش لايَرْد ورَسّام ألواح قصته وفك جورج سمث سر رسالتها، فعلوا عين الشيء الذي أوصى سن ليقي أُونيني مستمعيه بفعله قبل ثلاثة آلاف عام.

¤ ¤ ¤

من الجدير ذكره أن الملحمة ربما أدَّت دورًا في انتقال عاصمة آشور إلى نينوى التي أنشأ فيها آشوربانيبال لاحقًا المكتبة التي اكتشف فيها لايَرْد ورَسّام أفضل نصٍّ محفوظ للقصيدة، تنتهي القصيدة بعودة جلجامش إلى أوروك في نهاية اللوح الحادي عشر، لكن "سلسلة جلجامش" الكاملة تضم اثني عشر لوحًا، واللوح الأخير هو ترجمة مباشرة لأجزاء من قصيدة سومرية عن بلجامش المعروفة في العصور القديمة بسطرها الأول، "في تلك الأيام، في تلك الأيام الغابرة،" أما اليوم فهي تُعرف باسم "بلجامش والعالَم السفلي"، أُلحِق اللوح الثاني

عشر بالملحمة على هيئة ملحق لها، وكان يوفر معلومات مهمة عن العالم السفلي، ويُرجَع إليه حين اتُّخذ قرار تأسيس عاصمة الدولة الآشورية في نينوى.

في اللوح الثاني عشر، يهبط إنكيدو إلى العالم السفلي ليجلب بعض الأدوات الخشبية، فيما يبدو كرة ومطرقة، أسقطهما جلجامش في شقٍّ في الأرض، يتطوع إنكيدو، الذي تصوره لنا الملحمة على أنه خادمٌ لجلجامش، لجلبهما، يعطي جلجامش لإنكيدو إرشادات مفصلة لكي لا يلفت انتباه كائنات العالم السفلي ولا يثير غضبها، غير أن إنكيدو يتصرف بشكل طائش، فيعصي كل تعليماته، ويجذب الأنظار إلى نفسه بملابسه الجميلة وعطره الفوّاح وحركاته التي لا تليق بشخص ميت، وما إن تدرك قوى العالم السفلي أنه واغلٌ عليها حتى تلقي القبض عليه.

يستنجد جلجامش باكيًا بعدد من الأرباب، وحين يصدُّه اثنان منهم يُشفق عليه إنكي، ربُّ الماء العذب والحكمة. يستحضر إنكي جلجامش على هيئة شبح، وذلك ليتمكن جلجامش من رؤية صديقه ويتعلّمَ عن الحياة في العالم السفلي، يخبره إنكيدو أن الذين يموتون بلا ذُرِّية تؤول حالهم إلى سوء، وأنه كلما كَثُر أبناء الميت حَسُن حاله بفضل القرابين التي يقدمها أبناؤه في الدنيا، ثم تختتم القصيدة بمعلومات تدعو للتأمُّل مفادها أن الجثث التي لا تُدفَن لا تجد الراحة في العالم السفلي، بينما "مَنْ ليس عند روحه أحدٌ يقدم له القرابين الجنائزية... فإنه يأكل فضلة القِدْر وفُتات الخبز الذي يُرمى في الشارع[١]".

---

(1) "Bilgames and the Netherworld," in George, *Epic of Gilgamesh*, 175-95.

ضمّ سن ليقي أونيني، أو محرر آخر في أواخر الألفية الثانية – ترجمةً لهذه الحكاية، وجعلها مُلحقًا لـــ «ملحمة جلجامش»، رغم أنها لا تُكمِل هذه الحكاية بما لا يقبل مجالاً للشك، يكون إنكيدو على قيد الحياة حين تبدأ هذه الحكاية وهو خادمُ جلجامش لا ذلك الرجل المتوحش أو الصديق الحميم الذي نراه في الملحمة، علاوةً على ذلك، أنشأ سن ليقي أونيني النسخة المعيارية وذلك عن طريق الزيادة على النسخة البابلية الأقدم، وليس عن طريق الترجمة المباشرة من قصائد سومرية أقدم من تلك النسخة، لا شك أن قُراء الألواح كانوا يدركون كل هذه الفروق، لكن لم يكن مستغربًا أن تختتم النصوص القديمة بمواد متفرقة في نهاية الحكاية الأساسية.

علاوةً على ذلك، كان لحكاية هبوط إنكيدو إلى العالم السفلي فائدة خاصة أكبر حتى من ارتباط اسم جلجامش بحفر الآبار في مستهل الملحمة، وهي أن القصة تعطي توجيهاتٍ مهمةً بخصوص السلوك والتأقلم في العالم السفلي، فاللوح الثاني عشر، علي الأقل بالنسبة إلى بعض القراء، كانت له فائدة عملية حجبت الفائدة الأدبية، ففي السابع والعشرين من الشهر الرابع سنة ٧٠٥ قبل الميلاد، عَمِل ناسخٌ في مدينة كالح الآشورية نسخة دقيقة للوح الثاني عشر، وقد فعل هذا بُعَيد مقتل ملكه سرغون الثاني في معركة في الأناضول، وكما يقول عالِم الآشوريات إيكارت فرام: من الأرجح أن خبر موت سرغون قد وصل لتوِّه إلى كالح، وهي مركز نسخٍ مهم وعاصمة سابقة لآشور(١).

من المعروف ومنذ وقت طويل أن سنحاريب، ابن سرغون، صعقه موت أبيه إلى درجة أنه تجنب ذكر أبيه وهجر عاصمته، دُرْ شرَّكون، واتخذ لنفسه عاصمة جديدة في نينوى، هذا مع أن موت الملك في المعركة كان يُعَدُّ تضحية

(1) Eckart Frahm, "Nabû-zuqup-Kēnu, das Gilgameš-Epos und der Tod Sargons II," *Journal of Cuneiform Studies* 51 (1999): 73-90.

مجيدة لا موتًا شائنًا. قد يسبب صراعًا على الخلافة بين ورثته، ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يكن مشكلة بالنسبة إلى سنحاريب الذي تسلم زمام الأمور بشكل سريع وحاسم بُعَيْد موت أبيه، بل ما صعق سنحاريب هو الطريقة التي مات بها أبوه؛ إذ تغلب عليه العدو وانهزم جيشه، فعجز سنحاريب عن استرداد جثته ليدفنها في بلاده، وهذه مسألة خطرة في الواقع؛ لأن الأشباح غير المدفونة مُرجَّحٌ تردُّدها على منازلها السابقة وتصبح أكثر قلقًا وضغينةً على مرّ الأيام، وإن لم يَجْرِ استرضاؤها، فبإمكانها أن تجعل البيت غير قابل للسكن، وهذا موضوع باقٍ إلى يومنا هذا في أفلام الرعب التي تركز على المنازل التي ترتادها الأشباح.

كان نَبو زُقوب كينو يتصرف بصفته الرسمية حين نسخ اللوح الثاني عشر من «ملحمة جلجامش» في ذلك اليوم من سنة ٧٠٥ قبل الميلاد، فقد كان مُفسِّرًا للنُّذُر، وتكاد جميع النصوص الأخرى في مكتبته، التي وُجد بينها هذا اللوح - أن تكون نصوص نُذُر، ولا بد أنه كان يرجع إلى «ملحمة جلجامش» من أجل معلوماتها وإرشاداتها في هذا الوضع الصعب؛ حيث يختتم اللوح الثاني عشر بوصفٍ لمصير الذين لا يُدفنون أو لا يُعتنى بهم؛ يقول السطران قبل الأخيرين، "'هل رأيت جثة ذاك الذي تُرِك مرميًا في السهل؟' 'نعم، رأيتُه، إن روحه قلقة في العالم السفلي'[1]". إذن، كان نَبو زُقوب كينو يدرس اللوح كما يدرس أي نصٍّ من نصوص النُّذُر، لعله يتبصَّر فيما يمكن أن يحدث في وضعٍ قد يشكل خطرًا لا على الملك الجديد فحسب بل على المملكة برمتها، حين نسخ نَبو زُقوب كينو اللوح، أراد أن يضعه تحت تصرف الملك والكهنة الآخرين

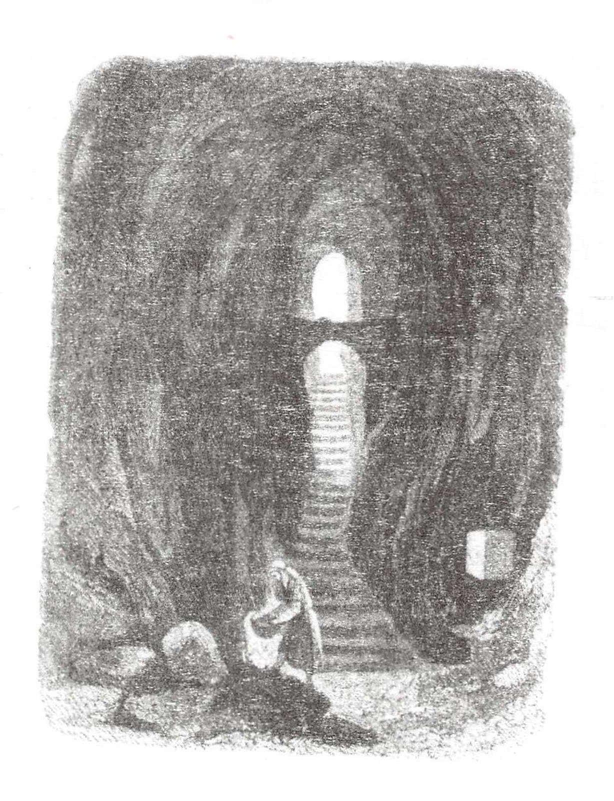
(1) "Bilgames and the Netherworld," in George, *Epic of Gilgamesh,* 195.

للرجوع إليه مع نصوص النُّذُر الأخرى ذات العلاقة التي في حوزته، وربما يمكن استخدام الألواح في طقوسٍ مخصصة لاسترضاء شبح سرغون الغاضب.

من الواضح أن التوقعات كانت غير مواتية والطقوس غير مفيدة، ومما لا شك فيه أن لوح «ملحمة جلجامش»، الذي يتحدث عن قلق الشبح المحروم بوصفه حالةً دائمة، لا يمكن أن يكون مصدر اطمئنان لنَبو زُقوب كينو أو لسنحاريب، وفي النهاية قرر سنحاريب أن يتحمل النفقة الهائلة لنقل عاصمته إلى نينوى، وما يتبع ذلك من توقفٍ لتصريف الأمور، بدلاً من البقاء في قصر أبيه المحكوم عليه بالتطواف الأبدي، يُعَدُّ اللوح الثاني عشر من «ملحمة جلجامش» اليوم مُلحقًا يمكن الاستغناء عنه؛ حيث لا يُدرَج غالبًا في ترجمات الملحمة، مع أن وجوده قد يكون سببًا أساسيًّا لاحتفاظ آشوربانيبال، حفيد سنحاريب، بعدة نسخٍ من الملحمة في مكتبته.

إن أحد الأسباب التي أدت إلى حفظ الملحمة هو المشورة التي تقدمها للتعامل مع الموتى؛ مما جعلها تصبح مرة أخرى، كما كانت بالنسبة إلى سن ليقي أونيني، أفضل جواب تقدمه هي لمسألة الموت وفناء الحياة البشرية، إن الملوك والأبطال يموتون، بل إن أعظم المدن يُمكن أن تصبح أثرًا بعد عين، ولكن الكتاب المدفون بين الركام وفي غياهب الظلام يظل منتظرًا ذلك اليومَ الموعودَ لاكتشافه ليحكي لقراء عصرٍ جديد عن مَطلب الخلود ومخاطر نصحِ ملوكٍ يتشبثون بآرائهم، وعن ملذات الجعة والخبز الطازج.

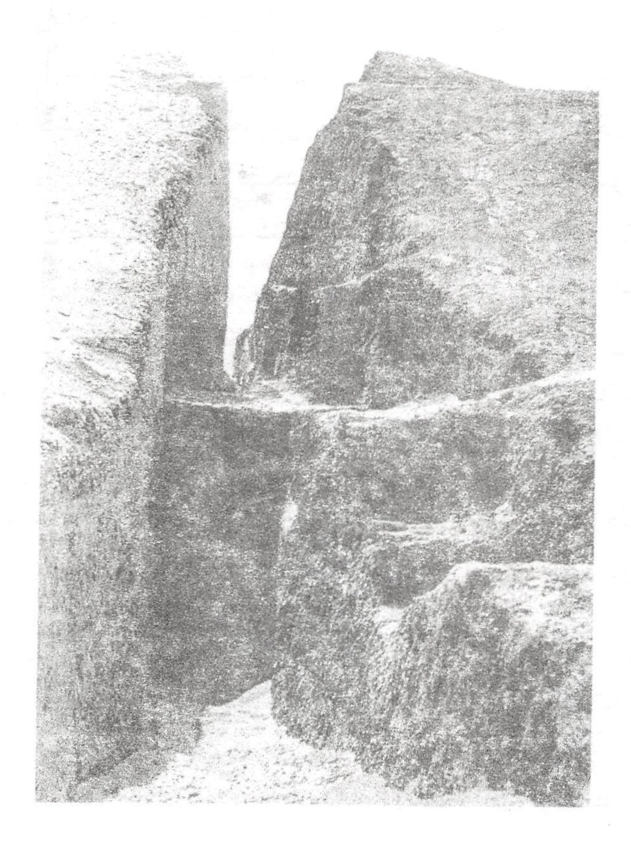
نقطة التلاشي



درجٌ تحت الأرض

في منظور الرسم تتلاقى أخيرًا الخطوط المبتعدة في نقطة يسميها الفنانون نقطة التلاشي، ولو تجاوزنا الملحمة البابلية القديمة بحثًا عن جلجامش التاريخي، لأمكننا أن نتبين هيئته المبهمة عند أبعد مدى للرؤية، عند عتبة التاريخ.

المدونات التاريخية من عهد جلجامش المندثر متناثرة وقليلة، وما اكتشاف النقوش التي تسمي بضعة أشخاص من القرون الأولى في الألفية الثالثة قبل الميلاد إلا نتاج الصدفة المحضة، لكن لا توجد مدونات من عهد جلجامش تؤرِّخ له، ولتكوين نُبذة عن حياة جلجامش ومنجزاته، لا بد من الانطلاق من الوثائق التي تناقش حياته في القرون التالية لموته وتدعيم هذه المصادر بالمعلومات الأثرية عن أوروك، فسيرة جلجامش مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بصعود مدينته؛ إذ إن أوروك كانت أول مدينة عظيمة في بلاد سومر القديمة، وقد ظل أبطالها المؤسسون يُذكَرون طويلاً حتى بعد أن هيمنت مدن أخرى على بلاد الرافدين، كان جلجامش واحدًا ممن أبدعوا أوروك، ولكنه هو أيضًا ممن أبدعتهم أوروك.



صورة فوتوغرافية لأعمال التنقيب في بقايا سور أوروك، حوالي ١٩٣٠

من المدونات المبكرة المهمة التي تذكر جلجامش هو كَشّاف ملوك سومر، وقد دُوِّن قبل قرابة أربعة آلاف عام بأمرٍ من ملك دولة-مدينة أخرى هي إيسين، أراد ملك إيسين أن يصور نفسه خليفةً لسلالات الماضي العظيمة، فأمر بعمل كَشّاف لملوك المدن السومرية المهيمنة منذ فجر التاريخ حين "كان

المُلْكُ يتنزّل من السماء[١]"، كان كُتاب إيسين يعتمدون على الحوليات الملكية الأقدم، فابتكروا سلسلة أنساب بطول فترات حكم الملوك، وقد أثبتت الأدلة الأثرية صحة كشاف الملوك السومريين بشكل عام، على الأقل حتى عصر جلجامش، أما قبل ذلك التاريخ فتنحدر سلسلة الأنساب إلى مستوى الخرافات والأساطير، فقبل صعود أوروك، كانت مدينة كيش [تل الأُحَيْمِر الآن] هي القوة السومرية الكبرى، وكان يُزعَم أن حكم أي واحد من ملوكها امتد ألف عامٍ وأكثر، ويبدو أن كُتّاب إيسين لم تعجبهم هذه الأرقام، فحاولوا أن يُضفوا هالةً من الدقة الغريبة؛ إذ ادّعى هؤلاء الكُتّاب أن ملوك كيش الثلاثة والعشرين حكموا "لمدة ٢٤,٥١٠ سنوات وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام ونصف[٢]".

كان أسلاف جلجامش في أورك تُنسَب لهم فتراتُ حكمٍ طويلة، بمعدل خمسمئة سنة للواحد، وقد يكون معظم هؤلاء شخصيات تاريخية حقيقية، ولكنهم اكتسبوا مكانة أسطورية إلى حد كبير، أما بعد جلجامش مباشرة فينــزل كشاف الملوك إلى مستوى معقول؛ حيث نجد أن ابنه أور نُنْجال وجميع من تبقى من ملوك الأسرة الحاكمة يحكمون ما بين ست إلى ست وثلاثين سنة، يقف جلجامش على العتبة الفاصلة بين أسلافه الأسطوريين وأتباعه التاريخيين، فقيل: إن حكمه دام ١٢٦ سنة، يتضح مما سبق أن جوهر الحقيقة حول تاريخه وسيرته قد تضخم مع مر الزمن وكثرة الروايات.

لقد اشتهر جلجامش منذ عصور سابقة بأنه باني سور أوروك المهيب، ففي سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد دوَّن ملكٌ يُدعى أنام أنه "رمَّم سورَ أوروك صرحَ

(1) The Sumerian King List, Electronic Text Corpus of Sumerian Literature (ETCSL), http://www.etcsl.orinst.ox.ac.uk, text 2.1.1., line 1.
(2) Ibid., 1. 132.

جلجامش القديم(١)"، ولعل هذا القول له أساس في الواقع، فقد كشفت الحفريات عن سور مدينة هائل يعود تاريخه إلى عهد جلجامش، يبلغ ارتفاع هذا السور أكثر من عشرين قدمًا وهو محميٌّ بمتاريس حربية، ويمتد بطول ستة أميال تقريبًا، ويحيط بالمدينة وبستان النخيل ومَجابل الطين التي يُريها جلجامش بافتخار لأور شَنَبي في نهاية الملحمة، لقد صار بالإمكان التعرف على السبب المحتمَل الذي دفع جلجامش لإقامة تحصينات في مدينته: الصراع المستمر مع كيش التي تبعد مسافة مئة ميل إلى الشمال، يذكر كشاف الملوك السومريين اسمَيْ آخر ملكين من ملوك كيش، هما إِنْمِبَراغيسي وعَكّا، قبل أن تنتقل السلطة إلى أوروك، وهناك نقوشٌ من أيام إِنْمِبَراغيسي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٧٥٠ قبل الميلاد، تجعله هو وعكّا معاصرَيْن لكل من لوجالباندا وجلجامش، مَلِكَيْ أور.

يذكر نصان قديمان أن جلجامش أو أباه هزم إِنْمِبَراغيسي في المعركة، بينما تحتفي قصيدة سومرية قديمة بانتصار جلجامش الحاسم على عَكّا، ونظرًا لسمعة جلجامش اللاحقة بوصفه مبتكرًا للآبار، ما يلفت انتباهنا هو أن القصيدة تستهل برفض جلجامش لطلب بضرورة صيانة آبار كيش وإصلاحها، وهذا مثالٌ ممتاز يدل على الطريقة التي تتراكم بها الأساطير لاحقًا حول لُبِّ الحقيقة التاريخية:

هناك آبارٌ قيد الإنجاز،

آبارٌ كثيرة في البلاد لا تزال بحاجة للإنجاز

(1) Quoted in Andrew George, *The Babylonian Gilgamesh Epic* (Oxford, 2003), 1:92, from Douglas Frayne, *Royal Inscriptions of Mesopotamia 4: The Old Babylonian Period* (University of Toronto Press, 1990); 474-74.

وآبارٌ ضحلةٌ في البلاد لا تزال بحاجة للإنجاز

وآبارٌ بحاجة للتعميق وعدة انتشال الماء بحاجة للاكتمال.

لن نرضخ لقوم كيش!

هيّا نضربْهم بأسلحتنا![1]

يُلحِق جلجامش هزيمة ساحقة بقوات عكا: "عُفِّرت حشودُهم بالتراب/ ... وسُدَّت مَصَبّاتُ قنواتهم بالطمي[2]"، وهذا مثال طريف على العدالة الشعرية، فبعد أن حاول عكا أن يُجبِر جلجامش على إصلاح موارد المياه في بلاده، كافأه جلجامش بتخريب قنوات مياهه، يأسر جلجامش عكا في وسط جيشه، ولكن شهامةَ الأبطال تُذَكِّره بأفضال عكا عليه في السابق، فيطلق سراحه قائلاً: "ها أنا، أمام إله الشمس، أردُّ إليك أفضالك السابقة[3]"، يعود عكا إلى كيش سليمًا ولكن ذليلاً، فيصبح من حق أوروك أن تكون المدينة المهيمنة في جنوبي بلاد الرافدين.

مع أن جورج سمث أخطأ في تفسيره «ملحمة جلجامش» على أنها تصور حرب الاستقلال البابلي ضد "الطاغية الأجنبي" هُمبابا، فإنه اقترب من الحقيقة أكثر مما كان يعرف، فقبل كتابة الملحمة بوقت طويل، كان جلجامش معروفًا بأنه هو من أحرز الاستقلال لمدينته، وما ترويه الملحمة عن هزيمة حارس غابة الأرز يمثل صدى بعيدًا لكفاح ملوك أوروك الطويل ضد ملوك كيش.

---

(1) "Gilgameš and Aga," ETCSL text 1.8.1.1, ll. 5-8.
(2) Ibid., ll. 95-97.
(3) Ibid., l. 111, adopting phrasing from the translation of "Bilgames and Akka" by Andrew George in *The Epic of Gilgamesh: A New Translation* (London: Penguin, 1999), 143-48.

كما كان جورج سمث الشخص المناسب في الوقت المناسب ليكتشف ملحمة جلجامش، كذلك كان جلجامش الشخص المناسب في الوقت المناسب ليُخلَّد ذكره في الشعر الملحمي، معظم الملوك الأوائل في كشّاف الملوك السومريين لا يُعرَفون اليوم إلا من خلال ذكرٍ عابرٍ لأسمائهم ومدة حكمهم يُورِده كشاف الملوك، يُضاف إليه ربما نقشٌ نذري على قطعة فخار، بالمقابل، كُتِبت الكثير من الحكايات والأشعار عن ملوك أوروك الأوائل، ومن حُسن حظ جلجامش أنه صار بطل تُحفة شعرية، ولكن قصائد أخرى خلّدت ذكر أبيه، لوجالباندا، وجده، إنمِركار، أصبح ملوك أوروك نماذج تُحتذى في أدب بلاد الرافدين لاحقًا، تمامًا مثل أسرة أتريوس في شعر اليونان وملاحمه.

لقد أنجز كثيرٌ من الملوك السومريين الآخرين مآثر مماثلة، كفتح المدن المجاورة وتحسين الري واستيراد شجر الأرز، ولكن ملوك أوروك الأوائل نالوا من الحظوة ما لم ينله غيرهم في الكفاح الأدبي ضد النسيان، وذلك لأن مدينتهم كانت أول مركز عظيم للكتابة في العالم، وهذا بدوره ليس مُستغربًا؛ إذ إن أوروك أصبحت خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد المدينة المسيطرة في بابل التي يقطنها عشرات الآلاف من السكان وتضم مباني حكومية هائلة، أما المدن الأقدم مثل كيش ومركز إريدو الديني القديم فهي أشبه ما تكون بالبلدات الكبيرة، وقد أطلقت دراسةٌ حديثة على أوروك لقبًا جديرًا بهذه المدينة، ألا وهو أنها "أول مدينة في التاريخ البشري[١]".

تطورت الكتابة عبر مراحل طويلة، ابتداءً من تدوينات بسيطة من الصور والأرقام التي يحتاجها التجار لتسجيل البضائع المتبادلة، وتقول إحدى النظريات: إن الكتابة المتطورة نشأت تدريجيًا على مدى قرون حين راحت

---

(1) Marc Van De Mieroop, *A History of the Ancient Near East, ca 3000-323 BC* (Blackwell, 2004), 23. For more on Uruk, see Gwendolyn Leick, *Mesopotamia: The Invention of the City* (Penguin, 2002), 30-60.

الرموز تتراكم وبدأ الناس يستخدمونها من أجل قيمتها الصوتية، ولكن التجارب المبعثرة هنا وهناك من شأنها أن ينجم عنها شيوعُ أنظمة عصية على الفهم فيما بينها؛ حيث يكون كل منها عديم الفائدة لأي شخص خارج دائرة كاتب معين، لقد اتفق عددٌ متزايدٌ من مؤرخي الكتابة على أن هذه العملية تتسم بالتوازن المرقوم، وهو مصطلحٌ من علم الأحياء النشوئي[1]، ووفقًا لهذه النظرية، فإن الانتقال من وسائل الحساب التقليدية بالرموز إلى الكتابة الحقيقية تطلّب ثورة فكرية قام بها مجموعة من الكُتّاب الذين عملوا معًا ما بين ٣٣٠٠ إلى ٣٢٠٠ قبل الميلاد تقريبًا لوضع أسس الكتابة العملية، استطاعت هذه الثورة أن تمثل الأصوات بمجموعة محدودة من الرموز وأن تنقل المفاهيم المجردة إلى ما هو أبعد من أي شيءٍ يمكن تصويره، ومن المرجح أن هؤلاء الكتّاب كانوا في أوروك أو في واحدة من المدن المجاورة، وأيًّا يكن الأمر فقد كانت أوروك حينها المدينة الكبرى في المنطقة، وسرعان ما صارت مركزًا كتابيًّا متقدمًا في بلاد الرافدين.

لقد أدرك السومريون دور أوروك المحوري في تاريخ الكتابة، تقول قصيدة مبكرة بعنوان "إنمِركار وصاحب أراتا"، إن جد جلجامش هو من ابتكر أول لوحٍ طيني ليرسل عبره إنذارًا إلى حاكم أراتا البعيدة في غربي بلاد فارس، وحين يحدق عدو إنمِركار بكآبة في اللوح تصعقه هذه التقنية الجديدة وقد أذهلته قوة الكتابة:

(1) See Jean-Jacques Glassner, *The Invention of Cuneiform: Writing in Sumer*, trans. and ed. Zainab Bahrani and Marc Van De Mieroop (Johns Hopkins University Press, 2003); and Jean Bottéro, *Mesopotamia: Writing, Reasoning, and the Gods*, trans. Zainab Bahrani and Marc Van De Mieroop (University of Chicago Press, 1992).

حدّق صاحب أراتا في الطين المشوي.

كانت الكلمات كلماتٍ شديدة اللهجة.

ظل صاحب أراتا يحدق في لوحه الطيني، عابسًا(١).

في الحقيقة استُخدمت الألواح الطينية قبل عصر إنْمِركار بوقت طويل، لكن هذا الإنجاز الأسطوري ظل يُنسب، عن جدارة واستحقاق، إلى أوروك، ظل أهل بلاد الرافدين لعدة قرون يستخدمون الكتابة بشكل حصري تقريبًا وسيلةً تساعدهم في تجارتهم الواسعة وفي إدارة دول المدن ذات الثراء والاتساع المتناميين، ولم تظهر نصوصٌ يمكن أن نسميها نصوصًا أدبية بمعنى يقارب المعنى الحديث إلا ما بين ٢٦٠٠ و٢٥٠٠ قبل الميلاد؛ أي بعد قرن أو قرنيين من موت جلجامش، وهذه كانت قصائد تستخدم لغة مجازية لتصوير أحداث مُتخيَّلة.

إذن، عاش جلجامش في زمان ومكان ملائمين حين بدأ الكتاب يجربون كتابة الأعمال الخيالية بدلاً من التقيد بالأشغال اليومية لإدارة القصر والتجارة، ولكن إنتاجهم الأدبي المكتوب فيما تبقى من الألفية الثالثة ظل متواضعًا في حجمه ومجاله؛ إذ بقي كلٌّ من القص والشعر إلى درجة كبيرة شفويًّا بطبيعته، بدأ الوضع يتغير في حوالي سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد، حين شرع بضعةٌ من الملوك السومريين يهتمون أكثر بالإنتاج الأدبي، إما لأغراض دعائية أو لأغراض التسلية، وما نعرفه اليوم هو أن شُلْغي، ملك أور التي تقع على

(1) In Thorkild Jocobsen, *The Harps that Once... : Sumerian Poetry in Translation* (Yale University Press, 1987), 275-319, 314, with some phrasing adapted from the ETCSL prose translation, text 1.8.2.3, ll. 537-39.

الفرات وتبعد ثلاثين ميلاً تقريبًا جنوبَ أوروك، هو أول مُناصرٍ عظيم للأدب في العالم، أسس شُلْغي إمبراطورية صغيرة خلال حكمه الذي دام سبعة وأربعين عامًا (٢٠٩٤-٢٠٤٧ قبل الميلاد)، ومع مرّ الوقت بدأ يطمح لحفظ سمعته المتنامية للأبد، وقد ابتدأ بإضافة علامة الألوهية إلى اسمه، ثم أسس مدرستين للكتابة: واحدة في أور وأخرى في نِفَّر إلى الشمال منها، وقد أصبحت هاتان المدرستان مركزين للنشاط الشعري، وقد ألّف شعراء شُلْغي أغاني جميلة عن كل أنواع الموضوعات بما في ذلك تَهويدة لأحد أبناء شُلْغي:

تعالَ أيها النوم، تعالَ
تعال أيها النوم إلى ابني
أسرع أيها النوم إلى ابني!
أغمِضْ عينيه المفتوحتين
وضع يدك على عينيه المتلألئتين
أما عن لسانه الثرثار
فلا تدعْه يُفسد نومه[1].

إن شُلْغي أول ملك معروف يهتم اهتمامًا شخصيًا ودقيقًا بالكتابة، وكما يقول هو في أحد النصوص: "أنا، شُلْغي النبيل، الذي أُنعِم عليه بقَدَرٍ مُوات منذ ولادتي، حين كنت صغيرًا كنت في المدرسة حيث تعلمت فنون الكتابة والنسخ

(1) "Šulgi N," ETCSL text 2.4.2.02, II. 11-18.

من ألواح سومر وأكّاد، ولا أحد من النبلاء يستطيع أن يضاهيني في الكتابة[١]"، لقد أمر شلْغي بأن تُكتَب عشراتُ القصائد التي تُثني على إنجازاته وعلى شخصه، وتقدم لنا هذه القصائد صورةً مذهلةً عن ملكٍ مفعمٍ بالحيوية ولديه فضولٌ لا يرتوي، ويعشق العلم عشقًا عميقًا، وفوق هذا كله يعشق نفسه.

كان شلْغي لغويًّا يُشار إليه بالبنان؛ إذ كان يتقن ما لا يقل عن خمس لغات، "حين أحكم في قضايا سومر القانونية، أعطي إجاباتي باللغات الخمس، ولا ينتقل متحدث في قصري من لغة إلى أخرى بأسرع مما أفعل[٢]"، ولكن شلْغي كان يدّعي إتقان كل مَسعى فكري، فهو ماهرٌ في الرياضيات ويستطيع أن يعزف على العود خيرًا من فنّاني قصره، بل يتفوق على كهنته في مهنة العرافة، "بينما أُعِدُّ النعجة بالأدعية، يراقب عَرّافي مذهولاً كأنه مخبول، وحين توضَع النعجةُ المُعَدَّة تحت تصرفي، لا أخطئ أبدًا في تمييز الإشارة المواتية من غير المواتية[٣]"، ولا غرابة إن اكتشف علماء الآثار ذات يوم ترنيمةً يمدح فيها شلْغي نفسه كما فعل الميجر جنرال ستانلي المتعدد المواهب في كتابه «قراصنة بنزانس»، يتفاخر الميجر جنرال بأن من بين مهاراته العلمية والفنية الكثيرة، "أستطيع أن أكتب فاتورة غسيل بالخط المسماري البابلي[٤]"، وهي مقولة تعكس الاهتمام الشعبي بتنقيبات هُرْمُزْد رَسّام المتواصلة في بابل حين ألف جِلْبرت وسليفَن أوبريتهما.

إن رعاية شلْغي للأدب رسَّخت سمعة جلجامش كما رسخت سمعته هو؛ إذ إن شلْغي كان مهووسًا بجلجامش، وفي عدد من الترنيمات يعلن شلْغي أنه

(1) "Šulgi B," ETCSL text 2.4.4.02. II. 12-15.
(2) Ibid., II. 219-20.
(3) Ibid., II. 142-45.
(4) From Major General Stanley's opening patter song in *The Pirates of Penzance*, in *The Complete Plays of Gilbert and Sullivan* (W. W. Norton, 1976), 132-34.

أيضًا، مثل جلجامش، ابن الربة ننسون، وكان كثيرًا ما يقول: إن جلجامش أخوه، كما أنه كان يُشبِّه دهاءه العسكري بدهاء جلجامش، مستخدمًا صورًا مناسبة عن الطوفان، "شُلْغي المزمجر مثل طوفانٍ هائج ضد بلاد المتمردين يعانق جلجامش أخاه وخِلَّه ورفيقه[١]"، وبشكل خاص يرى شُلْغي نفسه في موقع القاضي الذي يحتله جلجامش في العالم السفلي، بينما يؤدي هو هذا الدور على الأرض، "مثل أخي وصديقي جلجامش، أستطيع أيضًا أن أميِّز بين الفاضل والرذيل، ينال الفاضلُ العدلَ في حضرتي، أما الشرير الرذيل فمصيره الموت. ... فمَن مثلي يستطيع أن يُفسِّر ما تُحدِّث به القلوب وتنطق به الألسنة؟[٢]".

كان شُلْغي هو مَن أمر بكتابة سلسلة القصائد السومرية التي ستصبح لاحقًا أساس ملحمة جلجامش البابلية القديمة، ليس لدينا من وسيلة لمعرفة إلى أي مدى كان شعراء شُلْغي يبتكرون الأحداث في تلك القصائد ولا إلى أي حدٍّ كانوا يبنون على قصائد أقدم. كانت الثقافة الأدبية السومرية عمومًا محافظةً في اختيار موضوعاتها، ولا شك أن شُلْغي زعم أنه ملتزمٌ بالحفاظ على النصوص القديمة، "لستُ مُغفَّلاً بخصوص المعرفة المكتسبة منذ أن وضعت السماءُ العُلى بني البشر في طريقها، فعندما اكتشفتُ ترنيماتٍ من العصور السابقة، ترنيمات قديمة من أزمنة سحيقة، لم أقل إنها كاذبة، ولم أناقض ما تحتويه، لقد حافظتُ على هذه الكنوز القديمة ولم أتركها للنسيان[٣]"، أمر شُلْغي أن تُضاف القصائد القديمة إلى مخزون مُغنِّيه، "وبهذا أشعلتُ قلبَ البلادِ بالنار واللهب".

إذن، فمِن المرجَّح جدًّا أن شعراء شُلْغي نقحوا وطوروا قصائد قديمة كُتِبت عن جلجامش في القرون السابقة، في النص المقتبس آنفًا يمضي شُلْغي

---

(1) Šulgi D," ETCSL text 2.4.2.04. ll. 291-92.
(2) Šulgi C," ETCSL text 2.4.2.03, ll. 107-11.
(3) Šulgi B," ETCSL text 2.4.2.02, ll. 270-80.

ليصف لنا طموحاته الأدبية على نحوٍ يستحضر هوس جلجامش بالفناء، "كل ما يُكتسَب مُقَدَّرٌ له أن يزول، وأيُّ بشرٍ فانٍ بلغ السماء يومًا؟ لعلّه يأتي في المستقبل البعيد رجلٌ من رجال إنليل، وإن كان ملكًا عادلاً مثلي، فلتتبّعْه قصائدي وأدعيتي وأغانيَّ المثقفة عن شجاعتي وحملاتي البطولية في قصره العامر، وعليه أن يفرح بالأُعْطية التي وُهِبت له وأن يُمجِّد قوة قصائدي ويستوعب غزارة أغانيَّ ويُقَدِّر حكمتي العظيمة حقَّ قدرها[١]".

كان شُلْغي يأمل أن يُعْجَب به ملوك المستقبل ويحافظوا على قصائده كما حافظ هو على قصائد جلجامش، بل إن شُلْغي يزعم أنه شكل نوعًا من الحلف الأدبي مع جلجامش لهذا الغرض بالذات، "يومَ حُدِّد قَدَرُ البلاد ... تحدث جلجامش سيدُ كُلابا مع شُلْغي راعي سومر الطيب عند قدميه المتألقتين؛ لكي يُشادَ بهما للأبد، ويُذكَر اسمهما على مرِّ الأيام القادمة النائية، ولكي لا يُنسى ذكرُهما في السنين البعيدة، نظر كل من البطلين الجبارين إلى الآخر بعين الرضا[٢]" هكذا يكون الأدب، كما في النسخة المعيارية لملحمة جلجامش، طريقَ الملوك إلى الخلود.

¤ ¤ ¤

كان شُلْغي يطمح إلى نوعٍ آخر من الخلود أيضًا؛ أي ذلك الخلود الذي أحرزه أخوه جلجامش، ربما كان شُلْغي، وهو الموقنُ بأن "كل ما يُكتسَب مُقَدَّرٌ له أن يزول،" من بين الأوائل الذين شعروا بقدرة الأدب على مساعدة الناس على مواجهة ما لا يخطر على قلب بشر وتَصَوُّر ما لا يُتَصَوَّر، وقد كانت

(1) Ibid., ll. 281-90.
(2) Šulgi O," ETCSL text 2.4.2.15, ll. 38-48.

إحدى القصائد التي أمر بكتابتها روايةً حزينةً عن موت البطل جلجامش ودفنه، فبينما يرقد بِلجامش على فراش الموت، يأتيه في المنام كبير الأرباب إنليل ويخبره بأن الوقت قد حان ليهجر مغامراته الدنيوية ويخلفها وراءه:

ينتظرك الآن أظلَمُ يومٍ في حياة الإنسان الفاني
كما ينتظرك الآن مَثْواه المنفرد
وتنتظرك الآن موجة الطوفان التي لا تُقاوَم
وتنتظرك الآن المعركة التي لا مفرَّ منها
وينتظرك الآن الصراع غير المتكافئ
وينتظرك الآن القتال الذي لا رحمة فيه[1].

كما يحض إنليل بلجامش على ألا يهبط إلى العالم السفلي وقلبه معقودٌ من الغضب، بل عليه أن يبسط قلبه المنقبض مثل عِرْق النخيل ويسلخه كما تُسلَخ البصلة؛ لأنه سيقضي بين الناس في العالم السفلي، وسيلتئم شمله مع أمه وإخوته و"صديقك العزيز أخيك الصغير، صديقك إنكيدو، رفيقك الشاب!"[2] لا بد أن شُلْغي، الذي يضع نفسه في مقام إنكيدو، قد شجَّعته كلماتُ إنليل أيضًا.

حين نقرأ اليوم قصيدة "موت بِلجامش" التي يبلغ عمرها أكثر من أربعة آلاف سنة ينتابنا شعورٌ ساحرٌ بأنها قريبة وبعيدة في آن معًا، أما قربها فيأتي

(1) "The Death of Bilgamesh," in Andrew George, *The Epic of Gilgamesh*, 195-208, 203. I have adopted some phrasings from the translation in the ETCSL database, text 1.8.1.3, ll. 19-24.
(2) Ibid., 204.

جزئيًا من عالمية اهتماماتها، وكذلك من اللغة الحية التي تستخدمها لمعالجة موضوعها، ولكي يحمي قبره من اللصوص، يُحَوِّل مجرى الفرات مؤقتًا لكي يصبح قبره في سرير النهر، يستعجل عماله لتنفيذ أوامره، وما إن ينتهوا من تحويل مجرى النهر عن البقعة المطلوبة من سرير النهر، حتى "حدَّقت حُصَيّاته في وجه إله الشمس في ذهول، ثم تشقق الطين في سرير الفرات من الجفاف[1]".

إنه لَمِن دواعي سرور أي شاعر معاصر أن يخطر في باله أن يشخِّص الحُصَيّات المذهولة على هذا النحو الفاتن في مقابل التشقق الواقعي لسرير النهر بسبب حرارة الشمس غير المعهودة، إلا أنه وبعد بضعة سطور تشرع القصيدة تفصلُ في الحديث عن دفنٍ مندثرٍ، غريبٍ، مرعبٍ حين يدفن بلجامش نفسه مع حشد من أهله وحاشيته، لعل قسمًا من هؤلاء قد ماتوا من قبل ولكنهم يُدفَنون معه الآن، بينما يمكن أن يكون الآخرون قد ذُبِحوا لهذا الغرض أو لعلهم يُدفنون أحياءً:

زوجته المحبوبة وطفله المحبوب

وزوجته المحبوبة الكبرى وزوجته الصغرى

وشاعره المحبوب وقَهْرَمانه و...،

وحلاقه المحبوب، و... [المحبوب]،

وحاشيته وخدمه [المحبوبون]

ومتاعه المحبوب ...،

(1) Ibid., 206.

كلٌ يستلقي في مكانه
كأنما في استعراضٍ في القصر وسطَ أوروك[١].

وأخيرًا يدخل بلجامش ويستلقي أيضًا، عندئذ يسدّون القبر ويحررون السدود التي تحجز ماء الفرات الذي، "تدفق ماؤه، فحجب [مثواه الأخير] عن الأنظار[٢]".

في يومنا هذا لا يمكن تخيُّل مثل هذا المشهد إلا في إطار حدثٍ شبيه بمجزرة جونزتاون[٣]، ولكن هذا ليس هدف الشاعر القديم على الإطلاق، وما يزيد إحساسنا بالهوة الثقافية الفاصلة هو ذلك البرود الرسمي الذي يروي فيه الشاعر السومري استعدادات بلجامش للجنازة، كما أن هذا المشهد لم يكن خيالاً أدبيًّا محضًا؛ إذ اكتُشفت مدافن جماعية في أور، مدينة شُلْغي، يعود تاريخها للقرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، لا يُعرف إن كانت هذه المدافن تُنفَذ فعلاً قبل ثلاثة قرون، ولكن شاعر شُلْغي في وصفه لموت بلجامش كان يتخيل هذا الموت بأبهى عباراتٍ في مُستطاعه.

حتى من غير النهب بالجملة وتخريب المواقع الذي يجري في العراق اليوم (حيث تحفر الجرافات بلا تمييز في التلال، وتُكسَّر النقوش الضخمة ليسهُل حملها وبيعها بالقطعة)، من غير المحتمل أن يُكتشَف رُفات جلجامش

(1) Ibid.
(2) Ibid., 207.
(٣) في الثامن عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٧٨، أقنع القس الأمريكي جم جونز أتباعه في "معبد الشعب" بالانتحار، إما بالترهيب أو بالترغيب، بعد أن أيقن أن الحكومة الأمريكية ستهاجم المعقل الذي أسسه في دولة غايانا في أمريكا الجنوبية إثر قتله عضو مجلس الشيوخ ليو راين، وقد راح ضحية ذلك الانتحار ٩١٢ شخصًا، من بينهم ٢٧٦ من الأطفال. [حاشية المترجم].

الحقيقي أو التعرف عليه، وهذا أمرٌ محزن إلى حدٍّ ما، ولكن أيًا كانت طريقة دفنه حقيقةً، لا شك أن ملك أوروك العظيم أراد أن يرقد جثمانه بسلام إلى الأبد وألاّ تراه أعين الأحياء.

ولكن جماهير الملحمة القدماء كانوا يتوقعون أن يروه ثانية، فأكبر عددٍ من الإشارات إليه تتعلق بتنصيبه قاضيًا من الإله على العالم السفلي، وقد وُجدت قرابين نذور يعود تاريخها إلى ٢٦٠٠ قبل الميلاد تحمل نقوشًا طالبةً شفاعةَ جلجامش ونُصرتَه بعد الموت، لا أحد يُصدِّق اليوم روايات بلاد الرافدين القديمة عن العالم السفلي، ولكن ليس لأنه ثَبُت خطؤها، فهذا مستحيل! بل لأنه حلَّت محلها رواياتٌ أخرى نابعةٌ من ديانات لاحقة ورؤى مختلفة للعالم، فحيث كان أتباع إنليل وعشتار يتوقعون فيما مضى أن يحدد لهم جلجامش أماكنهم في العالم السفلي، صار المسيحيون يتخيلون القديس بطرس حاملاً مفاتيح الجنة.

ما كان يُسمَّى بيت الثرى في بلاد الرافدين، وهي أقدم تسمية معروفة للعالم السفلي، صار اسمه شيؤول عند العبرانيين، ومملكة هادس وبيرسيفون عند الإغريق والرومان، وجهنم عزازيل وإبليس، وعلى خلاف كثيرٍ ممن جاء بعدهم، كان أهل بلاد الرافدين يعتقدون أن العالم السفلي المظلم هو كل ما نحصل عليه، فمن شأن حقول الإليزيوم المشمسة عند الإغريق، وجنان النعيم عند المسلمين، والقدس الجديدة المزيَّنة التي يبشر بها العهد الجديد، كل هذه من شأنها أن تبدو لهم كأنها حديثُ رغائبٍ نصيبُه من التصديق أقل بكثير من نصيب تصورهم لمملكة الظلام في باطن الأرض.

صار جلجامش بالنسبة إلى الآشوريين والبابليين يمثل الممكن، فهو بشرٌ عاش على الأرض وبذل أقصى ما لديه ليتأسّى به إزاء ذلك المكروه الذي ينتظر كل إنسان بعد الموت، فقد وجد نورًا وصحبةً في العالم السفلي مع خليله

إنكيدو، وتقاسم مع أرباب الجحيم مآدبهم، لا الطين والماء المالح الذي يُعطى لعامّة الأموات؛ ومن المؤكد أن شلْغي لم يكن نصير جلجامش الوحيد الذي يأمل بأن يحظى بمكانٍ إلى جانب إنكيدو في رفقة أخيه وصديقه، لقد كان جلجامش بالنسبة إلى جمهور الملحمة الأوائل بطلاً قديمًا وشخصًا يأملون أن يلْقَوه ذاتَ يومٍ.

¤ ¤ ¤

بعد أن تتبعنا أثر جلجامش تاريخيًا إلى نقطة التلاشي، فقد يجدر بنا أن نودّعه حيث توقع معجبوه القدامى أن يجدوه: في بيت الثرى، إن قصائد مثل "هبوط إنانا إلى العالم السفلي(١)" وحلم إنكيدو المحموم في «ملحمة جلجامش» ترسم صورة آسرة لمثوى عامة البشرية الأخير الذي ينتظر كل إنسان على هذه الأرض.

وإليكم كيفية الدخول إلى ذلك العالم. بعد أن يقودك أو يجرّك هوموت تَبال بيده ذات المخالب على طريق اللاعودة، تتوقف لتلتقط أنفاسك التي حُرِمت منها، بينما يفتح هوموت تَبال البابَ الخارجي الهائلَ لبيت الثرى. في هذه الأثناء قد ترى بعض الحيوانات الغريبة الأشكال تمر بالقرب منك، لكنها ليست

(1) In Jacobsen, *The Harps that Once*, 205-32; later Akkadian versions of the underworld descent are "The Descent of Ishtar" and "Nergal and Ereshkigal," in Benjamin Foster, *Before the Muses* (CDL Press, 2005), 498-524; also translated by Stephanie Dalley in *Myths from Mesopotamia* (Oxford University Press, 1989), 154-81. For scholarly discussions, see Bendt Alster, ed., *Death in Mesopotamia* (Akademisk Forlag, 1980), and Thorkild Jacobsen, *The Treasures of Darkness: A History of Mesopotamian Religion* (Yale University Press, 1976).

كلابًا كبيرة وهزيلة، كما يبدو لك لأول وهلة، بل نعاجٌ جرداء من الصوف؛ لأنه لا شيء ينمو في العالم السفلي، وحين يُدفَع بك إلى داخل الممر، تلاحظ أن الرتاج الداخلي تعلوه طبقةٌ من الغبار، يدخل الناس من هذا الباب لكنهم لا يغادرون منه أبدًا.

مع أنك الآن داخل ما يُسمّى بمنزل، فإنه في الحقيقة مجمع من الأماكن المتداخلة لا يشبه قصري سنحاريب وآشوربانيبال اللذين يحتوي كلٌّ منهما على مئة حجرة، مع أنه أكبر منهما، تشطب الكاتبة المنهكة بعلة صيري اسمك من رُقَيْمِها، ثم تشق طريقك عبر البوابات السبع، وعند كل بوابة تُجرَّد من قطعة واحدة من ملابسك. "طبقًا للقوانين القديمة،" يرد عليك حارس البوابة بفظاظةٍ إن سألته عن السبب. شيئًا فشيئًا تُجرَّد من ذرّاعتك وحزامك وثوبك وعصاك وردائك وأربطة ذراعيك ونعْليك إلى أن تصل أخيرًا عاريًا إلى غرفة عرشٍ مظلمة، تتلاشى على مدّ البصر في نهاية هذه الغرفة الهائلة أرتالٌ من الأموات جالسةً تأكل على موائد طويلة، معظمهم يكتفي بقطعٍ من الطين وفتاتٍ من خُبزٍ تَفِه المذاق وماءٍ مالحٍ بدلاً من الجعة، وبعضهم يأتيهم طعامٌ أفضل بما أن لديهم أبناءً يقدمون القرابين المناسبة لأجلهم، وفي هذا عبرةٌ تتمنى مخلصًا ألاّ ينساها أبناؤك.



وفي الطرف البعيد لهذه الغرفة تجلس على عرشها إرِشْكيغال، ملكة العالم السفلي، وزوجها الصامت نِرْغال، لا أحد غير إرِشْكيغال يملك صلاحية

إعتاق أي شخصٍ من مملكتها الأبدية، وهي لا ترحم فانيًا سواء أكان رجلاً أم امرأة أم طفلاً، فحين هبطت إليها من السماء أختها إنانا لزيارتها، أمرت إرشكيغال بتعريتها مثل أي شخص آخر ثم علقت جثتها المتعفنة من كُلاّب جزارٍ على أحد الجدران إلى أن افتداها أربابُ السماء وأعتقوها، لعلّ استحواذ الحزن على إرشكيغال لا يترك لنا مجالاً لنتنبه إليك، وتقول بعض المصادر: إنها تستلقي على الأرض إلى الأبد، وهي تُخلِّل أصابعها في شعرها كأنما في مَسْكبة كرّات، وثدياها العاجيان عاريان بعد أن مزقت ثوبها الملكي حُزنًا على ولدها الميت نينازو.

وبعد أن تتجاوزَ إرشكيغال، تدخل حجرة أبعد منها، وأخيرًا تصبح في حضرة جلجامش المهيبة. تتمنى أن تتذكر كل شيء سمعته أو قرأته عنه، فكلما ازدادت معرفتك بقاضيك حين تعْرِضُ عليه قضيتك، كان ذلك خيرًا لك، الجو هنا أكثر إضاءة في دار القضاء، فالمشاعل تتراصف على الجدران الطينية، فتضفي على لحية جلجامش المظفورة وهجًا مُحمرًا، إن كنتَ قد دُفنتَ مع ما ينبغي من طيِّبِ الزاد، سيكون بمقدورك أن تقدم له هدية مناسبة (رغم عُزْلِكَ، ما زلتَ تحتفظ بهداياك): إما خنجرًا مُحلّى بالزخارف، أو درعًا مُزَيَّنةً بنقوشٍ نافرة جميلة، من المفروض في الأحوال المثالية أن تكون قد قدمت القرابين لهذا البطل شبه الإلهي لعدد من السنين في حياتك؛ لذلك سيعرف جلجامش اسمك ويستحسنه؛ وربما يبتسم لك؛ قد تظل تسمع نحيب إرشكيغال من بعيد، ولكنك فجأةً تدرك أن الأمور ستكون على ما يُرام، أو على الأقل، على ما يرام في حدود الممكن، لا يستطيع الأرباب أن يغيروا مصيرك النهائي، ولكن من رأفتهم الصارمة بك أنهم عيَّنوا لك في منصب القضاء أشهر رجل في التاريخ يكره الموت، ويتوق للحياة، ويعشق الرفقة الطيبة والجَمال أنّى وجدهما، ومن يدري، لعلك مثله تنال قدْرًا من الحياة في قصر الموت عينه.

الخاتمة: جلجامش صدّام

في شباط/ فبراير عام ٢٠٠٣، وبينما كانت الولايات المتحدة تضغط على صدّام حسين ليتنحّى ويذهب إلى المنفى، التقى دكتاتور العراق بقادة جيشه وألقى عليهم خطابًا قال فيه: إنه يفكر في الإقدام على هذا الأمر، ولكي يُضفي على الفكرة شيئًا من الإيجابية، قارن نفسه بجلجامش الذي قرر ترك بلاده بحثًا عن الخلود، "لقد تخلى الملك عن دفّة الحكم،" قال صدام لقادته المصدومين: "وترك قيادة البلاد لمجلس شيوخه إلى أن يعود[١]"، لم ينفذ صدام خطته في نهاية المطاف، ولكن المقارنة التي أجراها لم تكن اعتباطية ولا وليدة اللحظة؛ إذ كان لديه اهتمامٌ قديم بجلجامش وعصره، فقد أعلن صدام في الربيع السابق خطة لإعادة إعمار مكتبة آشوربانيبال في نينوى، وكان ينوي أن يملأ المكتبة بقوالب جِصّية مأخوذة عن كل الألواح التي كانت المكتبة تقتنيها في يوم من الأيام، وكان قد توصل من حيث المبدأ إلى اتفاقية مع المتحف البريطاني لأخذ قوالب للألواح البالغ عددُها خمسة وعشرين ألفًا، وقد كان مقررًا للمكتبة بعد إعادة إعمارها أن تكون بمثابة واسطة العِقد في معهد صدّام للدراسات المسمارية الذي سيكرَّس للأبحاث في تراث العراق الثقافي[٢].

مع أن جلجامش ظل منسيًا لألفي عام، فإن قصته تُقرأ ثانية في موطنه اليوم ويجري تداولها خارج العراق على نطاقٍ عالمي، وقد تُرجمت إلى العربية

(1) As reported by William Ury, "A Last, Best Hope Against War Still Exists," *Christian Science Monitor*, 17 March 2003, www.christiansciencemonitor.com/2003/0318/p09s02-coop.html.

(2) As reported in *Science*, 3 May 2002, 834-35.

والصينية والفرنسية واليابانية والفارسية والروسية والإسبانية وعدد كثير من اللغات الأخرى، لقد صارت «ملحمة جلجامش» نصًّا أساسيًّا في مواد الأدب العالمي في أمريكا، كما أنها تُلهِم الكتّاب حول العالم، من فرقة مسرحية طليعية أمريكية تدعى "فِرقة جلجامش" إلى الروائية الأسترالية جوان لندن صاحبة رواية «جلجامش» (٢٠٠١) التي تحكي عن أمٍّ عزبة من ثلاثينيات القرن العشرين تسافر من الريف الأسترالي إلى أرمينيا السوفييتية بحثًا عن عشيقها المختفي، إن قصة جلجامش، ماضيًا وحاضرًا، تُصادق على استقصاءات لقضايا مثل الاستبداد والعدل، والحب والموت، والفن والخلود.

يمكننا أن نجد واحدًا من أطرف الاستعمالات لهذا الموضوع القديم في رواية فِلِپ روث «الرواية الأمريكية العظيمة» (١٩٧٣)، تركز الرواية على فريق بيسبول في فريق متخيَّل يُدعى الاتحاد الوطني، وتسلط الأضواء على هدّاف ممتاز يُدعى جِل جامش الذي يتحدر من أصل بابلي، فإن كان سن ليقي أونيني قد اعتقد أن جلجامش هو مبتكر الآبار، فإن فِلِپ روث يعتقد أن جلجامش هو مبتكر البيسبول الأول، بما أن القصائد القديمة تُظهِر جلجامش وإنكيدو وهما يلعبان لعبة تستلزم كرةً ومَضربًا[١]، في رواية روث يصبح جل جامش الحديث الهدّاف النجم في فريق الاتحاد الوطني لموسم ١٩٣٣، وجل جامش يعتقد أنه لن يخسر أبدًا؛ "لأنني جِل جامش! أنا مخلوقٌ خالد!"[٢] بيدَ أن جل جامش تنتابه سورةٌ من الغضب الشديد حين تتعالى الأصوات ضده، وحين يحتسب حَكَمٌ يُدعى مايك الثرثار رميةً حاسمةً كرةً لا ضربة، يحاول جِل أن يقتله في رميته التالية، فيُطرَد من البيسبول، ونتيجةً لذلك ينقلب ضد أمريكا،

---

(١) في القصيدة السومرية الموسومة "بلجامش والعالم السفلي" يهبط إنكيدو إلى العالم السفلي ليسترد مضرب (بُكّو) جلجامش وكُرته (مِكّو) اللذين وقعا في شقٍّ في باطن الأرض، ولا يعرف الباحثون على وجه اليقين طبيعة اللعبة التي تُلعَب بوساطة هاتين الأداتين، ولعلها نوع من لعبة البولو. [حاشية المؤلف].

(2) Philip Roth, *The Great American Novel* (Holt, Rinehart and Winston, 1973), 62.

فيهاجر إلى الاتحاد السوفييتي ليتدرب على التجسس، يُعاوِد الظهور في أواخر الرواية بعد أن أعاده ستالين إلى الولايات المتحدة بصفة عميل سري.

لدى عودته يدّعي جِل أن شوقه العارم للبيسبول منعه من البقاء خارج البلاد، عندئذ يقدم وصفًا عَرضيًا ولا مُباليًا إلى درجة مخيفة عن اتباعه دورة تدريبية في التحقيق في روسيا السوفييتية:

> كنت أقضي عطلاتي الصيفية في الأرياف ومعسكرات تشغيل العبيد، أشرف على التعذيب وأُجري التحقيقات حين يكون الجلادون النظاميون في إجازة، ومن حين لآخر كنت أدفع سجينًا إلى حافة الجنون أو أُعذِّب مُتَّهمًا عنيدًا إلى أن يعترف، وما عدا ذلك كنت أُمضي حياتي كما يُمضي طالبٌ حياته عادةً، كالتنظيف بعد عمليات الانتحار أو التأكد أن الخبز تَفِه المذاق أو أن الحُساء لا يوجد فيه ما يُغذّي... إلخ. ثم الحديث، أيها الجنرال، والمحاضرات التي لا تنتهي، والمجموعات الدراسيةَ، ثم بعد ذلك الاغتيالات، طبعًا ثلاثة زملاء يسكنون في غرفة واحدة اغتيلوا في فراشهم خلال سنتي الدراسية الأخيرة[١].

يصبح جِل مدير فريقه القديم ويكون مُلهِمًا للاعبيه بتحريضهم على كره خصومهم وكره أمريكا نفسها، وفي خطابه الأول إلى فريقه ذي الترتيب

(1) Ibid., 327.

الأخير، لا يختلف عن صدام حسين وهو يهاجم أمريكا، "أنتم حُثالة البيسبول وعبيد اتّحادكم، ولماذا؟ ألأنكم فزتم بالمرتبة الأخيرة في خمسين مباراة؟ مستحيل! أنتم حُثالة لأنكم لا تكرهون مُضطهديكم، أنتم عبيدٌ ومُغفّلون وجُبناء لأنكم لا تمقتون أعداءكم[1]"، وفي خطاب ثانٍ بعنوان: "كيف تكره ومَن تكره" يقول: "وتسألونني: 'ما موجِب الكُره، يا جل؟' لقد سلبوا منكم وطنكم! وأخرجوكم منه كالكلاب!"[2] يتسبب جل في حملة مسعورة يقودها الكونغرس ضد الشيوعيين المشبوهين في اتحاد البيسبول، ثم ينسلّ هو بهدوء عائدًا إلى روسيا، ثم يظهر لاحقًا في صورة إلى جانب ستالين ثم إلى جانب بريجنيف قبل أن يُتّهم في نهاية المطاف بأنه عميلٌ مزدَوَج في حملة تطهير ثم يُقتَل.

تُمثّل «الرواية الأمريكية العظيمة» جُهدًا غيرَ مُتوازٍ، إلا أنها هجائيةٌ رائعة للحملة المسعورة ضد الشيوعيين في عهد مَكارثي، ففي الرؤية التاريخية البديلة التي يقدمها روث، يُرسل السوفييت جِل لوحده لإثارة حملة مسعورة ضد العشرات من الشيوعيين المتهمين زُورًا وبُهتانًا، وهذه هي خطة ستالين لتقويض أمريكا من الداخل، وذلك عن طريق تدمير الرياضة القومية الأمريكية ودفع أمريكا للانقلاب على قيمها الديموقراطية حين يَستَحْوِذ عليها الخوف وتجتاحها نظريات المؤامرة.

تستحق رواية روث مقارنةً طريفةً مع عملٍ عراقي صادرٍ مؤخرًا لكاتب أقل موهبة وسياسيٌ أكثر خبرة: إنه صدام حسين ذاته، في أعقاب هزيمته المُذلّة في حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩٢[3]، قرر صدام، على شاكلة جلجامش فيما يبدو، أن أفضل وسيلة ينال بها الخلود هي الأدب، وهكذا شرع يكتب روايات

(1) Ibid., 342.
(2) Ibid., 344.
(٣) الحقيقة أن حرب الخليج الأولى حدثت سنة ١٩٩١، وليس في ١٩٩٢، كما نود أن ننوّه مرة أخرى إلى أن ما يسميه الغرب حرب الخليج الأولى يسميها العرب حرب الخليج الثانية. [حاشية المترجم].

رومانسية سياسية، وهذه مسيرة ثانية غير معقولة لسياسي مثل صدام، ولكن هذه المسيرة توقفت مع بداية حرب الخليج الثانية سنة ٢٠٠٤(١) التي أوقفت طباعة كميات هائلة من عمله الرابع، وهي رواية ذات عنوانٍ برّاق، «اخرجْ منها، يا ملعون!» يُقال: إن صدام ترك شؤون الدفاع لولديه، وصار يقضي معظم وقته للعمل على روايته، بينما كان الائتلاف الذي تقوده الولايات المتحدة يُعدُّ العُدَّة لغزو العراق، وبعد اعتقاله، راح يعمل على كتابة رواية أخرى وهو في السجن، وكان يكتب على طاولة من الورق المُقوّى.

وما يهمنا في هذا المقام هو رواية صدام الأولى؛ لأنها تمزج ما بين «ملحمة جلجامش» و«ألف ليلة وليلة» بأسلوب رمزي عن حرب الخليج الأولى، ظهرت هذه الرواية سنة ٢٠٠٠ من دون اسمٍ لمؤلفها تحت عنوان «زَبيبة والملك»، وتدور أحداثها في آشور القديمة، تحكي الرواية قصة حب ملكٍ مجهول لشابة من عامة الناس اسمها زبيبة تأتيه إلى القصر وتعطيه دروسًا في الحكم العادل، وحتى سنة ٢٠٠٦ لم تُترَجم هذه الرواية إلى الإنجليزية، ولكنها ظهرت في ترجمة ألمانية وتحمل هذا العنوان الفرعي "قصة حب." وتضرب هذه الترجمة مثالاً طريفًا على التداول الأدبي بين الشرق الأوسط وأوروبا، يقتبس الناشر في تمهيده قولاً لعميلٍ مجهولٍ من عملاء الاستخبارات المركزية الأمريكية كان يعمل ضمن فريقٍ قضى ثلاثة أشهر لدراسة الرواية ليستدلّوا منها على نفسية صدام، "كلما قرأت الكتاب تعاطفتُ مع الملك، وهذا بالضبط ما أراد صدام أن يحرزه، من بين أمورٍ أخرى، من خلال الرواية، وهو أن يتعاطف شعبه معه، وهي رواية تنم على ذكاء، ومكتوبة بأسلوب رشيق

---

(١) مرة أخرى، يُخطئ المؤلف في تاريخ حرب أخرى من حروب الخليج، والتاريخ الصحيح لحرب الخليج الثانية (الثالثة عندنا) هو ٢٠٠٣ وليس ٢٠٠٤. [حاشية المترجم].

يمكن أن تأسرك حتى آخر صفحة[1]"، ويظهر هذا الاقتباس أيضًا على الغلاف الخلفي للرواية، ومن المفارقات الطريفة أن فعل **fesseln** الألماني، الذي ترجمته هنا بمعنى "يأسر"، يعني أيضًا "يُقيِّد" أو "يُصفِّد".

تظهر على غلاف الطبعة الأصلية صورةٌ لحسناء دعجاء العينين مُترفة، ولكن اللوحة التي على الغلاف ليست أصلية، ولا حتى ذات منشأ شرق أوسطي، بل هي لوحةٌ لفنان كندي تُدعى "الاستيقاظ" وهي عبارة عن رمز لـ "ربَّة الربيع والفجر" يستلهم فيها الفنان صورًا من آسيا والأمريكيتين والشرق الأوسط، وعلى موقعه الإلكتروني يصف الفنان جونثن إيرل باوْزَر صدمته واستغرابه حين اكتشف أن ناشر صدام قد سرق لوحته المحمية بحقوق النشر[2]، والأطرف من هذا هو أن الطبعة العراقية للرواية تستخدم لوحة من أمريكا الشمالية، بينما غلاف الطبعة الأوروبية يحمل لوحة عراقية حقيقية: صدام حسين، واضعًا خدَّه على يده، متأملاً بقتامة في شؤون العشق والموت.

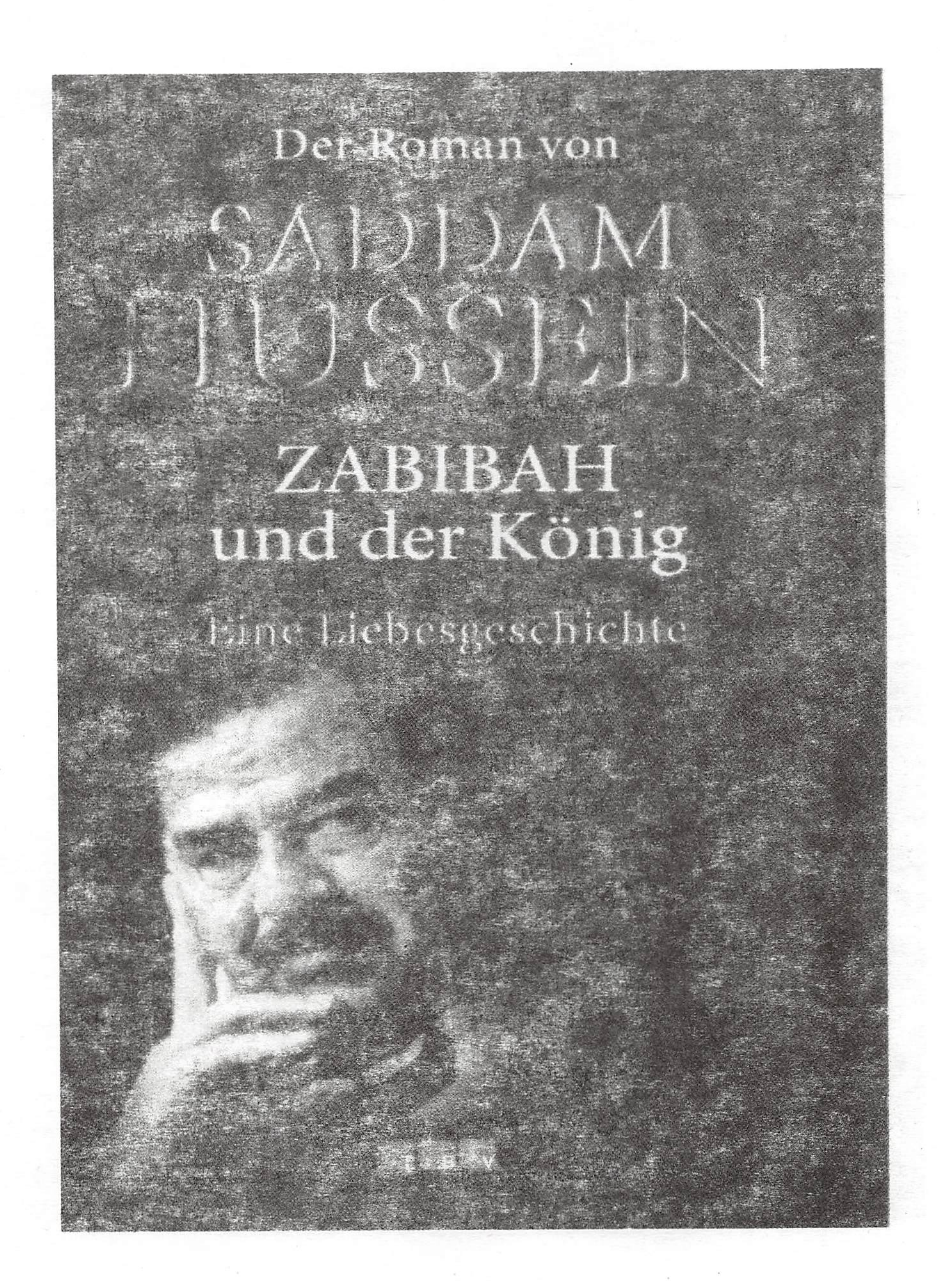
(1) Saddam Hussein, *Zabibah und der König: Eine Liebesgeschichte*, trans. Doris Kilias (Thomas Bauer Verlag, 2004), 6.

(2) As described on Bowser's Web site, www.jonathonart.com.

وقد ظهرت منذ ذلك الحين طبعة ألمانية ثانية (Editio de Facto, 2004). بعنوان فرعي مختلف Das Verborgene Buch (الكتاب الممنوع). وبدلاً من صورة صدام، يحمل الغلاف الأمامي مصباح علاء الدين الذي يخرج منه العنوان الفرعي كأنه نفحة من دخان. [حاشية المؤلف].



غلاف رواية صدام حسين «زَبيبة والملك» (بغداد، ٢٠٠٠)



غلاف الترجمة الألمانية لرواية «زَبيبة والملك» (ألمانيا، ٢٠٠٤)

كان صدام مهووسًا منذ القدم بتاريخ العراق ومكانته فيه؛ "إنعُد إلى تاريخنا الماثل دائمًا أمام عينيَّ،" قاله لصحفي سنة ١٩٨٠[١]. كان صدام معجبًا بتكريتيٍّ آخر مثله هو صلاح الدين الذي حارب الصليبيين في القرون الوسطى، كما كان مشدودًا بشكل خاص إلى تاريخ العراق قبل الإسلام، وكان يحلو له أن يُقارن نفسه أحيانًا بنبوخذنصَّر، وأحيانًا بسنحاريب، وأحيانًا بجلجامش، ويعكس هذا الاهتمام بحث حزبه البعثي عن أساسٍ أعمق للقومية العربية من تلك التقسيمات العرقية والطائفية التي تبرز في العراق وأماكن أخرى من الشرق الأوسط، وقد قال صدام في مقالة له سنة ١٩٧٨ بعنوان "في كتابة التاريخ": إنه يعتقد أن "تاريخ الأمة العربية يمتد إلى العصور السحيقة، وأن كل الحضارات الكبرى التي نشأت في الوطن العربي هي تعبيرٌ عن صفات سكانه[٢]".

وانسجامًا مع هذا الاهتمام، تستهل رواية «زَبيبة والملك» بديباجة تلخص تاريخ العراق المجيد باعتباره موطن بُرج بابل ومسقط رأس آدم وحواء وإبراهيم ونوح، "أليس هو [العراق] أو جباله، أو هضبة (النجف) فيه، موطن نبوة نوح علية السلام؟ هي المرحلة الثانية بعد نبي الله آدم علية السلام[٣]"، وهذا التاريخ لا يزال حيًّا اليوم، "وهل ثمة من يستغرب من أي غريب؛ قياسًا بالسياق الدارج، إذًا ما حصل خارج السياق في العراق؟ ألَم تنهض روح رسالة الأمة

---

(1) Quoted by Fuad Matar in "The Young President: An Interview with Saddam Hussein in 1980," repr. In *The Saddam Hussein Reader,* ed. Turi Munthe (Thunder's Mouth Press, 2002), 3-35, 8.

(2) As quoted in Adeed Dawisha, "'Identity' and Political Survival in Saddam's Iraq," *Middle East Journal* 53:4 (1999): 553-67, 560.

(٣) لدى مطابقة الاقتباسات الإنجليزية المأخوذة من الترجمة الألمانية لرواية «زبيبة والملك» مع النص الأصلي العربي تبيَّن لي أن هناك فرقًا بيِّنًا في بعض الأحيان بين هذه المقتبسات والأصل، ومع ذلك، فإنني مُلزمٌ هنا بالعودة إلى النص العربي بدلاً من نقل المقتبسات عن الإنجليزية المنقولة عن الترجمة الألمانية للرواية، ومن باب الأمانة أيضا فإني ألتزم بنقل النص الأصلي بأخطائه الإملائية وعلامات ترقيمه المضطربة، وفي أحيان نادرة جدًا أصحح الخطأ الإملائي إذا كان هذا الخطأ يؤدي إلى التباس المعنى على القارئ، وذلك بوضع التصحيح بين قوسين مربعين بعد الخطأ مباشرة. [حاشية المترجم].

من جديد في العراق، معطرةً بأريج النبوة وبركتها؟ ... كان العراق، إذن بلد النبوة والرسالة .. بلد الحضارة والتجارة والطهارة، نيه نبت الزرع أولاً. ... على الأرض التي منها تفتح الباب إلى السماء، حيث عليون، أو إلى النار لمن يصليه الجحيم. في العراق بلد سومر ، وأكد، وبابل، وآشور، والحضر، وبغداد، وسامراء .. بلد كل صقر أغر وكل ماجدة بهية، من غيرها ما كانت الشمس لتخلق ، ولا وجد القمر سبيله في السماء ....".

يروي الفصل الأول من رواية صدام أن مواطنًا ذا شأن لديه زوجة شابة من عامة الشعب واسمها زبيبة، وأن الملك الآشوري المتعجرف غير المحبوب يقع في غرام زبيبة من أول نظرة حين يزوره الزوج وزوجته، يُخفي الملك مشـــاعره؛ لأنه "كان يُحاول ألا تكتشف أنه يرتبط بأكثر من رابطة علاقة تربحه مع واحدة من الشعب؛ لأنه في الغالب محصورٌ بين جدران القصور وتقييداتها" (٧)، يتبادل الملك بعض العبارات النبيهة حول مذاق الزبيب، ثم يدعوها الملك لزيارته في قصره لكي تخبره عن أحوال البلاد، ويتبين له أنها شديدة الصراحة معه، فتحضه على أن يكون حاكمًا صالحًا يخدم الشعب بدلاً من أن يتجبَّر عليه، ثم يكتشف أنها تهتم به شخصيًا، لا بسلطته كما يفعل أغلب الناس، وهي الوحيدة التي تكلمه بلا مجاملة أو محاباة.

يشبه هذا الملك الآشوري جلجامش، فهو أيضًا حاكمٌ متهور يُسيء استخدام سلطاته مما يُسخِط عليه رعاياه، في الرواية كما في الملحمة، يؤدي صديقٌ حميمٌ دورَ الوسيط في تَحَوُّل الملك أخلاقيًا وسياسيًا؛ حيث يأتي هذا الوسيط من خارج الحاشية ويساعده على أن يصبح حاكمًا أكثر عدلاً، تأتي زبيبة إلى القصر تمامًا كما يأتي ذلك الرجل البدائي إنكيدو، فتصبح ضميره ومُلهِمته وشريكته في الغرام.

والرواية صريحة إلى درجة مذهلة في تصويرها لملكٍ موسوس واقعٍ في شراكه، تقول له زبيبة: "وبما أن قصرك هذا موحش وجدرانه سميكة وليس فيه نوافذ كافية ومظلم وهواؤه في الداخل فاسد والحركة فيه محددة على وفق إيقاع لا يتغير فإنه يصلح بصفاتٍ مهيأة على صورة ما يرى الشيطان ليجعله مكانًا يتكاثر فيه مسرحًا لهواه، ومع الشيطان تكثر المؤامرات وتفرخ حسدًا ورغبة في الملك وطمعًا في السلطان" (٢٧)، لقد صار حصنُ الملك سجنًا له، "ومثلما لا تجعل جدران قصرك تسمع ما هو خارجه ولا ترى النور وتتعامل مع الهواء الطلق في الخارج، فإنها تمنع صوتك عندما يهاجمك متآمرون من أن يظهر في الخارج وتقطع عليك الطريق والنجدة...." يجيب الملك أنه لا يستطيع أن يغادر قلعته، كما تعلم هذا في مراهقته، "كلامك هذا حق وعدل ولكن هل تريدين مني أن أتنازل عن الملك وأكون خارج القصر مثلما عشت حياة الإهمال من والدي رحمة الله بمؤامرة من إخوتي وأبناء الجواري !؟" وفي هذا القول أصداء من سيرة صدام حسين نفسه الذي وُلِدَ فقيرًا مُعْدَمًا، فحرمه زوج أمه القاسي من التعليم والرعاية، وبعد اشتراكه في محاولة فاشلة لاغتيال قائد العراق العسكري، هرب صدام إلى مصر ليعود إلى العراق بعد عدة سنوات ليصبح قاتلاً محترفًا.

وبعد أن تستمع زبيبة في الرواية إلى القصة المرة عن شباب الملك المعنّى، "قالت زبيبة وهي تمسح بيدها على شعر الملك ووجهه من غير أن تفعل أكثر من ذلك.. ومع أنها كانت ترغب في تقبيله من حين لآخر وبخاصة عندما ترى أن الهم يصعد في نفسه وتتداعى في مخيلته المرة بما هو أكثر مرارة وأمض فإنها كانت تمنع نفسها عن ذلك؛ لكي لا تقطع عن الملك سلسلة أفكاره وذكرياته عن قصة والدة [والده] الملك..." (٣٨). وهنا تصبح هي

شهريار بالنسبة إلى شهرزاد الملك، وتضبط نفسها لكي تسمع المزيد من قصص حبيبها الأسرة.

في جانب منها، هذه دعاية صرفة، موجهة فيما يبدو إلى نساء العراق وتهدف إلى إبراز صورة ألطف وأرق لطاغية عليهن أن يحببنه ويدعمنه: صدام نصير النساء. "إن رغبة المرأة يجب أن تراعى،" يقول الملك: "أليست هي نصف المجتمع!؟ وإذا كانت سلبية إزاء نصفها تعطل حركة دفة مركب الحياة، فكيف إذا حاولت على النصف الثاني وهي صاحبة التأثير الكبير فيه!؟" (٨٥)، ولكن التركيز على زبيبة يتجاوز الغرض الدعائي البحت، وفي كثير من المناحي، يبدو أن الكاتب يتماهى مع المرأة القروية الثاقبة النظر أكثر مما يتماهى مع الملك المتغطرس المقيد في قصره. إن أكثر شخص تشبهه زبيبة شبهًا مباشرًا هو صدام، فهي البائسة الفقيرة التي تشق طريقها من القرية إلى القصر بنباهتها وقوة شخصيتها، فتصبح مرشدةً وأمًّا لبلادها في نهاية الرواية.

تظل زبيبة والملك لبعض الوقت مجرد صديقين عزيزين، فيخوضان في نقاشات فلسفية وسياسية طويلة في القصر المعتم ليلاً، وبعد ذلك تركب فرسها وتقفل راجعة إلى بيت زوجها، ولكن علاقتها تأخذ منعطفًا حاسمًا بعد ذلك، وذلك في مشهد فاضح في الكتاب. تقول له زبيبة ذات ليلة: "أقصد ألا يكون سعيك في تكوين حزام ظهرك بهذا الاتجاه وإنما بكسب الشعب إلى جانبك." فيسألها الملك متشككًا: "ومن هذا الشعب؟" فتجيبه:

- من شعبك يا جلالة الملك جند جيشك وليس من المرتزقة أو الأجانب الذين هم من الكثرة في جند جيشك وليس من القلة.

- قد يكون هذا ممكنًا يا زبيبة ...
- بل ممكن يا جلالة الملك لو أردت ذلك . (٤٢)

شيئًا فشيئًا تجد زبيبة نفسها متضايقة من العيش في البيت مع زوجها، ولكنها تشعر بأنها ملزمة قانونًا بمواقَعته، وكما تقول للملك في زيارة لاحقة: "صدقني يا جلالة الملك ... لقد كنت في وضع شعرت فيه كأنني أجلد لا أواقع ... ماذا أفعل؟ كن مكاني ولك أن تتصور!!!" فيجيبها الملك بنفور: "كيف أكون مكانك يا زبيبة؟ ... أيكون الملوك مكان امرأة؟!" فتأتي إجابته لتوضح المعنى الرمزي للرواية، "يكون كأنه امرأة تنام مع رجل غريب في سرير واحد عندما لا يقود جيوشه دفاعًا عن بلده ضد أجنبي يجتاح البلاد أو يستضعفه فيهينه ... ألا ينطبق ذلك على كثرة الملوك من حولنا!؟ ولا يثأرون لكرامتهم وكرامة أمتهم وبلدهم بل إن المرأة تجل عن موقف كهذا."

لكن الأمور تزداد سوءًا، فبينما كانت زبيبة تعبر غابةً ذات ليلةٍ عائدةً إلى بيتها على ظهر فرسها، يهاجمها ثلاثة رجال: اثنان يقيدان يديها والثالث يغتصبها، ثم يتبين أن مغتصبها هو زوجها الغيور لا غير، تربط زبيبة الموقف الشخصي بالسياسي وهي تتأمل أمر اغتصابها، فتقول:

إذن يبقى الاغتصاب هو الأقسى سواء كان اغتصاب رجل لامرأة أو اغتصاب جيش الغزاة للأوطان .. أو اغتصاب الحق على يد سالبه.. ولكن الأقسى هو التسليم بالاغتصاب سواء من الدول أو الأشخاص .... ثم تحاول زبيبة أن تخفف عن نفسها وطأة الاغتصاب وأذاه الممض في نفسها لتقول ...
– ولكني قاومت الاغتصاب حتى أثخنت بجراحي (وانهد حيلي) وكأني أصبحت جثة هامدة... ثم تقول:
– نعم صرت جثة هامدة.. فهل يلحق بالجثة الهامدة عار

الاغتصاب ؟ بل هل يلحق الوطن وتاريخ الشعب عار الاغتصاب عندما يفتى [يفنى] الشعب ولا يعود هناك على أرض الوطن من هو قادر على حمل السلاح؟..

ثم تجيب:

- نعم هكذا وأي حاكم أو شعب يقبل الاغتصاب وهو حي وشعبه موجود فهو عار على الحاكم وإذا قبل الشعب هذا فيلحقه عار أيضًا .. (١١٠-١١)

يهاجم الأشرار ذوو "العيون الزرقاء" القصر في السابع عشر من كانون الثاني/ يناير، وهو التاريخ الذي بدأت فيه عملية عاصفة الصحراء ١٩٩٢[١]. وبينما كانت زبيبة تساعد في الدفاع عن القصر، يصيبها سهمٌ في صدرها، فتكتب رسالة وداع تختتمها بهذا القول: "أموت ويحيا الشعب ..... أموت ويحيا عرب...." فيقرر الشعب أن يجعل من يوم موتها عيدًا وطنيًا، وفي نقاشٍ عامٍّ يُعقد تحت صورتها يتشكل مجلسٌ ويقرر الشعب أن يُلغوا الملكية، ولكنهم يتفقون على أن البلاد بحاجة دائمة إلى زعيم قوي، في هذه الأثناء يموت الملك حُزنًا على موت زبيبة، فيرى الناس أن هذا الحدث هو بمثابة مصادقة على قرارهم، ويختتمون مجلسهم بهذه الصيحة، "تحيا زبيبة، يحيا الشعب".

لا تُعدُّ «زبيبة والملك» عملاً أدبيًا عظيمًا، لقد سماها أحد المعلقين عملاً رائدًا في جنس أدبي جديد يُدعى أدب الطُغاة الذي يشمل قصائد الزعيم الصيني ماو تسي تونغ وقصص معمر القذافي[٢]، مع ذلك، فهي مؤشر رائع على

---

(١) مرة أخرى يخطئ المؤلف في تاريخ حرب الخليج هذه (المسماة أيضا حرب تحرير الكويت) التي انطلقت يوم ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١ وليس ١٩٩٢. [حاشية المترجم].

(2) Jo Tatchell, "Heroes and Villains," *The Guardian*, 6 July 2004: http://www.guardian.co.uk/Iraq/Story0,2763,1254859,00.html.

الأزلية المتواصلة لتحفة أدبية حقيقية، فهي واحدة من بين أعمال أدبية عديدة تعيد صياغة «ملحمة جلجامش»، ولكن إذا كانت رواية صدام قائمة على تشابهات بين الشخصية الرئيسة في رواية صدام والملك جلجامش، فإن هناك من قرأ هذه التشابهات بشكل مختلف، ففي كانون الثاني/ يناير سنة ٢٠٠٣، نشرت صحيفة «الأهرام» المصرية الأسبوعية [التي تصدر الإنجليزية] مقالاً لشريف الموسى، وهو أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يقارن فيه صدام، ليس مع جلجامش، بل مع هُمبابا، البعبع الحارس لغابة الأرز، ويرى الموسى أن جورج بوش الابن هو مَن تُمكن مقارنته بالطاغية جلجامش، بينما يهاجَم صدام، مثل هُمبابا، من قبل أجانب يريدون الاستيلاء على ثروات بلاده الطبيعية؛ يقول الموسى: "كان الخشب في القديم أكثر مصدرٍ طبيعي إثارة للمطامع؛ إذ كان يُستخدم لبناء المعابد والقصور والمنازل، ولصنع الأثاث، ولبناء السفن، ولتوفير الوقود، أما الآن فقد صار النفط هو شريان الحياة بالنسبة إلى الحضارة التكنولوجية الحديثة؛ والولايات المتحدة مستهلِك مُدمن للنفط الرخيص و ... النفط في صميم الحملة الأمريكية".

أما عن حارس غابة الأرز، فيقول الموسى: "لعل هُمبابا كان زعيمًا قبليًّا لا يقل بطشًا عن صدام، ولكننا لا نسمع القصة من هُمبابا شخصيًّا ولا من قبيلته، أو كيف ينظرون أنفسهم أو إلى الغازي البعيد الذي جاء ليحتطب غابتهم". شن بوش هجومه بدعمٍ من المعارضة العراقية، تمامًا كما كان جلجامش وإنكيدو في الملحمة؛ حيث "تطلّب إخضاع هُمبابا إلى استخدام القوة الصرفة. ... ولكن جلجامش لم يَلِنْ، ولم يدرك تكلفة الغطرسة ويقبل بمحدودية إمكانيات البشر إلا بعد مآسٍ غير متوقعة ومراجعةٍ للذات في البرية(١)"، في مثل هذه

(1) Sharif Elmusa, "In Search of the Epic: Gilgamesh as Bush, Humbaba as Saddam," *Al-Ahram*, 2-8 January 2003: http://www.weekly.ahram.org.eg/2003/619/op12.html.

التفسيرات تجد «ملحمة جلجامش» استخدامات جديدة في العالم المعاصر، مع أن صداها يختلف من قارئ لقارئ قد يرى الأمور بشكل مغاير جذريًا عمّن هو الطاغية ومن هو المعتدي ومن هو الضحية.

وبعيدًا عن استخداماتها المجازية، تُبرز «ملحمة جلجامش» ترابط الثقافات المعاصرة وهي تجتاز الحدود التي غالبًا ما تفرق ما بين "نحن" و"هُم"، ما بين "العالم العربي" و"الغرب،" ما بين فلِپ روث وصدام حسين، حين كتب فلِپ روث روايته في بداية السبعينيات من القرن العشرين كان يعود في تفكيره إلى عهد مكارثي، ولكن مما لا شك فيه هو أنه انتقى موضوعه هذا بسبب مخاوفه من سُعار مناهضة الشيوعية الذي تجدد خلال سني إدارة نكسون وحرب ڤييتنام التي كانت تشارف على نهايتها الدموية، ولدى مقارنة رواية صدام براوية روث، تجدر الإشارة إلى أنه عندما هرب الشاب صدام من موطنه إلى مصر، كانت لديه علاقات واسعة مع وكالة الاستخبارات المركزية التي كانت تسعى إلى تحريض المعارضة العراقية على الزعيم العراقي الجنرال عبد الكريم قاسم ذي الميول السوڤييتية، وبعد ثلاث سنوات قضاها صدام في القاهرة عاد إلى العراق وأسهم في تصفية الشيوعيين العراقيين بعد الإطاحة بعبد الكريم قاسم في انقلاب سنة ١٩٦٣ الذي دعمته المخابرات المركزية[1]، وكان صدام حسين يعذب سجناءه شخصيًا قبل قتلهم، فلعلّه يشبه جل جامش بطل رواية روث أكثر مما يشبه جلجامش القديم الذي قارن نفسه به.

صحيحٌ أن «ملحمة جلجامش» حققت حضورًا كونيًا خارج موطنها، لكن أن يتجه صدام إلى الكتابة الروائية يدل على عمق تغلغل الثقافة الغربية في الشرق الأوسط، فالشعر هو الشكل الأدبي المفضل تقليديًا عند العرب، وظلت الروايات جنسًا أدبيًا مستوردًا إلى وقت قريب نسبيًا. إذن، اختار صدام شكلاً

(1) Con Coughlin, *Saddam: His Rise and Fall* (Harper Perennial, 2005), chap. 2, "The Assassin," 23-51.

غريبًا يدشن به مسيرته الأدبية، بل إنه استلهم ذات النماذج التي اقتدى بها فِلِب روث، تبدأ رواية روث بديباجة من خمسين صفحة يرويها صحفي رياضي يُدعى سمتي الذي يصف علاقة الحب والكراهية التي تربطه بإيرنست همنغواي، وهو شخصية أبوية أساسية بالنسبة إلى كاتب يكتب رواية بعنوان «الرواية الأمريكية العظيمة»، يدخل سمتي وهمنغواي في الديباجة في جدال يدعى فيه همنغواي أنه حتى الآن لا توجد رواية أمريكية عظيمة، ثم يوبخ سمتي لأنه يحاول أن يحاكيه، ولعدة سنوات بعد ذلك، يقول سمتي: "بين الحين والآخر كنت أتلقى بطاقة معايدة بمناسبة عيد الميلاد من همْ، أحيانًا من إفريقيا، وأحيانًا من سويسرا أو آيدَهو، مكتوبة وهو سكران فيما يبدو، كانت البطاقة اللاحقة تقول تقريبًا الشيء ذاته الذي قالته السابقة: حاول أن تستخدم أسلوبي مرة أخرى ... وسأقتلك، ولكن في النهاية لم يقتل همْ أحدًا يستخدم أسلوبه سوى نفسه(١)".

قد يبدو همنغواي وهو يرسل من آيدَهو تهديداته عبر بطاقات عيد الميلاد بعيدًا من صدام حسين في العراق بُعد الثرى من الثريا، بيد أنه يتبيَّن لنا أن قدوة صدام في الأدب لم يكن سوى إيرنست همنغواي أيضًا، وكما نقلت صحيفة الديلي تلغراف اللندنية في كانون الأول/ ديسمبر سنة ٢٠٠٣، "قال سعد هادي، وهو صحفيٌّ له ضلعٌ في كتابة روايات صدام: إن الروائي المفضل لدى صدام هو إيرنست همنغواي، ولا سيما روايته «الشيخ والبحر» التي حاول محاكاة أسلوبها(٢)، 'كان يجلس في مكتبه الرئاسي ويروي حكاياتٍ بسيطة، بينما كان مساعدوه يدوِّنون كلماته.'" أن يكون روائي كلاسيكي أمريكي مصدرَ إلهامٍ لدكتاتورٍ يطمح أن يصبح كاتبًا يمثل حبكةً مقلوبة تليق بفِلِبِ روث.

كانت عملية التأليف ممتعة لصدام، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى مساعديه:

---

(1) Roth, *The Great American Novel,* 35-36.
(2) Jack Fairweather, "Dictator Found Refuge in Fiction—Much of It Bad," London *Daily Telegraph*, 17 December 2003, http://www.theage.com.au/articles/2003/12/17/1071337033784.html.

> في البداية كان يُطلب من كتّاب متميزين أن يحسّنوا قصص صدام، وتتذكر مُجيبة العزيزي كيف استُدعي زوجها سامي، الذي أسهم في كتابة رواية صدام الأولى «زبيبة والملك»، من عمله ذات صباحٍ، وقيل له بأن لديه ثلاثة أيام ليخرج بكتابٍ من ملاحظات الرئيس.
>
> "كان من عادة سامي أن يعود إلى البيت ويُقبّل أطفاله ويتمنى لهم أحلامًا سعيدة،" تقول زوجته. "ولكنه في ذلك المساء وقف في الممر وهو يتصبب عرقًا، وقال إن 'عمّنا' كلّفه مهمةً خاصة".
>
> وبعد شهرين، وبينما كانت مئتان وخمسون ألف نسخة من «زبيبة والملك» تُوَزّع تحت شعار "رواية لكاتبها،" عاد السيد العزيزي إلى البيت، ثم توجّه إلى المطبخ، وشرب إبريقًا من الماء وسقط ميتًا. وتعتقد أرملته أنه قُتِل بأمرٍ من صدام لطمس دوره في كتابة الرواية(1).

في رواية فلِبِ روث يظل إيرنست همنغواي يرسل بطاقات المُعايدة إلى سِمِتي، "كانت البطاقة اللاحقة تقول تقريبًا الشيء ذاته الذي قالته السابقة: حاول

(1) Ibid.

قد يكون سامي العزيزي مات لأسبابٍ طبيعية، ولكن إذا كان السبب نوبةً قلبيةً سببها القلق والإجهاد، فإن ذلك لا يُعفي صدام من المسؤولية ولو بشكل غير مباشر، ولعل صدام لم يكن هو الفاعل، بل أحد ولديه، عُديٍ أو قُصي، في الرواية تنصح زبيبةُ الملك ألا يخلفه أبناؤه في السلطة، وتقنع الملك بأن يهجر عادة تسمية خليفةٍ للملك من أسرته حتى يتمكن الجميع من السعي لهذا المنصب وفقًا لإخلاصهم ومقدراتهم، حين وضع صدام هذا الموضوع في قصته كان بلا شك يفكر في نفسه وكيف أزاح حزبُه البعثيُ الملكية التي نصّبها البريطانيون في العشرينيات من القرن العشرين. ومن المرجّح أن أحد ولديه تلقى نسخًا من «زبيبة والملك» فور صدورها، وحين قرأ هذا النص، ظن أنه هجومٌ مبطّن، فأمر بإعدام الكاتب. [حاشية المؤلف].

أن تستخدم أسلوبي مرة أخرى ... وسأقتلك"، وإن صحَّت مزاعم أرملة سامي العزيزي، فإن الحياة هي التي حاكت الفن خير محاكاة؛ حيث قتل صدام الكاتبَ الذي حاكى أسلوب همنغواي نيابةً عنه(١).

¤ ¤ ¤

في سنة ١٩٩٦، وفي أعقاب حرب الخليج الأولى، نشر أستاذ العلوم السياسية صموئيل هَنْتِنغتون كتابًا مهمًّا بعنوان «صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي». يزعم هَنْتِنغتون في كتابه أن أمريكا لا تستطيع ببساطة تصدير قيمها إلى الخارج لأن العالم مؤلَّف من مجموعة من الثقافات المتعددة المتمايزة القائمة على دياناتٍ وأنظمةٍ اجتماعية مختلفة، يحاجج هَنْتِنغتون أن "كل حضارة تنظر إلى نفسها على أنها مركز العالم وتكتب تاريخها على أنه الحدث المركزي في التاريخ البشري، ولعل هذا ينطبق على الغرب أكثر مما ينطبق على الثقافات الأخرى، ولكن هذه الرؤى الحضارية الأُحادية تتناقص قيمتها وفائدتها في عالم متعدد الحضارات(٢)"، ويضيف قائلاً: "إن سياسة العولمة التي يُحفِّزها التحديث تُعاد صياغتها وفقًا لاصطفافاتٍ ثقافية؛ حيث تلتقي الشعوب

---

(١) في الحقيقة هذا الزعم أبعد ما يكون عن الحقيقة؛ إذ تكفيك نظرة سريعة على رواية «زبيبة والملك» المليئة بالإطنابات، ناهيك بحبكتها المهلهلة ونخطائها الإملائية والنحوية الكثيرة، لتدرك بعدها عن أسلوب همنغواي المعروف باسم جبل الجليد، وهو أسلوب معنى خالٍ من كل تفصيل أو تزويق. انظر، «المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي»، ترجمة د. موسى الحالول، ٣ مجلدات. سلسلة إبداعات عالمية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠-٢٠١١.

(2) Samuel L. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (Simon & Schuster, 1996), 54-55.

والبلدان ذات الثقافات المتشابهة، بينما تتنافر الشعوب والبلدان ذات الثقافات المختلفة.... وتكمن الصدوع بين الحضارات[1]".

ومع أن هذه التعليقات اللاذعة تستحق اهتمامًا أكثر مما لقيت، فإن كتاب هَنتِنغتون للأسف لم يُقرأ في غالب الأحيان من أجل نقده الشديد للتطرف القومي الأمريكي بل من أجل تصويره القاتم لصراع الثقافات، وهو جزء من أطروحته التي برزت مرة أخرى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يزعم هَنتِنغتون أن كل حضارات العالم الكبرى بطبعها معادية بعضها لبعض، "تمثل الحضارات مُنتهى تطور القبائل البشرية، وصِدام الحضارات هو صراعٌ قَبَلي على نطاق عالمي. ... كما أن العلاقات بين المجموعات الحضارية المختلفة لا يمكن أن تكون أبدًا متقاربةً، بل هي فاترةٌ عادةً، وعدائيةٌ في غالب الأحيان[2]". لا يتفاءل هَنتِنغتون كثيرًا بإمكانية التفاهم أو التعاطف بين الثقافات المختلفة، "ستتراوح العلاقات الناشئة بين الحضارات ما بين الجفوة والعنف، وسيقع كثيرٌ منها ما بين هذين القطبين"، أو كما قال هو بعبارةٍ بليغةٍ جدًا: "إن الكراهية من طبع البشر[3]".

ورغم أن هَنتِنغتون يضع أُطروحة كتابه «صِدام الحضارات» في سياقٍ عالمي، فإن اهتمامه الخاص، بل هَوَسَه، ينصبُّ على علاقة الإسلام والغرب "يمتلك الإسلام حدودًا دموية[4]"، يقول هَنتِنغتون وهو يستحضر التاريخ ليدعم رؤيته عن صِدامٍ حضاري لا ينتهي، "لقد حاجج ... بعض الغربيين أن الغرب ليس لديه مشكلة مع الإسلام، بل مشكلته هي مع دعاة العنف من الإسلاميين المتطرفين، ولكن ألفًا وأربعمئة سنة من التاريخ تثبت العكس.

---

(1) Ibid., 125.
(2) Ibid., 207.
(3) Ibid., 130.
(4) Ibid., 258.

لقد ظلت العلاقة بين الإسلام والمسيحية - الأرثوذوكسية والغربية - عاصفة في غالب الأحيان، فكلاهما كان بمثابة الآخر للآخر(١)".

ولكن، أتحكي كل قرون التاريخ تلك حكاية واحدة فقط؟ ولماذا نعود أربعة عشر قرنًا إلى الوراء ونتوقف هناك؟ إن السجل التاريخي يمتد إلى أبعد من ذلك، إلى ذلك العصر الذي يُقال فيه: إن أبا الأنبياء إبراهيم غادر أور الكلدانية - مدينة الملك شُلْغي التي تبعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من أوروك، مدينة جلجامش - ليرتحل غربًا ويؤسس ملّته الحنيفية التي نشأ عنها كل من المسيحية والإسلام على حدٍّ سواء، يرى هنتنغتون أن الحضارات متنافرة في جوهرها، وهذا هو رأي هوبز في الأمم من قبله، وفي نظرته المتشائمة، تتبادل الحضارات في أحسن الأحوال الارتيابَ فيما بينها وتتنافس على العنف في أسوَئها، ولا تبدي أيًا من تلك الأواصر التي تجمع بين الناس في حضارة ما فيما يسميه "أسْرة مُمتدة(٢)"، لكن التوراة والقرآن يتفقان على أن اليهود والعرب أبناءُ إبراهيم من ولديه غير الشقيقين إسحاق وإسماعيل. يقول القرآن: "﴿قُلْ آمنَّا بالله وما أُنْزِل علينا وما أُنزِل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ وما أُوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (آل عمران: ٨٤).

توضّح «ملحمة جلجامش» بقوة تلك الوحدة الأساسية للأسرة الممتدة التي يسميها المؤرخ ريتشرَد بولييه "الحضارة الإسلامية-المسيحية(٣)". إن ملحمتي جلجامش والإلياذة، والتوراة والقرآن، ليست نتاجاتِ حضارات منعزلة أو متنافرة إلى الأبد، بل هي نتاجات مترابطة خرجت من رحم الثقافات الثرية

(1) Ibid., 209.
(2) Ibid., 156.
(3) Richard Bulliet, *The Case for Islamo-Christian Civilization* (Columbia University Press, 2005).

لكلٍّ من غرب آسيا وشرق المتوسط. إسحاق وإسماعيل أخوان غير شقيقين، أما أُتنابشتيم ونوح، فهما أقرب من ذلك: إنهما نسختان لشخصية واحدة.

وبدلاً من الحديث عن "ثقافة إسلامية" و"حضارة غربية" بوصفهما كائنين منفصلين انفصالاً حادًا، من الأدقّ تاريخيًا أن نقتدي بغوته ونتحدث عن "ثقافة غربية-شرقية[١]"، وقد جرى تطوير هذه اللُّحمة المشتركة عبر القرون، فنمت من هذه القاعدة الحضارية المشتركة ثقافاتٌ متمايزة، أما في يومنا هذا الذي يتزايد فيه تلاحُمنا يومًا بعد يوم، فإن هذه الثقافات تلتقي مرة أخرى، فبعد ما يقرب من خمسة آلاف سنة على موته، يجد جلجامش أن خلوده قد تأكد مرة أخرى عبر الاستخدامات المتعددة لقصته، كما تنعكس صورته لدى كتّاب متباينين، ومتقاربين، مثل فلِب روث وصدام حسين، وكلاهما من أبناء إبراهيم، وكلاهما وريثٌ لأبيهما الأدبي المشترَك، بابا همنغواي الذي جاب القارّات.

إن كان همنغواي يجلس اليوم إلى جانب جلجامش في بيت الثرى، فلا بد أن سلفه الأكبر سن ليقي أونيني يَسُرُّه جدًّا أن يرى كم من الناس ينفذون وصيته القديمة: أن يفتحوا غطاء الصندوق المصنوع من خشب الأرز، ويُخرِجوا اللوح اللازوردي- أو مكافئه الرقمي - ويقرؤوا قصة البطل الشاب، المندفع عاطفيًا، الذي جاب الدنيا باحثًا عن الحياة، فعاد إلى وطنه ومدينته، مُنهَكًا لكنه راضٍ بقسمته، ليُدَوِّن ما لقيه من نصَبٍ ومشقة على لوحٍ من حجر.

---

(١) تأثر غوته بالشاعر الفارسي حافظ الشيرازي وغيره من شعراء المشرق، فكتب سنة ١٨١٩ سلسلة من القصائد سماها «ديوان الشرق والغرب». [حاشية المؤلف].

مصادر ذات صلة

إذا كان غير المختص تعوزه سنواتٌ من الدراسة في واحدةٍ من الجامعات القليلة التي فيها أقسامٌ للدراسات الآشورية والبابلية، فكيف له أن يتعرف على هذا الكم الممتع من المادة الآتية من فجر التاريخ المدوَّن؟ قد يريد القارئ المهتم بدراسة «ملحمة جلجامش» وسياقها الثقافي القديم أن يعرف من أين يبدأ بحثه أو ما سنسفر عنه عملية البحث.

ظلت النصوص الأدبية الكبرى لبلاد الرافدين لفترةٍ طويلة مبعثرةً في مطبوعاتٍ أكاديمية يصعب إيجادها وبعدة لغات، أما الآنَ فقد أُصبحت في متناول اليد في ترجماتٍ إنجليزية عالية المستوى. فيما يخص «ملحمة جلجامش»، يمكن البدء بترجمة أندرو جورج **The Epic of Gilgamesh: A New Translation** («ملحمة جلجامش: ترجمة جديدة») الصادرة سنة ١٩٩٩ في سلسلة روائع الأدب التي تصدرها دار بِنغوِن، وهذه أفضل ترجمةٍ للملحمة وأكملها تُنشر حتى الآن؛ إذ تشتمل على نصوصٍ مكتشفةٍ حديثًا ولم تُدرَج في أي ترجمة أخرى، تسمح هذه الترجمة البليغة للقارئ أن يرى الملحمة عبر مراحل تطورها التاريخية؛ حيث يُقدِّم له جورج نسخة سن ليقي أونيني الرسمية، ثم يُتبِعها بما تبقى من جُذاذاتِ الملحمة البابلية الأقدم، ومن ثم يعطيه القصائد السومرية الكبرى التي شكلت مصادرَ للملحمة.

أما الراغبون في الغوص في تاريخ الملحمة، فعليهم الرجوع إلى الطبعة الأكاديمية الهائلة التي حققها أندرو جورج تحت عنوان **The Babylonian Gilgamesh Epic: Introduction, Critical Edition and Cuneiform Texts**

(«ملحمة جلجامش البابلية: مقدمة وتحقيق نقدي ونصوص سومرية») الصادرة بمجلدين عن مطبعة جامعة أُكسفورد سنة ٢٠٠٣، وهذه الطبعة الباهرة تُعطي النص الأكادي (بنسخته الأبجدية) مع ترجمة حرفية سطرًا بسطر على صفحتين متقابلتين، وهذه تكملةٌ مفيدة لترجمة جورج المتحررة إلى حدٍّ ما من الحَرْفية والصادرة عن دار پنغون، تستهل طبعة أكسفورد بمقدمة عن النص تكاد تكون بطول كتاب تقريبًا، وتاريخه، وجلجامش وعصره، أما المجلد الثاني فيحتوي على ملاحظات فيلولوجية مفصلة وقائمة مراجع شاملة، كما يحتوي على صور لألواح النصوص المسمارية، يُضاف إلى هذه الطبعة دراسةٌ مهمة أبكر منها لِجفري تِغاي بعنوان The Evolution of the Gilgamesh Epic، («تطور ملحمة جلجامش») الصادرة عن مطبعة جامعة پنسلڤانيا سنة ١٩٨٢، أما كتاب جون مايَر Gilgamesh: A Reader («جلجامش: مختارات نقدية») الصادر سنة ١٩٩٧ عن دار بولشازي-كاردوشي، فيعطي القارئ مجموعة واسعة من المقالات التفسيرية.

وهناك ثلاث ترجمات جيدة جدًّا للملحمة هي: ١) ترجمة جون غاردنر وجون ماير، Gilgamesh: Translated from the Sin-leqi-unninni Version، («جلجامش: مترجمة عن نسخة سِن ليقي أونيني») الصادرة سنة ١٩٨٥ عن دار ڤِنتِج؛ ٢) ترجمة بِنجَمين فوستَر وغيره، The Epic of Gilgamesh: A New Translation, Analogues and Critcism، («جلجامش: ترجمة جديدة للملحمة، ونظائرها، ونقدٌ لها») الصادرة سنة ٢٠٠٣ عن دار نورتون؛ ٣) وترجمة مورين غالَري كوڤاكس The Epic of Gilgamesh، («ملحمة جلجامش») الصادرة سنة ١٩٨٩ عن مطبعة جامعة ستانفورد، وقد أُعيدت طباعة هذه الترجمة في «مختارات لونغمَن للأدب العالمي» التي حررها ديڤد دامروش وغيره وصدرت سنة ٢٠٠٤ عن دار پيرسِن لونغمن، المجلد الأول، ص ٨٨-

١٢٩. وهناك نسخة جيدة صادرة حديثًا للكاتب ستيڤن متشل بعنوان Gilgamesh: A New English Version، («جلجامش: نسخة إنجليزية جديدة») صادرة سنة ٢٠٠٤ عن دار فري پرس، وإن كانت هذه إعادة كتابة للملحمة على شكل رواية أكثر مما هي ترجمة.

ومن أراد الاستزادة من الأدب الأكّادي، فعليه بكتاب ستفَني دالي Myths from Mesopotamia («أساطير من بلاد الرافدين») الصادر سنة ١٩٨٩ في سلسلة روائع الأدب العالمي التي تُصدرها مطبعة جامعة أكسفورد، ويضم هذا الكتاب مجموعة جيدة من أهم النصوص، أما أشمل المختارات من الأدب الأكادي وأحدثها فهو كتاب بِنجَمين فوستر البالغ ألف صفحة بعنوان Before the Muses: An Anthology of Akkadian Literature، («ما قبل ربّات الشعر: مختارات من الأدب الأكّادي»)، وقد صدر سنة ٢٠٠٥ عن مطبعة جامعة ماريلاند، ولا يزال مفيدًا كتاب جيمس پرتشرَد الكلاسيكي Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament، («نصوصٌ قديمة من الشرق الأدنى ذات صلة بالعهد القديم») الذي صدرت طبعته الثالثة سنة ١٩٦٩ عن مطبعة جامعة پرنستون، وهو يشتمل على مختارات واسعة من النصوص الآشورية والبابلية الأدبية والدينية والتاريخية، كما يشتمل أيضًا على نصوص مهمة من الحضارتين الحِثّية والكنعانية المجاورتين، وكما يُشير عنوان الكتاب، اختيرت هذه النصوص لصلتها بالديانة اليهودية والتاريخ التوراتي.

كما تتوفر الآن المجموعة الكاملة للأدب السومري القديم في أكثر الأشكال حداثةً: الإنترنت، فقد قام فريقٌ دولي بإنشاء قاعدة بيانات إلكترونية تضم المجموعة الكاملة للأدب السومري منسوخةً عن النصوص الأصلية ومترجمةً ترجمةً نثريةً إلى الإنجليزية، وهي متوفرة على هذا الرابط: www.etcsl.orient.ox.ac.uk. ويمكن للقارئ أن يجد أشهر هذه النصوص في

مجلد مطبوع مرافق بعنوان The Literature of Ancient Sumer («الأدب السومري القديم») الصادر سنة ٢٠٠٤ عن مطبعة جامعة أكسفورد، بتحقيق جرمي بلاك وآخرين، ولكن المجموعة المتوفرة على الإنترنت أوسع نطاقًا وأحدث؛ حيث تُحَدَّث النصوص والترجمات كلما عُثر على اكتشافات جديدة أو أُقرَّت تفسيراتٌ جديدة.

أما كتاب مارك ڤان ميروب A History of the Ancient Near East, ca. 3000-323 BC («تاريخ الشرق الأدنى القديم منذ حوالي ٣٠٠٠ إلى ٣٢٣ قبل الميلاد») الصادر عن دار نشر بلاكوِل سنة ٢٠٠٤، فهو يُعطي مُلَخصًا واضحًا لتاريخ بلاد الرافدين، وإن شئت الاطلاع على مسح أشمل لتاريخ الشرق الأدنى، بما في ذلك مصر، فعليك بكتاب وليَم هالو ووليم سمِبسن The Ancient Near East: A History («تاريخ الشرق الأدنى القديم») الصادرة طبعته الثانية سنة ١٩٩٨ عن دار هاركورت بريس، وسمِبسن أيضًا هو كبير المحررين لمختارات أشمل بعنوان The Literature of Ancient Egypt («الأدب المصري القديم») الذي صدرت طبعته الثالثة سنة ٢٠٠٣ عن مطبعة جامعة ييل، وهناك مسحٌ تاريخيٌّ جيد في كتاب جورج رو بعنوان Ancient Iraq («العراق القديم») الذي صدرت طبعته الثالثة سنة ١٩٩٢ عن دار پنغوِن، كما أن كتاب غوندِلن لايك Mesopotamia: The Invention of the City («بلاد الرافدين وابتكار المدينة») الصادر سنة ٢٠٠٢ عن دار پنغوِن هو دراسة ممتازة لثقافة المُدن، كما يمكنك أن تجد خرائط تاريخية وإيضاحات مفيدة في كتاب مايكل روف The Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East («الأطلس الثقافي لبلاد الرافدين والشرق الأدنى القديم») الصادر سنة ١٩٩٠ عن دار إكوينوكس.

وإذا التفتنا إلى المستكشفين ومنقبي الآثار من العصر الفكتوري، نجد أن كل أعمالهم تقريبًا قد نفدت طبعاتها منذ قرنٍ أو يزيد، مع أن كتاب أوستن هنري لايرد Nineveh and Its Remains («نينوى وآثارها») تعاد طباعته بين الحين والآخر، أما كتابه الممتع Early Adventures in Persia and Susiana، («مغامرات باكرة في بلاد فارس وسوسة») فلم تُعَد طباعته منذ سنين عديدة، ولكن طبعاته الأولى بالإضافة إلى كتاب «نينوى وآثارها» والكتب الأخرى من تأليف لايرد فهي متوفرة على الإنترنت على مواقع للكتب المستخدمة على هذا الرابط www.abe.com (وهو موقع جيد تمامًا ولا سيما للكتب المستعملة في إنجلترا)، ويمكن أيضًا شراء كتابي جورج سمث Assyrian Adventures («مغامرات آشورية ») و The Chaldean Account of Genisis («رواية التكوين الكلدانية») من الإنترنت بأسعار معقولة، أما كتابا هُرْمُزْد رسّام Asshur and the Land of Nimrod («آشور وأرض النمرود») و Mission to Theodore, King of Abyssinia («البعثة إلى ثيودور، ملك الحبشة») فإن العثور عليهما أصعب بكثير، لقد نُشِر هذان الكتابان بكميات قليلة ولم تُعَد طباعتهما، وإن وُجِدَ أي منهما فيصل سعره إلى عدة مئات من الدولارات.

وهناك كمٌّ هائل من الدراسات الأكاديمية عن آراء الفكتوريين عن الشرق الأوسط وعن تاريخ الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، ومن أبرز هذه الدراسات كتاب إدوَرد سعيد Orientalism («الاستشراق») الصادر سنة ١٩٧٨ عن دار ڤايكنغ، وكتاب مورغِنز تروله لارسن The Conquest of Assyria: Excavations in an Antique Land («فتحُ آشور: تنقيباتٌ في بلادٍ عريقة») الصادر سنة ١٩٩٤ عن دار رَتْلِدج، وأفضل مسح حديث لتاريخ الشرق الأوسط خلال "القرن التاسع عشر الطويل" يقدمه إفرايم وإيناري كارْش في كتابهما Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle

East 1789-1923 («إمبراطوريات الرمال: الصراع من أجل السيادة في الشرق الأوسط ١٧٨٩-١٩٢٣») الصادر سنة ١٩٩٩ عن مطبعة جامعة هارفَرْد، يقدم هذان المؤرخان مراجعة ممتعة للتاريخ العثماني لا يظهر فيها الحكام والدبلوماسيون العثمانيون بوصفهم شخصيات ساكنة تتصف بالفساد والانحلال، بل بوصفهم في غالب الأحيان لاعبين دُهاة في "اللعبة العظيمة" غير المتكافئة التي بدأتها القوى الاستعمارية الأوربية.

المؤلف فى سطور :

البروفيسور ديفد دامروش:

رئيس قسم الأدب المقارن في جامعة هارفرد، ورئيس جمعية الأدب المقارن الأمريكية سابقًا، له عدد من الدراسات النقدية، من أهمها «ما الأدب العالمي؟» وهو أيضًا المحرر العام لـــ «مختارات لونغمَن للأدب العالمي» ومحرر مشارك في سلسلة نورتن في الأدب الإنجليزي والأدب الأمريكي.

المترجم فى سطور :

د. موسى أحمد الحالول:

أكاديمي ومترجم سوري يحمل درجة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة بنسلفانيا الحكومية، يعمل حاليًا في قسم اللغات الأجنبية بجامعة الطائف، المملكة العربية السعودية، له عدد من الترجمات، منها «هكذا تكلم القايكنغ»، «خفايا ما بعد الحداثة»، «حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم»، «المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي»، وله كتاب نقدي باللغة العربية بعنوان «العربية المُعَذَّبة» وكتاب في الترجمة بعنوان «الترجمة الأدبية: تطبيقات عملية في ترجمة النثر».

التصحيح اللغوي: مبروك يونس

الإشـــراف الفني : حـــسن كامل